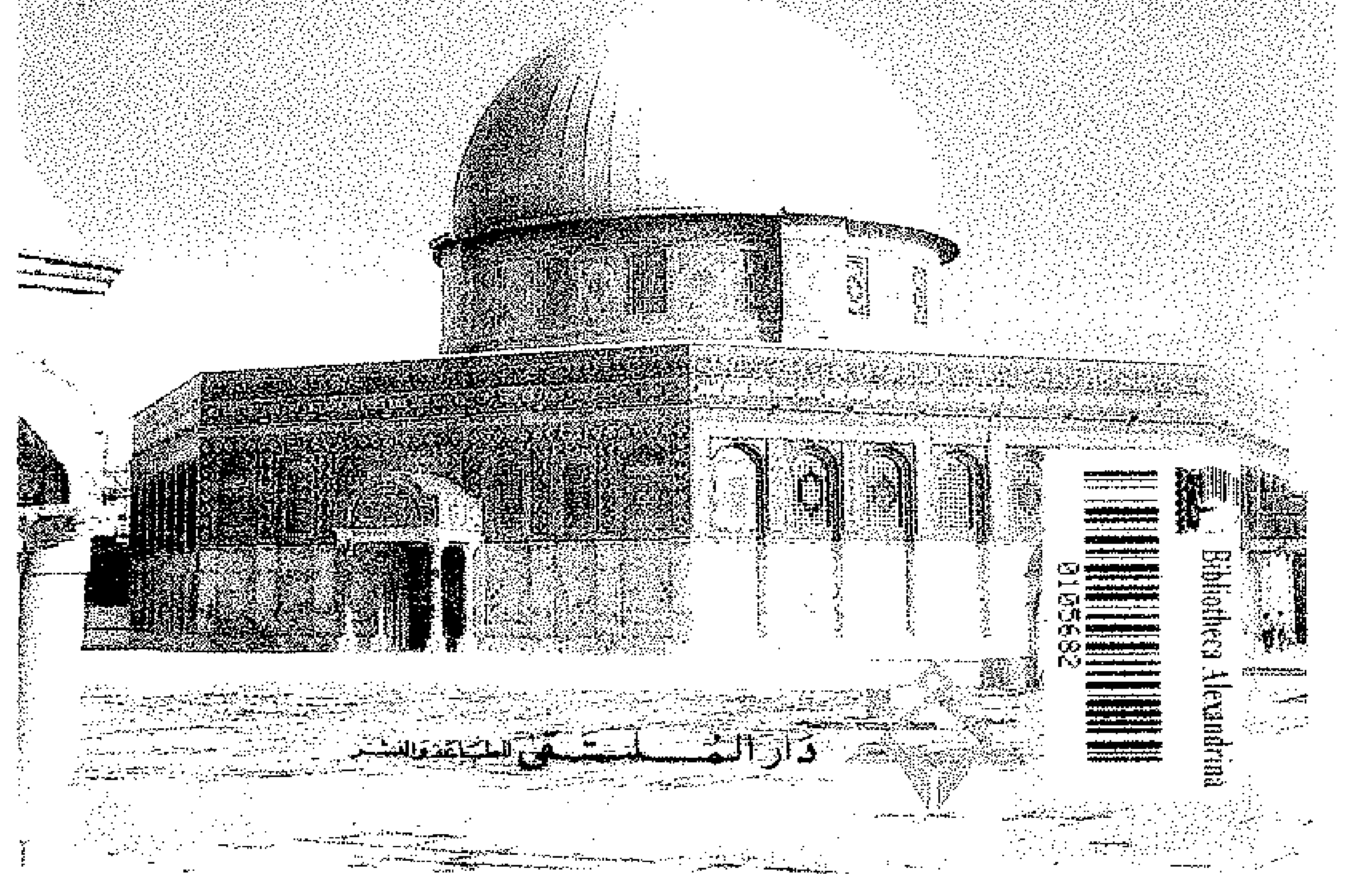
اللواء الركن د. ياسين سويد

حُرُوبُ القُدْسِ

في التَّارِيخِ الإِسلاَمِي وَالعَرَبِي



دار الملتقى للطباعة والنشر

حروب القدس
في
التاريخ الاسلامي والعربي

اللواء الركن

د. ياسين سويد

(متقاعد)

حروب القدس
في
التاريخ الإسلامي والعربي



General Organization of the ...

دار الملتقى

للطباعة والنشر

الطبعة الأولى
1997م

ليماسول ـ قبرص/ ص. ب: 6527
بيروت ـ لبنان/ ص. ب: 1316581

الناشر:
دار الملتقى للطباعة والنشر

قال تعالى في كتابه الكريم:

﴿وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ﴾

(سورة البقرة، 2/ 191)

توطئة

تظل القدس في بالنا، عرباً مسلمين وغير مسلمين، ومسلمين عرباً وغير عرب.

ذلك أن القدس، في عقيدتنا القومية، قلب فلسطين، وفلسطين قلب الوطن العربي الكبير، من المحيط إلى الخليج.

وهي، في عقيدتنا الدينية، أولى القبلتين، وثالث الحرمين الشريفين.

والقدس عربية الأصل والمنشأ، أسستها قبائل عربية (من اليبوسيين) هاجرت إلى أرض كنعان من جزيرة العرب، فكان «ملكي صادق» أول ملك «يبوسي» أقام مدينة له باسم «أوروسالم» التي باركها، يوماً، ابراهيم الخليل، صاحب أول دعوة إسلامية حنيفة في التاريخ، فكانت «يبوس» أو «أوروسالم» أول مدينة مقدسة في التاريخ كذلك.

واغتصب العبرانيون «يبوس» من أهلها «اليبوسيين» منذ ثلاثة آلاف عام، اغتصبها ملكهم «داود» وسمّاها باسمه، ثم سرق العبرانيون اسمها الذي يرمز إلى السلام والأمن وسموها «أورشليم»، ثم سرقوا تاريخها وادّعوا، زوراً وبهتاناً، أنهم أهلها وأصحابها ومالكوها، فغيّبوا النسب الحقيقي للمدينة المقدسة، وهم يحاولون، اليوم، تغييب وجهها العربي النقيّ.

في القدس اليوم، إذن، صراع بين العروبة و «العبرنة»، وسوف يستمر هذا الصراع ما دام هناك عبرانيون معتدون، وعرب تواقون إلى تحرير أرضهم ومقدساتهم.

إنه الصراع القائم، على القدس، منذ ثلاثة آلاف عام، وما يزال قائماً، وسيظل مستمراً، رغم كل المساحيق التي يحاول العالم، من خلالها، أن يخفي الوجه الحقيقي للصراع: عروبة القدس.

وقاومت القدس، وستظل تقاوم، وكل ما يجري اليوم، على الساحة الفلسطينية والعربية (والمقدسية) من مفاوضات للسلام، إن هو إلا «هدنة» فرضتها الظروف الدولية وضعف العرب، ولا بد من أن تنقضها الأجيال العربية الآتية، عندما تعي قوميتها، وتدرك حقيقة الخطر الذي يتهددها من جراء قيام كيان صهيوني في قلب وطنها الكبير.

من هذه المنطلقات الثابتة، في رأينا، حاولنا، في هذا الكتاب، أن نؤرخ للصراع المستمر والمتمادي، على القدس، في التاريخ الإسلامي والعربي، أي منذ الفتح الإسلامي للقدس، وحتى تاريخنا هذا.

وكان تبويبنا للكتاب قائماً على هذا الأساس، إذ اعتبرنا أن الصراع على القدس، الذي خاضه المسلمون ضد البيزنطيين (في القرن الميلادي السابع)، ثم ضد الصليبيين (في القرنين الميلاديين: الحادي عشر والثاني عشر)، والذي خاضه العثمانيون (المسلمون كذلك) ضد البريطانيين (في مطلع القرن الميلادي العشرين)، هو صراع يدخل في باب (التاريخ الإسلامي).

أما الصراع الذي لا يزال العرب يخوضونه، ضد الصهاينة، في هذا القرن (الميلادي العشرين)، فهو صراعٌ يدخل في باب (التاريخ العربي).

وعلى هذا الأساس، خصصنا الباب الأول من الكتاب (لحروب القدس في التاريخ الإسلامي) وخصصنا الباب الثاني منه (لحروب القدس في التاريخ العربي).

نرجو أن نكون قد وفقنا في عرضنا لهذه الحروب، تاركين للقارىء الكريم استنتاج الدروس المفيدة والملائمة منها، وهي دروس لا بد من أن يدركها، ويستفيد منها، كل جيل عربي، في كل زمن.

بيروت - 18 تشرين الثاني/ نوفمبر 1996

اللواء الركن د. ياسين سويد

مقدمة تاريخية

القدس في التاريخ

القدس، أو بيت المَقْدِس، أو البيت المقدَّس[1]. أو يبوس، أو أوروسالم (مدينة السلام)، تلك هي بعض أسماء المدينة العريقة في تاريخها الممتد حتى ألفي عام قبل الميلاد، والتي تعدّ في نظر المسلمين، أولى القبلتين[2]، وبها ثالث الحرمين الشريفين[3]، وتعدّ، في نظر العالم أجمع، موئل كل الديانات السماوية، يهودية[4]

---

(1) القدس: تنزيه الله تعالى، وبيت المقدس: البيت المطهَّر، أي المكان الذي يُتطهر به من الذنوب (ابن منظور، لسان العرب، ج 6: 168 ـ 169؛ وياقوت، معجم البلدان، ج 5: 166 ـ 167)، والبيت المقدس: المنزَّه والمبارك والمطهَّر، والتقديس: التنزيه والتطهير والتبريك.

(2) كان المسلمون، في بدء الدعوة، يتوجهون نحو الكعبة في صلاتهم، ولما هاجروا إلى المدينة المنورة جاءهم أمر الله تعالى «باستقبال بيت المقدس تألفاً لليهود» فصارت قبلتهم الجديدة «بيت المقدس» وظلت كذلك طيلة ستة عشر أو سبعة عشر شهراً، حتى نزلت الآية الكريمة ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ...﴾ (البقرة 2/ 144)، وتفسير هاتين الآيتين للإمامين الجلالين: جلال الدين المحلي وجلال الدين السيوطي، هو أن النبي (صلعم) كان يحب التوجه بصلاته نحو الكعبة، ويتشوق لصدور الأمر الإلهي الكريم بذلك «لأنها قبلة ابراهيم، ولأنه أدعى إلى الإسلام العرب» فلبى الله عز وجل رغبته (تفسير الجلالين بهامش القرآن الكريم)، ورواها أيضاً: السدّي وأبو اسحاق (القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج 2: 158).

(3) الحَرَمان: مكة المكرمة والمدينة المنورة.

(4) لم نجد في تفسير الجلالين ولا في القرطبي ما يؤكد قول ياقوت إن «الطور الأيمن» يعني «بيت المقدس» وذلك في قوله تعالى: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ أَنجَيْنَاكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ وَوَاعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنَ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ...﴾ (طه: 20/ 80) والعدو المقصود بهذه الآية هو فرعون، أما الجبل فيبدو أنه جبل «الطور» أو «طور سيناء»، وهو «الجبل الذي بمدين الذي كلّم الله تعالى موسى، عليه السلام، عليه تكليماً» (ابن منظور، المصدر السابق، ج 4: 508)، وهو المكان الذي نزّل الله عز وجل فيه المن والسلوى على بني اسرائيل لكي يطعمهم

ومسيحية[5] وإسلامية[6]. أنشأتها القبائل اليبوسية المتحدرة من الكنعانيين، والتي نزحت عن شبه جزيرة العرب، في مطلع الألف الثالث قبل الميلاد، واتجهت إلى فلسطين وسوريا الداخلية التي سميت، بعدها، بأرض كنعان، حيث استقرت هذه القبائل وأنشأت حضارة مزدهرة ومدناً عديدة أهمها: يبوس (القدس) وشكيم (نابلس) وبيت شان (بيسان) ومجدو (تل المتسلم) وبيت إيل (بيتين) وجيزر (تل الجزر) واشقلون (عسقلان)[7]. وهكذا ظهرت «يبوس» بهذا الإسم، لأول مرة في التاريخ، ثم عرفت، بعدها، باسم «أوروسالم» نسبة إلى الإله «سالم» إله السلام لدى الكنعانيين[8]، وقد تبنى العبرانيون، بعدها، الاسم الأخير، مدّعين، زوراً، أنهم أول من أطلقوه على المدينة المقدسة.

وللمدينة المقدسة أسماء أخرى منها: ايلياء أو (Aélia Capitolina) وهو الإسم الذي أطلقه عليها الامبراطور الروماني هادريان عام 135م بعد أن كان

في تيههم، وهو مكان بعيد عن القدس، كما هو معروف. والترابط واضح بين خروج بني اسرائيل من مصر بعد هربهم من فرعون وجنده، ونزولهم بجانب جبل الطور وإنزال المن والسلوى عليهم في تيههم، مما لا يدع مجالاً للشك بأن الجبل المقصود هو في سيناء وليس في فلسطين.

(5) يقول ياقوت، عن مقاتل بن سليمان، إن المقصود بالربوة الوارد ذكرها في الآية الكريمة ﴿وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾ (المؤمنون: 23/ 50)، هو «بيت المقدس» (ياقوت، المصدر السابق، ج 5: 166). إلا أن الجلالين، في تفسيرهما للآية، يقولان إن الربوة هي المكان المرتفع، وهي تعني، في الآية «البيت المقدس أو دمشق أو فلسطين». ويقول القرطبي، في تفسيره للآية نفسها، إن المراد بالربوة، في هذه الآية، هو ما قاله أبو هريرة، أي «فلسطين» أو «الرملة». ويورد القرطبي، كذلك، تأويلات عدة للمكان المقصود بهذه الآية فيقول: دمشق (عن ابن عباس وابن المسيّب وابن سلام) وبيت المقدس (عن كعب وقتادة) ومصر (عن ابن زيد)، دون أن يرجح، في رأيه، أياً من هذه المواقع (القرطبي، المصدر السابق، ج 12: 126 ـ 127).

(6) قال تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ...﴾ (الإسراء: 17/ 1). «قيل: بالثمار وبمجاري الأنهار، وقيل بمن دفن حوله من الأنبياء والصالحين، وبهذا جعله مقدساً» (القرطبي، م. ن.، ج 10: 212).

(7) العارف، عارف، المفصل في تاريخ القدس، ج 1: 1.

(8) الموسوعة الفلسطينية، القسم العام، مجلد 3: 510، وربما كانت منسوبة إلى ملك اليبوسيين «سالم اليبوسي» الذي زاد في بنيانها وشيّد الحصن المسمى «حصن يبوس» (العارف، المرجع السابق، ج 1: 3).

القائد الروماني تيتوس قد دمّرها عام 70م، فأعاد هادريان بناءها وسماها بهذا الإسم، وأقام فيها هيكلاً وثنياً لآلهته[9].

وقد اتسمت هذه المدينة بالطابع الروحي منذ تأسيسها، فقد بناها ملك يبوسي يدعى «ملكي صادق» (ومعناها: القادر المستقيم)، اشتهر بزهده وورعه، حتى دعاه قومه باسم «كاهن الرب الأعظم»، ويروى أنه استقبل ابراهيم الخليل (عليه السلام) عند زيارته ليبوس، في طريقه إلى مصر (نحو عام 1850 ق. م)، وأكرم وفادته. وقد سمى «ملكي صادق» مدينته هذه باسم «أورو ـ سالم» أي «مدينة السلام»[10]. وكانت مساحة المدينة عند تأسيسها 48 كلم^{2}م[11].

وفي العام الألف قبل الميلاد، تمكن داود، ملك بني اسرائيل، من احتلال يبوس (أو أوروسالم) بعد أن انتزعها من أهلها الأصليين (اليبوسيين)، وقد جاء في العهد القديم، بهذا الصدد، ما يلي: «وزحف الملك (داود) ورجاله على أورشليم، على اليبوسيين سكان تلك الأرض، فكلموا داود وقالوا: إنك لا

---

(9) Hadas-Lebel, Mireille, Jérusalem contre Rome, p. 163.
وذكر ياقوت أن «إيلياء» هو «اسم مدينة بيت المقدس، قيل: معناه بيت الله، . . وقيل: إنما سميت إيلياء باسم بانيها وهو إيلياء بن إرم بن سام بن نوح، عليه السلام»، (ياقوت، المصدر السابق، ج 1: 293)، إلا أن ذلك، في رأينا، يدخل في باب الأسطورة. وذكر القرطبي عن مالك عن أبي هريرة أن رسول الله (صلعم) قال: «لا تُشدّ الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: إلى المسجد الحرام وإلى مسجدي هذا، وإلى إيلياء ـ أو بيت المقدس» (القرطبي، المصدر السابق، ج 10: 211). وتذكر الباحثة الأثرية اليهودية ميراي هداس ـ ليبل Mireille Hadas-Lebel أن الامبراطور الروماني «هادريان» كان قد قرر، في زيارة له (عام 130م) إلى اليهودية، أن يعيد بناء أورشليم التي كانت صحراء قاحلة بعد أن دمّرها تيتوس (عام 70م) وأحرق هيكلها، وكانت نية الامبراطور بإعادة بناء المدينة المقدسة لا تعود إلى رغبته ببناء الهيكل اليهودي فيها من جديد، بل لرغبته ببناء مستعمرة رومانية باسم «آيليا كابيتولينا Aélia Capitolina»، حيث يقوم على أنقاض الهيكل اليهودي معبد روماني وثني (Hadas-Lebel, Mireille, Jérusalem contre Rome, p. 163).
وقد حملت القدس هذا الإسم «إيلياء» إلى حين فتحها المسلمون في القرن السابع الميلادي.

(10) العارف، المرجع السابق، ص 42 وانظر: العهد القديم (تك 14: 17 ـ 18) ويسمي العهد القديم مدينة «ملكي صادق» هذه باسم «شليم».

(11) بحيري، صلاح الدين، في كتاب، يوم القدس، ص 33، بحث بعنوان: «أضواء على الجغرافيا السياسية لمدينة القدس» من أبحاث الندوة الثانية للجنة «يوم القدس» التي أقيمت في عمان (12 ـ 14 ت 1/ اكتوبر 1991).

تدخل إلى هنا، فحتى العميان والعرج يصدّونك. ولكن داود أخذ حصن صهيون، وهو مدينة داود»[12]، وما لبث داود أن نزع عن هذه المدينة اسمها الذي عرفت به منذ تأسيسها، واستبدله باسم «مدينة داود» كما سمى الجبل الذي تقوم المدينة عليه باسم «جبل صهيون»[13]، و (حصن يبوس) الذي أقامه اليبوسيون في مدينتهم باسم «حصن صهيون». ثم ما لبث العهد القديم أن أغدق على مدينة اليبوسيين أسماء عديدة أخرى مثل: مدينة داود (2 صم 5: 7) ومدينة الأمانة (زك 8: 3).

ومدينة الله (مز 46: 5 و87: 3) ومدينة إلهنا (مز 48: 2 و9).

ومدينة الملك العظيم (مز 48: 3) ومدينة رب القوات (مز 48: 9).

ومدينة الرب (مز 101: 8) وصهيون (مز 48: 13 ومز 87: 2).

أما العرب المسلمون الذين فتحوا المدينة المقدسة في القرن السابع الميلادي فقد سموها بأسماء عديدة، مثل: القدس، وبيت المَقْدِس، والبيت المقدّس، وهي جيعها، أسماء حسنى تمجد المدينة وتقدسها وتنزهها، كما سبق أن قدمنا[14]، كما سموها باسمها الروماني «ايلياء».

تقع القدس على ربوة عالية في قلب فلسطين تشرف، من جهة الشرق، على البحر الميت الذي يبعد عنها مسافة 22 كلم، وعلى جبل مؤاب، عبر الأردن، ومن جهة الغرب على السهل الساحلي المحاذي للبحر المتوسط الذي يبعد عنه مسافة 58 كلم[15]، وهي ذات موقع جغرافي مميز، إذ إنها تعتبر ثغر الشام للقادم إليها من مصر، وبوابة مصر للقادم إليها من الشام، ومفتاح فلسطين كلها.

تعلو القدس عن سطح البحر الميت 1150 متراً[16] وعن سطح البحر المتوسط نحو 744 متراً (2440 قدماً)[17]، ذلك أنها أقيمت على تلال تدعى «تلال

---

(12) العهد القديم، 2 صم 5: 6 و7.

(13) جاء في العهد القديم: «جبل صهيون، أقاصي الشمال، مدينة الملك العظيم» (مز 48: 3)

(14) راجع الحاشيتين 1 و9.

(15) الموسوعة الفلسطينية، مجلد 3: 508، و Gwinn, R. The New Encyclopaedia Britannica, vol. 22, p. 354.

(16) الدباغ، مصطفى، بلادنا فلسطين، ج 9، ق 2 (1): 13، حاشية (1).

(17) م. ن. ص. ن. حاشية (2).

الضهورة التي كانت تعرف باسم «أوفل»[18]. وقد شيّد اليبوسيون، على أعلى قمة في المدينة، حصناً منيعاً سموه باسمهم «حصن يبوس» وأحاطوا الحصن والمدينة بسور منيع.

وتشرف مدينة «يبوس» على ثلاثة وديان صعبة المسالك، من ثلاث جهات:

- من الشرق: وادي قدرون، أو وادي جهنم، أو وادي يهوشافاط (يوء 4: 2 و12) وهو يقع بين جبل الزيتون شرقاً وتلال أوفل، حيث تقوم المدينة، غرباً، ويمتد هذا الوادي من شمال شرقي المدينة حتى جنوبها الغربي، حيث يبدأ بالانحدار شرقاً ليتصل «بوادي الراهب» وينتهي بالبحر الميت[19]. وقد شكل هذا الوادي الحد الشرقي للمدينة.

- من الجنوب: وادي هنّوم أو وادي الربابة، وهو يتصل، شرقاً، بوادي قدرون، ثم يسير نحو الغرب، بمحاذاة جنوب المدينة، ثم ينعطف شمالاً بمحاذاة غربها، ملتفاً حول السفح الجنوبي لجبل صهيون[20].

  وقد شكل هذا الوادي الحدّين الجنوبي والجنوبي الغربي للمدينة.

- من الغرب: وادي الروث (أو الزبل) أو «وادي القمامات». وقد سماه المؤرخ اليهودي «يوسفوس» الذي عاش في القرن الأول الميلادي «وادي تيروبيون Tyropéon»[21]، وهو يمتد من ملتقى وادي قدرون بوادي الربابة، جنوب المدينة، ثم يتجه شمالاً، فاصلاً بين جبل صهيون من جهة (الجنوب الغربي) وتلال أوفل وجبل موريا من جهة (الشمال الشرقي)[22].

---

(18) وتطل هذه التلال على قرية «سلوان» الواقعة جنوب شرقي المسجد الأقصى (م. ن. ص. ن. حاشية 2). وانظر الموسوعة الفلسطينية، المصدر السابق، مجلد 3: 509.

(19) أو «وادي سلوان» نسبة إلى قرية سلوان الملر ذكرها، أو «وادي ستي مريم»، أو «وادي النار»، ويسمى أيضاً «وادي يهوشافاط»، الدباغ، م. ن. ص 14. وظاظا، حسن، أبحاث في الفكر اليهودي، ص 24.

(20) م. ن. ص 15 و18. ويسمى أيضاً: وادي سلوان أو جيحون، لأن مياه نبع «جيحون» تنساب فيه، ظاظا، المرجع السابق، ص 25.

(21) الدباغ، م. ن. ص 18 و Josèphe, Flavius, La guerre des Juifs, p. 428.
ويسميه ظاظا أيضاً: وادي الجبن أو وادي الجبّانة (ظاظا، المرجع السابق، ص 25).

(22) الدباغ، المرجع السابق، ج 9 ق (1): 18 و Bahat, The Illustrated Atlas of Jerusalem, pp. 12-13.

ويذكر «باهات» في كتابه واديين آخرين هما:

- وادي القلعة: الذي يقع عند السفح الغربي لجبل صهيون ويمتد من شمال شرقي هذا السفح إلى جنوبه الغربي. وربما كان هو نفسه الوادي المسمى «وادي رفائيم» أو «وادي العفاريت»، وبه مدافن للموتى[23].

- وادٍ اعتراضي يمتد ما بين وادي القلعة ووادي الروث، متصلاً، عند طرفه الغربي، بوادي القلعة من الجهة الغربية الجنوبية، وبوادي الروث، عند وسط هذا الأخير، من الجهة الشرقية الجنوبية[24]. (انظر المخطط رقم 1).

وهكذا بدت مدينة القدس محصنةً من جهاتها الثلاث: الشرقية والغربية والجنوبية، بموانع طبيعية تمنع أي فاتح من الوصول إليها من هذه الجهات بسبب الوديان الصعبة، ولم يكن ممكناً احتلالها إلا من الجهة الشمالية والشمالية الغربية فقط، ويبدو أنها الجهة الوحيدة التي سلكها معظم الفاتحين في التاريخ لبلوغ المدينة[25]. ثم إنها، بموقعها هذا، كانت تتحكم بالطرق التجارية القديمة التي كانت تخترق فلسطين من الشمال إلى الجنوب ومن الشرق إلى الغرب، فتصلها بالمحيط القريب والبعيد، من حبرون (الخليل) جنوباً إلى بيت إيل (بيتين) فشكيم (نابلس) شمالاً، ثم إلى أريحا والأردن شرقاً[26]، وإلى ساحل البحر المتوسط غرباً، ذلك أنها كانت قائمة على التلال التي تمثل «خط تقسيم المياه بين وادي الأردن شرقاً والبحر المتوسط غرباً»[27] مما يسر لها الاتصال بكل الجهات، كما أن من يحتلها يستطيع التحكم بفلسطين كلها[28].

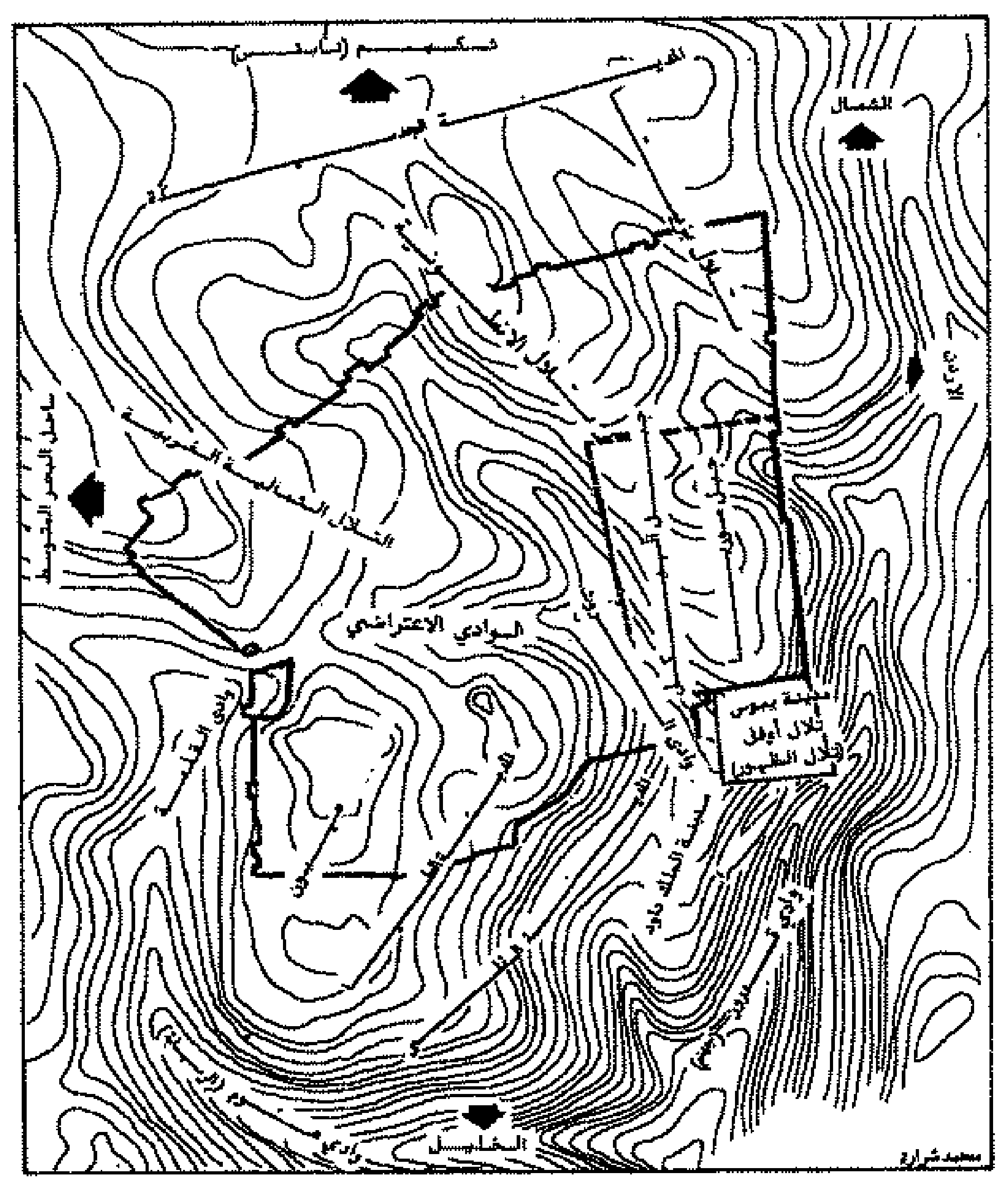
وكانت الجبال والتلال تحيط بالمدينة من كل جانب، في المرحلة الأولى لتأسيسها، فكان يحدّها جبل الزيتون (أو جبل الطور) من الشرق، وتل موريا من

---

(23) ظاظا، حسن، المرجع السابق، ص 25، و: Bahat, Ibid.
(24) Bahat, Ibid.
(25) الدباغ، المرجع السابق، ص 19، والموسوعة الفلسطينية، مجلد 3: 509.
(26) الموسوعة الفلسطينية، م. ن. ص 508، وانظر: خارطة فلسطين لعام 1948.
(27) Encyclopaedia Britannica, vol. 22, p. 354.
(28) الموسوعة الفلسطينية، مجلد 3: 508.

مخطط رقم (1)

مدينة يبوس والقدس القديمة بسورها الحالي



BAHAT, DAN THE ILLUSTRATED ATLAS OF GERUSALEM. PAGE 13

الشمال، وتل بزيتا (أو بيت زيتا أو بيت الزيتون) من الشمال الغربي(28 مكرر) وتل عقرا (أو عكرا أو أكرا، وهو امتداد لتلال أوفل) من الجنوب، وجبل صهيون من الجنوب الغربي ومن الغرب. ولهذه الأسباب، كان المجال الأرحب لتوسع القدس، خلال العصور، هو الناحية الشمالية، إلا أن المدينة انتشرت، فيما بعد، وفي العصور اللاحقة، على الجبال والتلال المحيطة بالمدينة الأولى «يبوس»، بعد أن هُجرت هذه المدينة تماماً. وقامت مدينة القدس على التلال والجبال المحيطة بتلال الضهور (أو تلال أوفل)، وهي:

- شمالاً: تل موريا، الذي سمي فيما بعد (جبل الهيكل) حيث قام هيكل سليمان، ثم «جبل الحرم» حيث بني مسجد الصخرة بعد الفتح الإسلامي للمدينة، وفي عهد الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان، عام 72هـ = 691م. وقد ورد اسم «موريا» في سفر التكوين (22: 2) حيث أمر الله ابراهيم أن يأخذ ابنه اسحق ليذبحه.

- شمالاً بشرق: تل بزيتا حيث قامت «المدينة الجديدة». ويقع «جبل سكوبوس» أو «جبل المشارف» في الشمال الشرقي من «بزيتا» أو «المدينة الجديدة». ويسمي التلمود هذا الجبل «جبل المراقبين» وهو يشكل امتداداً لجبل الزيتون من الناحية الشمالية، ويفصل بينهما منخفض يدعى (عقبة الصوان)(29).

- جنوباً: تل أكرا أو عقرا الذي هو امتداد لتلال أوفل من الناحية الجنوبية، حيث توسعت «مدينة داود» وقامت «قلعة عقرا» أو «أكرا».

كما أنها امتدت:

- جنوباً بغرب: حيث قامت «المدينة السفلى».

(28 مكرر) يذكر «ظاظا» اسم جبل يدعى «بطن الهواء» هو امتداد لجبل الزيتون في «الزاوية الجنوبية الشرقية للقدس يفصله عنها وادي سلوان» كما يذكر زعماً يقول إن داود أقام عليه معابد لنسائه الوثنيات (انظر العهد القديم، سفر الملوك الأول 11: 1 ـ 8)، (ظاظا، المرجع السابق، ص 21).

(29) ظاظا، المرجع السابق، ص 22 ـ 23.

- وغرباً: حيث قامت «المدينة العليا» على جبل صهيون[30] (انظر المخطط رقم 1)، وهي ذات دفاعات طبيعية، لذا، دعاها الملك داود، ومن بعده ابنه الملك سليمان، بالقلعة[31].

ويصف «ابن حوقل» القدس في كتابه «صورة الأرض»، في النصف الأول من القرن الهجري الرابع (النصف الأول من القرن الميلادي العاشر) بأنها: «مدينة مرتفعة على جبال يُصعد إليها من كل مكان يقصدها القاصد من فلسطين»[32]. كما يصف ياقوت، في معجمه، وفي الربع الأول من القرن الهجري السابع (الربع الأول من القرن الميلادي الثالث عشر)، موقع القدس فيقول: «والذي شاهدته أنا منها أن أرضها وضياعها وقراها كلها جبال شامخة وليس حولها ولا بالقرب منها أرض وطيئة البتة... وأما نفس المدينة فهي على فضاء واسع في وسط تلك الجبال، وأرضها كلها حجر من الجبال التي هي عليها»[33].

ويذكر المؤرخ «حسن ظاظا» استناداً إلى المؤرخ اللاتيني «تاسيت»، أن مدينة القدس كانت تقوم على جبل «موريا» الذي أصبح يضم جبل «بزيتا» من الشمال الغربي وجبل «أكرا» أو «عقرا» من الجنوب الشرقي، وذلك بعد أن ردم «شمعون المكابي» الفجوة القائمة بين موريا وأكرا جنوباً (في القرن الثاني ق. م)، وبعد أن ردم «أغريبا الأول» الفجوة القائمة بين موريا وبيزيتا شمالاً (في القرن الميلادي الأول)، حيث امتدت مدينة القدس «على مرتفعين اثنين» هما «جبل موريا» (بالشكل الذي أصبح فيه بعد ضمّ بزيتا وأكرا إليه) و «جبل صهيون» حيث كانت تقوم قلعة أمامية لليبوسيين للدفاع عن المدينة. ويفصل بين الجبلين «وادي الجبّانة أو وادي تيروبيون» أو (وادي الروث) الذي ردم الحشمونيون قسماً منه وأقاموا

---

(30) العارف، المرجع السابق، ص 3، والموسوعة الفلسطينية، مجلد 3: 509، وانظر، لتطور المدينة خلال العصور: Bahat, Op. Cit., Cartes, pp. 13, 25, 35, 39, 81, 109, 119. ويذكر «ظاظا» أن جبل موريا سمي فيما بعد (جبل بيت المقدس أو جبل الحرم)، (ظاظا، المرجع السابق، ص 22).

(31) Josèphe, Op. Cit., p. 428.

(32) ابن حوقل، أبو القاسم، صورة الأرض، ص 158.

(33) ياقوت، المصدر السابق، ج 5: 168، وقد توفي ياقوت عام 626هـ، الموافق لعام 1229م.

عليه قنطرة تصل جبل موريا بجبل صهيون[(33)(مكرر)].

وكانت المدينة قد سُوِّرت، منذ القدم، بأسوار كان الفاتحون تباعاً يرممونها أو يضيفون إليها أسواراً أخرى، حتى بلغت ثلاثة أسوار في بعض النواحي. ويصف يوسفوس، المؤرخ اليهودي الذي عاش في فلسطين، في القرن الميلادي الأول، مدينة القدس (أورشليم) وأسوارها وحصونها، قبل أن يحاصرها القائد الروماني «تيتوس» ويدمّرها (عام 70م). فيقول ما خلاصته: تتحصن أورشليم بثلاثة أسوار، باستثناء الجهات المحاطة بوديان أو مجاري مياه صعبة الاجتياز، حيث يكفي سور واحد لحماية المدينة. وأصعب هذه الأسوار وأكثرها مناعة هو السور القديم (أو سور العهد الملكي) لأنه محاط بوديان ومجاري مياه، ومبني على هضبة تشرف على تلك الوديان والمجاري، بالإضافة إلى أنه مبني بشكل متين ويصعب اختراقه أو تدميره، وهو يبدأ ببرج «هيبيكوس» ويمتد شرقاً، حتى ينتهي بالرواق الغربي للهيكل، ثم يمتد من الجهة الغربية (من البرج نفسه)، جنوباً حتى يجاور وادي هنوم، حيث ينعطف شرقاً ليصل إلى جوار حوض سيلوام (سيلويه)، ثم شمالاً حتى تلال أوفل، وينتهي بالرواق الشرقي للهيكل. وقد بني هذا السور في عهد داود وسليمان والملوك الذين خلفوهما، ويشكل قسم منه السور الداخلي من أسوار المدينة الثلاثة، ويليه، نحو الخارج، السور الأوسط (سور حزقيا) الذي يحيط بالحي الشمالي فقط من المدينة، وهو يبدأ بقصر «هيرودوس» وينتهي «بالأنطونية». أما السور الثالث، وهو الخارجي، ويسمى «سور أغريبا» لأن الملك هيرودوس أغريبا الأول هو الذي بناه، فهو يبدأ ببرج «هيبيكوس» وينتهي بوادي «قدرون». ويرتفع على كل سور من هذه الأسوار الثلاثة عدد من البروج، فعلى السور القديم تسعون برجاً، وعلى السور الأوسط أربعة عشر برجاً، وعلى السور الخارجي ستون برجاً، وأهم هذه البروج: برج هيبيكوس Hippicus وبرج بسيفينوس Psephinus وبرج فزائيل Phasaël (أو برج داود) وبرج فاروس Pharos وبرج مريام Mariamme.

(33 مكرر) ظاظا، المرجع السابق، ص 23 ـ 24 و26. والحشمونيون هم سلالة «سمعان بن متيا»، و «متيا» هو الجد الأعلى للمكابيين. راجع: العهد القديم، ص 948 و Malka, Victor et Salamon, le petit Retz du Judaïsme, p. 55.

أما أورشليم فتقسم إلى قسمين: المدينة العليا (أو القلعة)، وهي تقع على هضبة عالية بحيث تصبح أعلى من القسم الثاني الذي هو المدينة السفلى، وتتحصن بدفاعات طبيعية، كما سبق أن أشرنا.

والمدينة السفلى، وهي تقع على هضبة تسمى «عقرا» إلا أنها ليست بارتفاع الهضبة التي تقع عليها المدينة العليا، وهي بشكل هلال.

وتقع، في مواجهة المدينة السفلى، هضبة ثالثة أقل ارتفاعاً من «عقرا» وتنفصل عنها بمجرى عريض، ويقوم الهيكل على هذه الهضبة، وقد سبق أن ردم الحشمونيون هذا المجرى لكي يصلوا الهيكل بالمدينة. وقد قام في شمال الهيكل، في الشمال الشرقي من المدينة، حي جديد سمي «بزيتا Bézétha» أو «المدينة الجديدة». (انظر المخطط رقم 2 و3).

ذلك هو، باختصار، الشكل العام لأورشليم عشية حصار تيتوس لها[34].

وقد هدمت أسوار القدس، لآخر مرة، على يد الملك المعظم عيسى ابن الملك العادل أبو بكر بن أيوب، صاحب مصر، وكان عيسى «صاحب دمشق» قد تسلم، من أبيه، حكم دمشق وفلسطين، فخرّب أسوار مدينة القدس وبروجها واستحكاماتها خوفاً من أن يحتلها الصليبيون الذين كانوا قد أبرّوا قرب دمياط في مصر، ووجهتهم بيت المقدس، وكان ذلك في مطلع عام 616هـ = 1219م[35].
إلا أن السلطان العثماني سليمان الملقب بالقانوني (1520 = 1566م) أعاد بناء سور المدينة المقدسة خلال حكمه، وقد بدأ ببنائه عام 943هـ = 1536م، وانتهى منه بعد خمس سنوات، أي عام 947هـ = 1540م وفتح فيه أبواباً هي: باب الخليل، وباب العمود (أو باب النصر) وباب الساهرة، وباب المغاربة، وباب النبي داود، كما فتح باب «ستنا مريم» وسُدّ «الباب الذهبي» في الحرم الشريف. ويبلغ المحيط الدائري لهذا السور نحو 4 كلم[36].

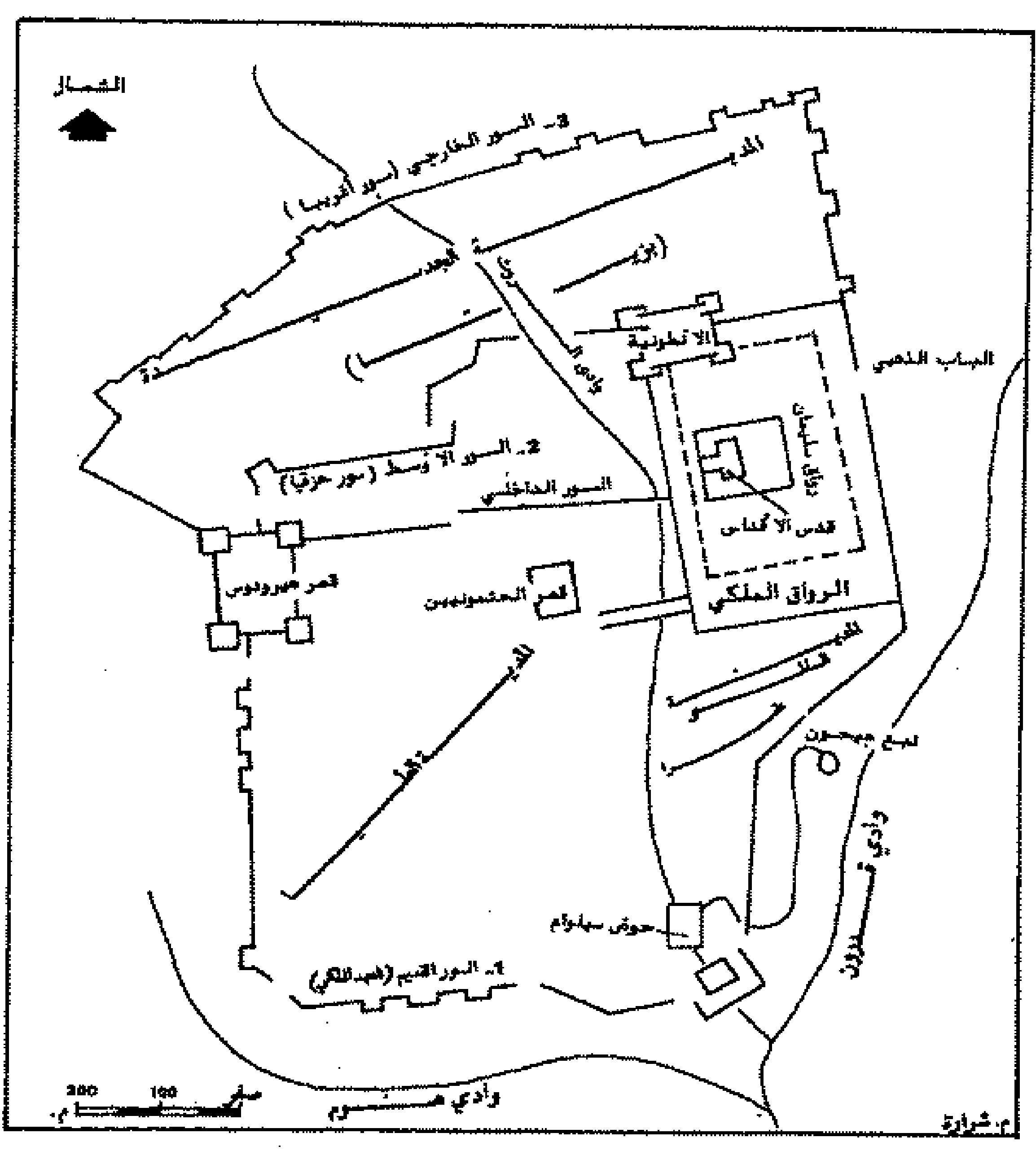
---

(34) Josèphe, Op. Cit., pp. 428-432. وكان «برج هيبيكوس» يقع عند باب يافا (Ibid., p. 428)، إلا أنه لم يعد له اليوم أثر.

(35) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج 12: 1327، وانظر رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية، ج 3: 280، والعارف، المرجع السابق، ص 186.

(36) العارف، المرجع السابق، ص 265 ـ 266، والموسوعة الفلسطينية، مجلد 3: 509، وتذكر الموسوعة «الباب الجديد»، إلا أن هذا الباب فتح في عهد السلطان عبد الحميد عام 1898.

مخطط رقم (2)
مدينة القدس عشية تدميرها من قبل تيتوس (70 م)
(كما رسمها المؤرخ يوسيفوس)



مخطط رقم (2)
المرجع :

GOSEPHE . FILARUIES . LA GUERRE DES GUIFS P.552

وكان للقدس أبواب اختلف المؤرخون في تحديد عددها، منها ما اندثر مع الزمن ومنها ما لم يزل قائماً، وخصوصاً أن القدس القديمة قد زالت آثارها مرات عديدة، بعد أن هدمها نبوخذ نصّر عام 586 ق. م، ثم تيتوس عام 70م. وأقدم ما وصلنا عن القدس من المؤرخين والجغرافيين والرحالة المسلمين هو ما أورده «ابن خرداذْبه» (توفي عام 300هـ = 912م) في كتابه «المسالك والممالك»، وما أورده «ابن حوقل» (توفي عام 371هـ = 981م)، في كتابه «صورة الأرض» وكلاهما لم يأت على ذكر أبواب المدينة المقدسة[37]. إلا أن ما لم نجده عند هذين المؤرخين من ذكر لأبواب القدس نجده عند «المقدسي» المعروف «بالبشاري» (336هـ = 947م ـ 380هـ = 990م) في كتابه «أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم»، حيث يذكر أن للقدس ثمانية أبواب هي: باب صهيون، وباب التيه، وباب البلاط، وباب أرميا، وباب سلوان، وباب أريحا، وباب العمود، وباب محراب داود[38].

ويستكمل المؤرخ الأثري اليهودي المعاصر «دان باهات» هذا الوصف لأورشليم منذ بناء الهيكل الثاني حتى عشية تدميرها على يد تيتوس (538 ق. م ـ 70م) فيقدم لنا مخططاً للمدينة تظهر فيه معالمها في ذلك الحين، مع أسوارها وأحيائها وبروجها وأبوابها وجسورها وطوبوغرافية الأرض المحيطة بها، كما يذكر العديد من أبوابها وبروجها، ومعظمه بلا أسماء، ومن الأبواب المسماة: الباب المخفي، وباب جنّات (Gennath)، وباب الايسنز (Essenes)، وباب باركلي (Barclay)، وباب وارن (Warren)، وباب البرج (أو باب دمشق) والباب الجديد، ومن بروجها المسماة: برج بسيفينوس (Psephinus)، وبرج هيبيكوس (Hippicus) وبروج النساء، مستنداً في أبحاثه إلى العديد من الاكتشافات الأثرية. (انظر المخطط رقم 3).

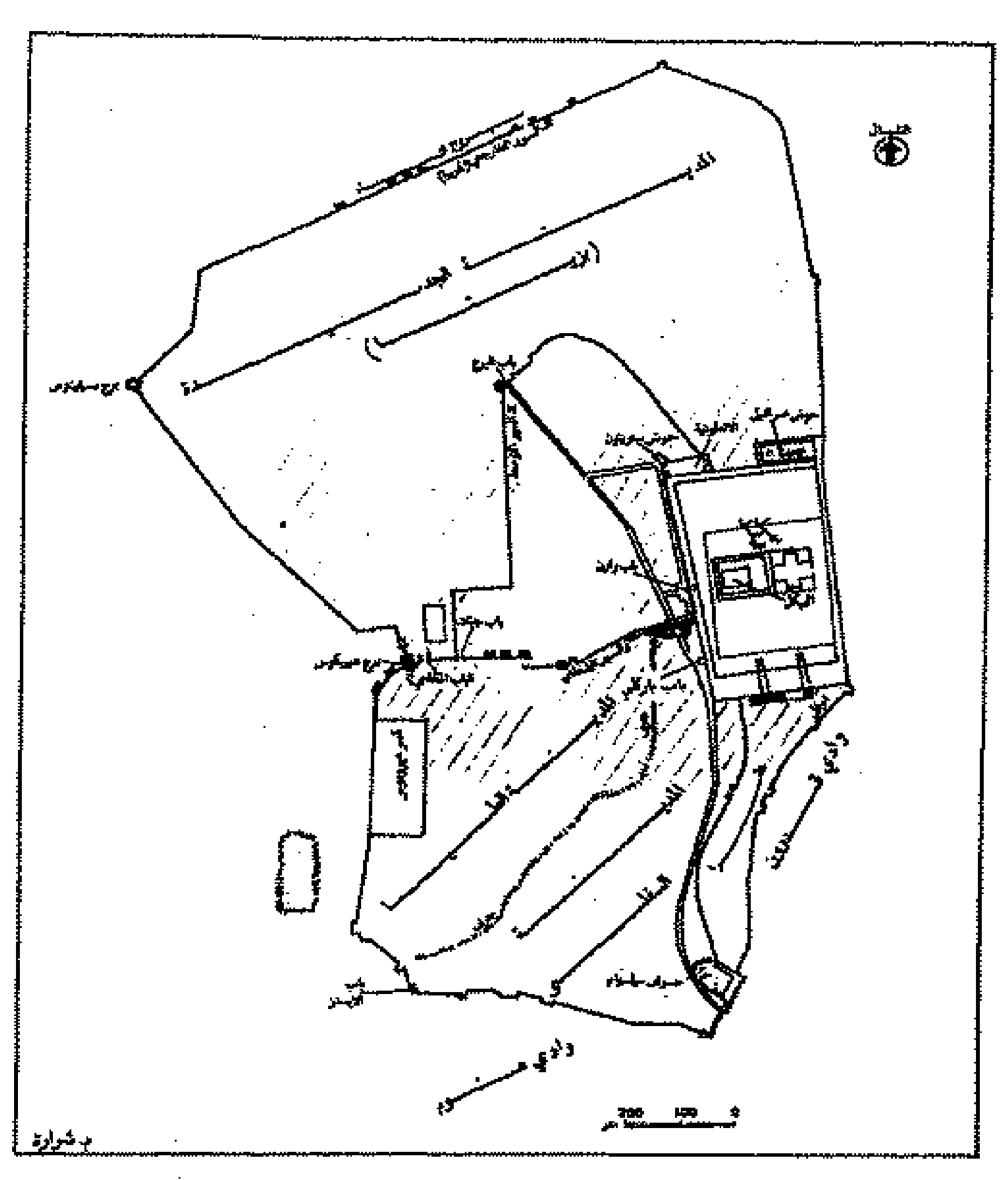
ويعود «باهات» في بحثه إلى فترة سابقة هي الفترة الممتدة من بناء الهيكل

---

(37) انظر: ابن خرداذْبه، المسالك والممالك، ص 75 ـ 76 (بيت المقدس)، وابن حوقل، صورة الأرض، ص 158 (بيت المقدس)، فليهما معلومات معينة عن القدس.

(38) المقدسي، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ص 144 ـ 145 (ورد في النص: باب التيه، وليس باب النية كما ورد في كتاب ياقوت) وقد توفي المقدسي، عام 380هـ = 990م.

مخطط رقم (3)
مدينة القدس عشية تدميرها من قبل تيتوس (70 م)
(كما رسمها الباحث الاثري باهات)



BAHAT, P. 35

الأول في عهد سليمان الحكيم إلى تدمير هذا الهيكل في عهد نبوخذ نصّر (1000 ـ 586 ق. م)، فيقدم مخططات عدة للمدينة المقدسة تُظهر، كذلك، بروجها وأبوابها في تلك الفترة الموغلة في القدم، ومن هذه الأبواب: باب الوادي، وباب الروث، وباب العين، وباب الماء، وباب الفرس (أو الحصان)، والباب الشرقي، وباب التفتيش، وباب الخروف، وباب السمك، وباب افرائيم، وباب الزاوية. ومن البروج: برج الفورناسز (Furnaces)، وبرج هانانل (Hananel)، وبرج ميا (Mea)[39]، مستنداً، كذلك، في أبحاثه، إلى العديد من الاكتشافات الأثرية. (انظر المخطط رقم 4).

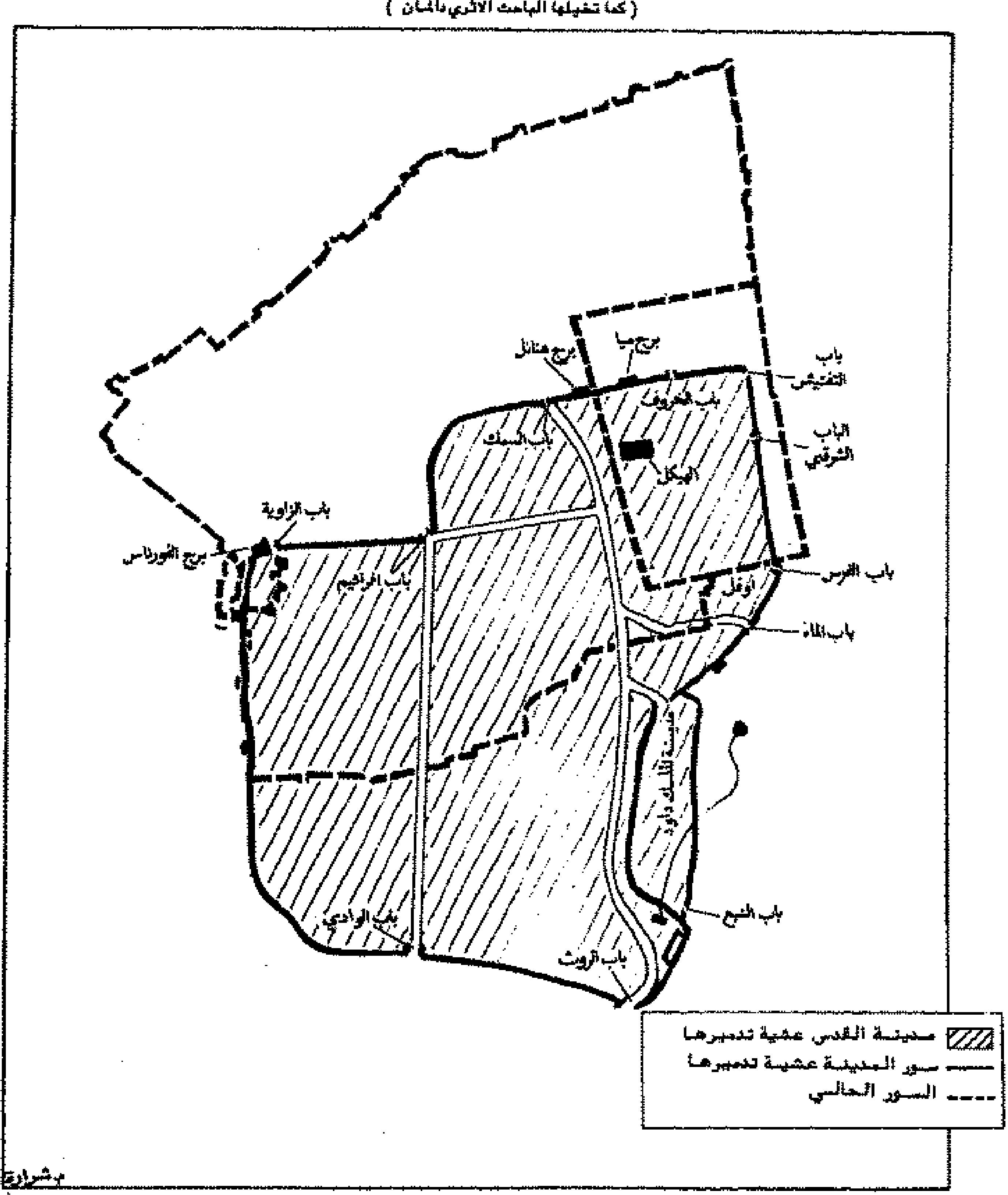
شهدت القدس، طوال تاريخها، ولأجلها، صراعاً طاحناً ومريراً بين العديد من الشعوب والأمم، وبين مختلف الحضارات التي استقرت فوق أرض الشام، إذ توالت عليها الحروب والفتوح طوال خمسة آلاف عام، فبعد أن أنشأها الكنعانيون اليبوسيون واستقروا فيها (في مطلع الألف الثالث ق. م كما قدمنا)، وأقاموا فيها حضارتهم، احتلها المصريون الفراعنة مع ما احتلوا من بلاد الشام، في النصف الأول من القرن السادس عشر ق. م، وفي عهد الفرعون تحوتمس الأول، وامتد حكمهم لها طوال قرنين ونيّف من الزمن، حيث بدأ العبرانيون، الذين استقروا في فلسطين من أرض كنعان، (في القرن الثاني عشر ق. م) يقومون بهجمات متتالية على المدينة دون أن يتمكنوا من احتلالها، إلى أن تغلبوا على أهلها اليبوسيين في عهد الملك داود وفي مطلع القرن العاشر ق. م.

وظلت القدس في يد العبرانيين طوال أربعة قرون لم تخلُ من حروب عدة كان العبرانيون يتبادلون خلالها، مع المصريين، السيطرة على المدينة المقدسة، وخصوصاً في عهد شيشاق فرعون مصر (945 ـ 924 ق. م) الذي غزا أورشليم واحتلها (عام 926 ق. م) بعد أن انتزعها من رحبعام ملك يهوذا (وكانت مملكة سليمان قد انقسمت إلى مملكتي يهوذا واسرائيل)، ثم في عهد الفرعون نخو (609 ـ 594 ق. م) الذي انتزعها من يوشيا ملك يهوذا كذلك، بعد أن قتله وهزم جيشه في معركة في مجدّو عام 609 (وكان بنو يهوذا قد نصّبوا عليهم، بعد مقتل ملكهم في مجدّو، ابنه يواحاز ملكاً، فعزله نخو عندما دخل أورشليم،

---

(39) للتوسع انظر: .Bahat, Op. Cit., pp. 24-53

مخطط رقم (4)
مدينة القدس عشية تدميرها من قبل نبوخذنصر
(كما تخيلها الباحث الاثري دالمان)



BAHAT, P. 31

وعين أخاه الياقيم، بدلاً منه، ملكاً على يهوذا في أورشليم).

ولم تخل فترة القرون الأربعة التي حكم العبرانيون خلالها أورشليم من نزاعات وحروب أخرى مع الشعوب العديدة التي كانت تقطن أرض كنعان قبل اجتياحها من العبرانيين، ومن نزاعات وحروب بين مملكتي يهوذا واسرائيل العبرانيتين، ثم من حروب مع شعوب أخرى من خارج أرض كنعان، وأهمها: الأشوريون، ثم الكلدانيون.

وفي العام 598 ق. م دخل الملك البابلي نبوخذ نصّر أورشليم وأوثق ملكها يوياقيم «بسلسلتين من نحاس» وساقه إلى بابل، وعيّن ابنه يوياكين ملكاً على يهوذا بدلاً منه، إلا أن يوياكين تمرّد على الملك البابلي الذي أسرع إلى حصار أورشليم بجيشه فأخضعها ثم دمّرها وسبى أهلها إلى بابل، ولم يُبقِ في المدينة سوى «الفقراء والمحتاجين والمعوزين» من أهلها.

وظلت أورشليم خربة، وظل سكانها من بني اسرائيل منفيين إلى بابل، حتى أمر الملك الفارسي «قورش» بإعادتهم إليها، فعادوا على دفعتين: الأولى في عهد قورش نفسه عام 538 ق. م، والثانية في عهد أرتحششتا الأول عام 457 ق. م، حيث أعيد، بعدها، بناء المدينة وهيكل سليمان. وقد أعيد بناء الهيكل في عهد داريوس الأول وخلال خمسة أعوام (520 ـ 515 ق. م).

وفي عام 332 ق. م احتلّ الاسكندر المقدوني أورشليم صلحاً بعد أن هزم الفرس وانتزع منهم ممتلكاتهم، وظلت المدينة في عهدته حتى موته عام 323 ق.م، حين آلت إلى الرومان بعده. وظلت أورشليم في أيدي الرومان حتى عام 70 م حين أحرقها القائد الروماني تيتوس (في عهد الامبراطور فسباسيان) ودمّرها وسبى أهلها، وذلك بعد ثورة اليهود على الحكم الروماني في فلسطين.

ظلت أورشليم فترة طويلة خالية من السكان، بعد أن دمّرها تيتوس، حيث لم يبق فيها سوى الحامية الرومانية (الفيلق العشرون)، وكان الرومان قد منعوا اليهود من العودة إليها.

وبعد أن قضى الامبراطور الروماني هادريان على آخر ثورات اليهود ضد الرومان في فلسطين (وهي ثورة باركوزيبا عام 132 ـ 135م)، قرر إعادة بناء

أورشليم كمركز ديني للعبادة الرومانية، وهي وثنية، فأعاد بناءها وسماها «إيليا كابيتولينا Aélia Capitolina»، وهي المدينة الرومانية التي قامت على أنقاض أورشليم[40].

وأصبحت «إيلياء» مدينة مسيحية بعد أن اعتنق الامبراطور الروماني قسطنطين الأول الديانة المسيحية عام 326م، وظلت كذلك إلى أن فتحها العرب المسلمون عام 15 هـ = 636م.

وظلت القدس في أيدي المسلمين إلى أن انتزعها الصليبيون منهم عام 1099م وجعلوا منها مملكة صليبية، واستمرت كذلك حتى استردها القائد المسلم صلاح الدين الأيوبي عام 1187م، ثم احتلها المماليك عام 1253م، فالعثمانيون عام 1516م، حيث ظلت تحت حكمهم طوال أربعة قرون انتقلت بعدها الى أيدي البريطانيين الذين انتدبتهم عصبة الأمم على فلسطين، وذلك في نهاية الحرب العالمية الأولى، عام 1918. وعلى أثر قرار تقسيم فلسطين الذي أصدرته الجمعية العامة للأمم المتحدة في 29 تشرين الأول/ اكتوبر عام 1947[41]، نشبت الحرب العربية ـ الإسرائيلية الأولى في 15 أيار/ مايو عام 1948 التي أدّت إلى اقتسام العرب واليهود المدينة المقدسة. وظلت هذه المدينة مقسّمة إلى أن نشبت الحرب العربية ـ الإسرائيلية الثالثة في 5 حزيران/ يونيو 1967 حيث تمكّنت اسرائيل من احتلال القدس كلها.

وفي ختام هذه المقدمة التاريخية، يحسن بنا أن نشير إلى أن الحروب التي ستكون موضوع بحثنا هذا هي تلك التي جرت بين المسلمين والعرب من جهة وبين سواهم من المعتدين الأجانب من جهة أخرى، ونجملها بالآتي:

أولاً: الفتح الإسلامي لمدينة القدس (في القرن الميلادي السابع).

ثانياً: الاحتلال الصليبي للمدينة (في القرن الميلادي الحادي عشر).

ثالثاً: تحرير القدس من الصليبيين على يد صلاح الدين الأيوبي (في القرن

---

(40) انظر، لما تقدم، كتابنا «التاريخ العسكري لبني اسرائيل من خلال كتابهم».

(41) انظر بحثنا عن هذا الموضوع في كتابنا «مؤامرة الغرب على العرب»، الباب الأول، الفصل الخامس، مؤامرة تقسيم فلسطين»، ص 63 ـ 80.

الميلادي الثاني عشر).

رابعاً: الاحتلال البريطاني لمدينة القدس (في القرن الميلادي العشرين).

خامساً: الاحتلال الصهيوني للقدس الجديدة أو الغربية (في القرن الميلادي العشرين).

سادساً: الاحتلال العربي للقدس القديمة أو الشرقية (في القرن الميلادي العشرين).

سابعاً: الاحتلال الصهيوني للقدس القديمة أو الشرقية (في القرن الميلادي العشرين).

الباب الأول

حروب القدس
في التاريخ الإسلامي

الفصل الأول:

الفتح الإسلامي للقدس

الفصل الثاني:

احتلال الصليبيين للقدس

الفصل الثالث:

تحرير القدس من الصليبيين

الفصل الرابع:

الاحتلال البريطاني للقدس

الفصل الأول

الفتح الإسلامي للقدس

الفتح الإسلامي لمدينة القدس (15هـ = 636م):

1 ـ القدس عشية الفتح الإسلامي:

تعتبر الخارطة المعدّة من الموزاييك والموجودة في «مأدبا» في الأردن أهم مرجع لوضع مدينة القدس في أواخر القرن الميلادي السادس، فهي تشرح وضع هذه المدينة، بالتفصيل، حيث تظهر محاطة بجدار فيه عدة أبراج، وتظهر فيه ستة أبواب هي: باب داود (أو باب يافا)، وباب اسطفان (أو باب دمشق)، وباب الروث، وباب أريحا (أو باب الأسود)، وبابان إضافيان بجوار جبل صهيون، كما تُظهر هذه الخارطة ما في المدينة من المباني الفخمة وأهمها الكنائس[1]. وقد ازدهرت القدس، بل إنها بلغت أوج ازدهارها في هذا القرن من العصر البيزنطي، وفي عهد الامبراطور جوستنيانوس (الذي حكم ما بين 527 و565م) والذي اشتهر بولعه في البناء، فأشاد في المدينة المقدسة العديد من المباني الفخمة وأهمها: الكنيسة الجديدة للعذراء (شيّدها عام 543م، وهي غير كنيسة العذراء التي شيّدت، من قبل، في المدينة) ودير القديس جرجس، والدير الايبيري (الاسباني)، وكنيسة القديسة مريم على جبل الزيتون، وقد بلغت الكنائس

(1) Bahat, Dan, Atlas of Jerusalem, p. 76.

والأديرة التي بناها جوستنيانوس في المدينة نحو سبعين كنيسة وديراً. كما شهد هذا القرن نشاطاً خاصاً للأرمن في القدس حيث قام فيها حيّ خاص بهم[2].

إلا أن مطالع القرن الميلادي السابع حملت للقدس تغييرات مهمة كان أولها احتلال الفرس لها عام 614م وفي عهد الامبراطور البيزنطي هرقل، فقد زحف القائد الفارسي شهربراز إلى المدينة وحاصرها عشرين يوماً ثم دخلها عنوة وقتل «سبعة وخمسين ألفاً» من النصارى وأسر «خمسة وثلاثين ألفاً» وأحرق الكنائس وقبض على «زخريا» بطريرك المدينة، واستولى على عود الصليب وأرسله إلى فارس. وكان اليهود قد ساعدوا الفرس على احتلال المدينة، فلما استقر الأمر للقائد الفارسي فيها طرد اليهود منها وأمر بترميم الكنائس والأديرة، ولكن هرقل عاد فاستردّ المدينة من أيدي الفرس بعد خمسة عشر عاماً من حكمهم لها؛ كما استعاد الصليب المقدس، وقد دخل المدينة، منتصراً، ومعه الصليب المستعاد، من «الباب الذهبي» الذي أقامه في السور الشرقي، وأعاد الصليب إلى مكانه، وكان ذلك في الثالث والعشرين من آذار عام 630م[3].

ويذكر المؤرخ اليهودي «دان باهات» أن مخططاً للقدس وضعه، في القرن الميلادي الخامس، المهندس «تيودوسيوس»، وتظهر، في هذا المخطط، الأماكن المسيحية المقدسة في المدينة وبعض الأماكن المهمة الأخرى، مثل: قبر السيدة العذراء، وقبر السيد المسيح، وقبر زكريا، وقبر القديس سمعان، وقبر القديس يعقوب، وكنيسة القديس بطرس، وكنيسة القديس اسطفان، وكنيسة القديسة مريم، وطريق الجلجلة، وبازيليكا جبل صهيون (وتسمى أم الكنائس، وقد بنيت عام 390م) وحوض سيلوام، وبيت بيلاطس البنطي الخ...[4].

ورغم الانتقادات التي يوجهها «باهات» لهذا المخطط، من حيث عدم دقة المسافات بين هذه الأماكن، بحسب رأيه، فإن هذا المخطط يقدم لنا صورة واضحة وشبه كاملة لشكل القدس عشية الفتح الإسلامي (انظر المخطط رقم 5).

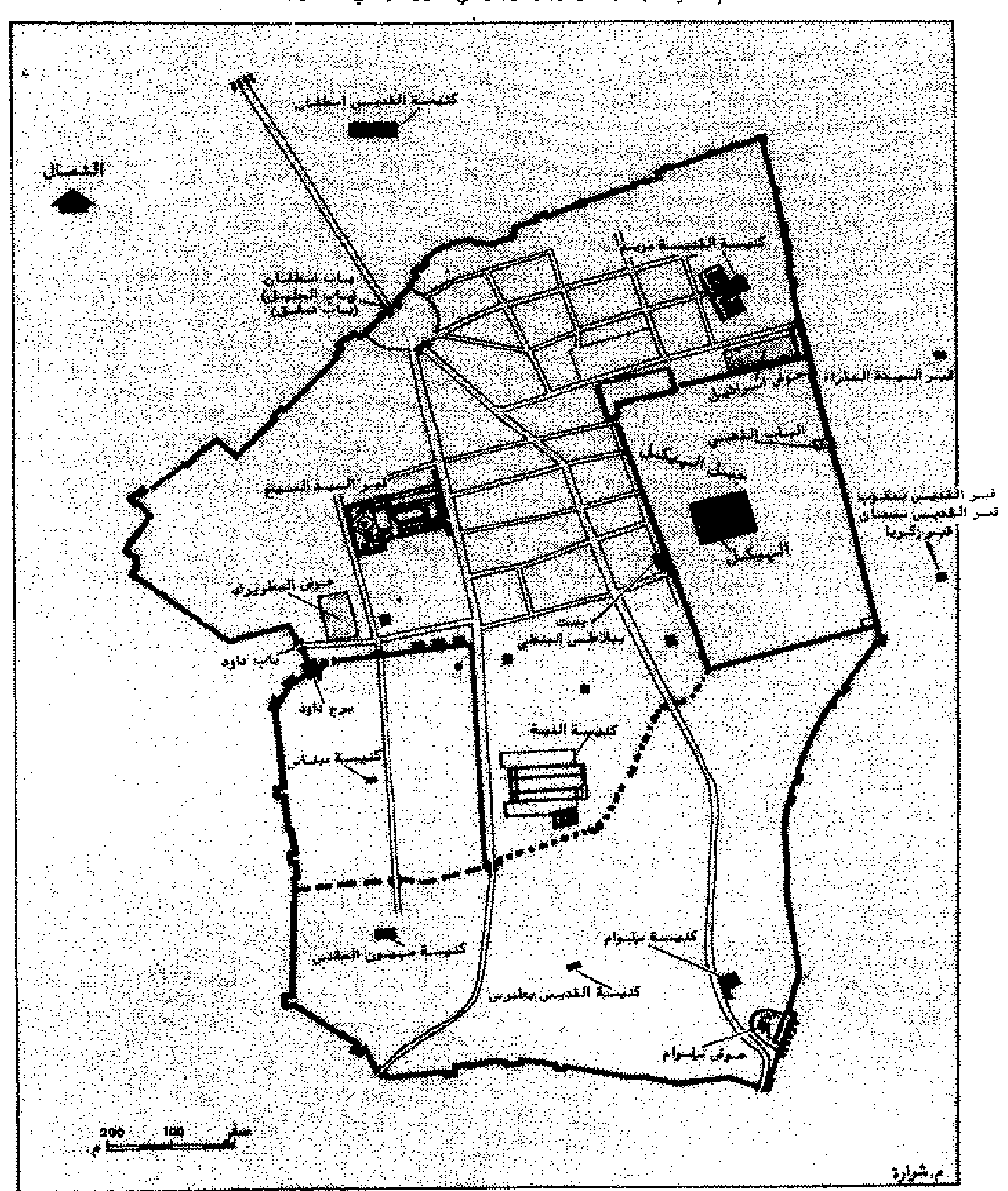
---

(2) Ibid., p. 77. والعارف، عارف، المفصل في تاريخ القدس، ص 75.

(3) رستم، أسد، الروم وصلاتهم بالعرب، ج 2، ص 224 ـ 228، وانظر: Bahat, Op. Cit., p. 78-79.

(4) Bahat, Ibid., p. 79.

مخطط رقم (٥)
مدينة القدس عشية الفتح الاسلامي
(كما رسمها المهندس تيودوسيوس في القرن الميلادي الخامس)



BAHAT , P . 69

ويذكر «باهات» أنه، خلال الثلث الأول من القرن الميلادي السابع، وهي الفترة التي سبقت الفتح الإسلامي للقدس، لم يقم في المدينة أي بنيان ذي أهمية، «وبقي الطابع البيزنطي مسيطراً عليها، كما بقيت المباني نفسها، هي الأبرز، لسنوات طويلة بعد هذا الفتح»[5]. وقول «باهات» هذا غير دقيق البتة، خصوصاً إذا علمنا أن الخليفة عمر بن الخطاب (وقد فتحت المدينة في عهده) أمر، فوراً، ببناء مسجد فيها، فقام في عهده، مسجد الصخرة، الذي يتسع لثلاثة آلاف مصلٍّ[6]. وفي العام 66 من القرن الهجري الأول (القرن الميلادي السابع نفسه)، أقام الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان «الحرم القدسي الشريف» المؤلف من مسجد الصخرة والمسجد الأقصى وما بينهما من منشآت فكان «آية تشهد للعرب مبلغ ما وصل إليه مجدهم وغناهم وعظمتهم»[7].

2 ـ مقدمات الفتح:

بعد أن استتب الأمر للمسلمين في الجزيرة العربية وقضى أبو بكر (رضي) على فتنة الردة قضاء مبرماً، قرر أن يوجه جيوشه لفتح العراق والشام، فأرسل خالد بن الوليد والعياض بن غتنم والمثنى بن حارثة الشيباني لفتح العراق، وأرسل لفتح الشام يزيد بن أبي سفيان وشرحبيل بن حسنة وأبا عبيدة بن الجراح وعمرو بن العاص، وكانت مهمة عمرو فتح فلسطين في جيش قوامه نحو سبعة آلاف مقاتل، وقد أوصاه بما يلي: «إذا سرت بجيشك فلا تسر في الطريق التي سار فيها يزيد وربيعة وشرحبيل، بل اسلك طريق إيلياء (القدس) حتى تنتهي إلى أرض فلسطين، وابعث عيونك يأتونك بأخبار أبي عبيدة، فإن كان ظافراً بعدوه فكن أنت لقتال من في فلسطين، وإن كان يريد عسكراً فأنفذ إليه جيشاً في أثر جيش...»[8]، وكان انطلاق عمرو إلى فلسطين في مطلع العام الهجري الثالث عشر (633م)، فسلك الطريق الساحلية بمحاذاة البحر الأحمر حتى العقبة فالبحر

---

(5) Ibid.

(6) Ibid., p. 62. والعارف، المصدر السابق، ص 98.

(7) الدباغ، مصطفى، المرجع السابق، ج 9، ق 2 (1): 119.

(8) الواقدي، أبو عبد الله، فتوح الشام، ج 1: 15، هكذا وردت عند الواقدي، أما ربيعة فهو «ربيعة بن عامر» وكان في مقدمة جيش يزيد إلى الشام (م. ن. ص 9).

الميت، ولاقى، في أثناء تقدمه، بعض المقاومة من قوات الروم، فكان يهزمها في كل مرة، حتى تمكن من الاستيلاء على قسم من فلسطين الشرقية والجنوبية. واتجه بجيشه نحو القدس، ولكنه علم أن الروم أعدوا للقائه جيشاً لن يقوى على الظفر به إن هو قاتله لوحده، فانحاز إلى غور الأردن متجنباً الاشتباك مع العدو، ثم كتب إلى الخليفة أبي بكر (رضي) يستأمره، فأمره بانتظار رفاقه الآتين من بصرى، حيث خاض إلى جانبهم معركة أجنادين الأولى (13هـ) ثم معركة المسلمين الحاسمة ضد الروم في بلاد الشام، أي اليرموك (13هـ = 634م) بقيادة خالد بن الوليد، وشارك في فتح دمشق وفحل (14هـ = 635م) بقيادة أبي عبيدة بن الجراح، ثم عاد بعدها ليتابع مهمته في فلسطين، فابتدأ «بأجنادين»، وكان عليها قائد رومي يدعى «الأرطبون» (وهي تحريف لكلمة Tribunus الرومانية، وتعني القائد الكبير الذي يلي الامبراطور)، وكان هذا «أدهى الروم وأبعدها غوراً، وأنكاها فعلاً، وكان قد وضع بالرملة جنداً عظيماً، وبإيلياء جنداً عظيماً»[9]، وكتب عمرو إلى الخليفة عمر (رضي)، وكان قد تسلّم الخلافة بعد وفاة أبي بكر (رضي)، يخبره بذلك، ويستشيره ويستأمره، فقال عمر كلمته الشهيرة «قد رمينا أرطبون الروم بأرطبون العرب، فانظروا عم تتفرّج»[10]، وكان يقصد بذلك، أن كلا القائدين أدهى الرجال في قومهما، وكانت معركة أجنادين الثانية (15هـ) التي انتصر فيها عمرو على الروم فانفتحت أمامه طريق فلسطين.

3 ـ الفتح:

بدأت معركة القدس، عملياً، قبل معركة أجنادين الثانية (15هـ)[11] ذلك أن

---

(9) الطبري، أبو جعفر، تاريخ الرسول والملوك، ج 3: 605.

(10) م. ن. ص. ن. ووردت عند ابن الأثير «تفرج» (ابن الأثير، عز الدين أبو الحسن، الكامل في التاريخ، ج 2: 498).

(11) يذكر الطبري، أن معركتين جرتا في أجنادين بين الروم والمسلمين، الأولى عام 13هـ بقيادة خالد بن الوليد، ومعه عمرو وأبو عبيدة وشرحبيل ويزيد (الطبري، المصدر السابق، ج 3: 415 ـ 418). والثانية عام 15هـ بقيادة عمرو بن العاص (م. ن. ج 3: 605 ـ 606). ويذكر الطبري «أجنادين الأولى» قبل معركة اليرموك، إذ يقول: «فتوالت جنود المسلمين والروم بأجنادين، فالتقوا يوم السبت لليلتين بقيتا من جمادى الأولى سنة ثلاث عشرة، فظهر المسلمون وهزم الله المشركين، وقتل خليفة هرقل... ثم رجع هرقل للمسلمين فالتقوا بالواقوصة

أرطبون الروم كان قد وزع «جنداً عظيماً» له في كل من إيلياء والرملة، كما سبق ان قدمنا (وبين الرملة وإيلياء أي القدس، ثمانية عشر ميلا)[12]، وذلك تحسباً لأي هجوم من قبل المسلمين، بقيادة عمرو بن العاص، على المدينتين اللتين كانتا أهم مدن «كورة فلسطين»، إذ كانت الرملة «قصبة فلسطين»، وكانت «إيلياء» أكبر مدنها[13]. وكان على الروم في إيلياء حاكمها «الأرطبون»، وهو «الأرطبون» نفسه الذي كان قد لجأ وفلول جيشه إليها بعد هزيمتهم في أجنادين، وكان عليهم في الرملة «التذارق»[14].

أ ـ المشاغلة:

كانت خطة الخليفة عمر أن يشغل الروم عن عمرو في فلسطين ريثما يتم الانتصار على حشودهم في أجنادين، حيث يتفرغ المسلمون، بعدها، لفتح القدس وما تبقى من بلاد الشام[15]، فأمر معاوية أن يتوجه، بخيله، إلى قيسارية ليشغل حاميتها عن عمرو. وأما عمرو فكان قد اعتمد الخطة نفسها التي اعتمدها الخليفة، فأرسل كلاً من «علقمة بن حكيم الفراسيّ، ومسروق بن فلان المكيّ» على رأس قوة لمشاغلة حامية الروم في إيلياء، «فصاروا بإزاء أهل إيلياء، فشغلوهم عن عمرو»[16]، ثم أرسل «أبا أيوب المالكي» على رأس قوة أخرى لمشاغلة حاميتهم في الرملة. وما إن وصلت الإمدادات إلى عمرو حتى أرسل «محمد بن عمرو» مع مدد لقواته المرابطة في مواجهة حامية إيلياء، كما أرسل «عمارة بن عمرو بن أمية الضمري» مع مدد لقواته المرابطة في مواجهة حامية الرامليّة، أما هو، فأقام في أجنادين بانتظار المعركة الحاسمة مع الأرطبون[17].

فقاتلوهم، وقاتلهم العدو، وجاءتهم وفاة أبي بكر وهم مصافون، وولاية أبي عبيدة، وكانت هذه الوقعة (أي اليرموك) في رجب» (م. ن. ج 3: 419).

(12) ابن خرداذبه، المسالك والممالك، ص 75.

(13) المقدسي، المصدر السابق، ص 142 ـ 143.

(14) الطبري، المصدر السابق، ج 3: 608.

(15) م. ن. ج 3: 606.

(16) م. ن. ج 3: 605.

(17) م. ن. ص. ن.

في هذه الأثناء، كانت حامية إيلياء تصد المسلمين عن أسوارها، وكان القتال يستعر حول المدينة المقدسة بينما كان المسلمون والروم يحتشدون للقتال في أجنادين.

وكانت معركة أجنادين عنيفة، إذ يقول الطبري فيها «اقتتلوا ـ أي المسلمون والروم ـ قتالاً شديداً كقتال اليرموك، حتى كثرت القتلى بينهم»[18]، فقد نازل «أرطبون العرب» أرطبون الروم في أجنادين فهزمه، وأرتدّ أرطبون الروم وجنده ليحتموا بأسوار المدينة المقدسة «فأفرج له المسلمون حتى دخلها»[19].

ويذكر الطبري أن كلاً من «علقمة ومسروق ومحمد بن عمرو وأبو أيوب» التحقوا بعمرو في أجنادين[20]، وسار عمرو بجيشه جميعاً نحو إيلياء لمحاصرتها. إلا أننا نشك في أن يكون الأمر قد تم على هذا النحو، إذ ليس منطقياً أن يتخلى علقمة ومسروق ومحمد بن عمرو عن مواقعهم حول إيلياء ليلتحقوا بعمرو الذي هو متوجه إليها، وإن كان ممكناً أن يتخلى أبو أيوب المالكي عن مواقعه حول الرملة ليلتحق بعمرو في إيلياء.

ب ـ الحصار:

اجتمع المسلمون، بقيادة عمرو بن العاص، حول إيلياء، وضرب عمرو على المدينة حصاراً شديداً، وكانت المدينة حصينة ومنيعة. ويصف الواقدي أسوار المدينة بأنها كانت محصنة «بالمجانيق والطوارق والسيوف والدرق والجواشن والزرد الفاخرة»[21]، ويذكر أن القتال بدأ بعد ثلاثة أيام من الحصار، حيث تقدم المسلمون نحو أسوار المدينة فأمطرتهم حاميتها بوابل من السهام والنبال التي كان المسلمون يتلقونها «بدرقهم». وكان القتال يمتد من الصباح إلى غروب الشمس،

---

(18) م. ن. ج 3: 606.
(19) م. ن. ص. ن.
(20) م. ن. ص. ن.
(21) الواقدي، فتوح الشام، ج 1: 214، والطوارق: تروس كان يستخدمها الروم والفرنجة، تستر الفارس والراجل (الطرسوسي، تبصرة أرباب الألباب، ص 12)، والجواشن: دروع من صفائح الحديد أو الجلد أو الزرد (م. ن. ص 14)، والدرق: التروس من الجلد.

واستمر على هذا المنوال عدة أيام، حتى «اليوم الحادي عشر» إذ أقبل على المسلمين أبو عبيدة ومعه خالد وعبد الرحمن بن أبي بكر، ومعهم «فرسان المسلمين وأبطال الموحدين» مما ألقى الجزع في قلوب أهل إيلياء[22]. واستمر الحصار أربعة أشهر، ما من يوم إلا وجرى فيه قتال شديد «والمسلمون صابرون على البرد والثلج والمطر»[23]، إلى أن يئس الروم من مقاومة حصار المسلمين لمدينتهم، فقرر بَطْرِيقُهم (البطريق صفرونيوس) القيام بمحاولة أخيرة، وكتب إلى عمرو بن العاص، قائد جيش المسلمين، رسالة يغريه فيها بفك الحصار نظراً لاستحالة احتلال المدينة.

ج ـ الاستسلام:

يذكر الطبري أن أرطبون الروم كتب إلى عمرو يقول: «إنك صديقي ونظيري، أنت في قومك مثلي في قومي، والله لا تفتتح من فلسطين شيئاً بعد أجنادين، فارجع ولا تغرّ فتلقى ما لقي الذين قبلك من الهزيمة»[24]. فكتب إليه عمرو كتاباً يقول فيه إنه «صاحب فتح هذه البلاد»، وأرسل الكتاب مع رسول وأمره أن ينقل إليه رد الأرطبون، فلما قرأ الأرطبون كتاب عمرو ضحك مما جاء فيه وقال إن صاحب فتح بيت المقدس هو رجل اسمه «عمر»، ونقل الرسول إلى عمرو ما سمعه من الأرطبون، فعرف عمرو أن الرجل الذي يعنيه الأرطبون هو الخليفة[25]. فكتب إلى الخليفة يخبره بما جاء على لسان الأرطبون أنه لا يفتح المدينة إلا هو، ويستمده، ويستشيره قائلاً: «إني أعالج حرباً كؤوداً صدوماً وبلاداً ادُّخرت لك، فرأيك»[26] فخرج الخليفة، في مدد من الجند، إلى الشام، بعد أن استخلف على المدينة علي بن أبي طالب (كرم الله وجهه)، ونزل بالجابية، فجاءه أهل إيلياء، «فصالحوه على الجزية، وفتحوها له»[27]. (انظر الخارطة رقم 1).

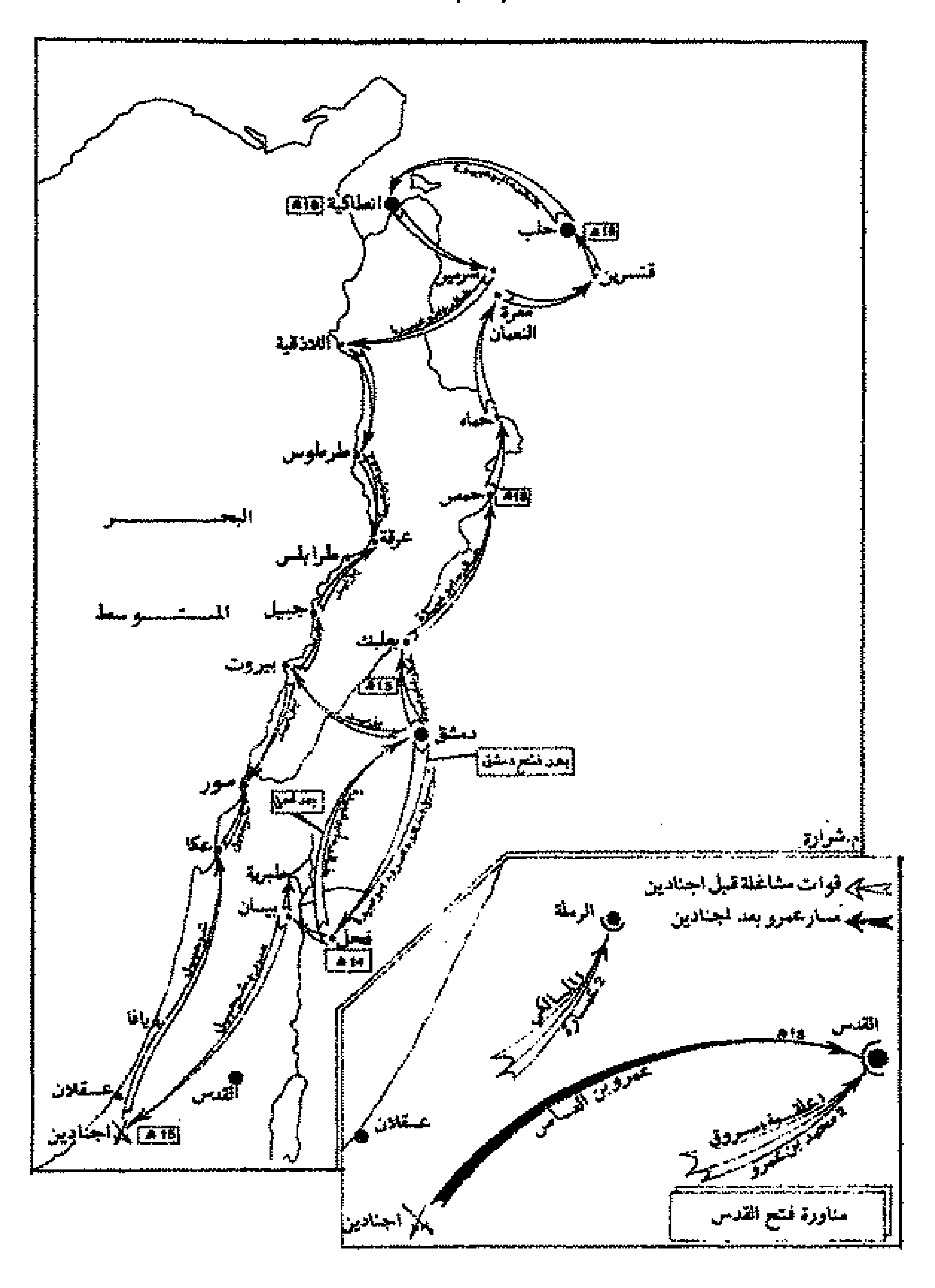
---

(22) م. ن. ج 1: 215 ـ 216.
(23) م. ن. ج 1: 217.
(24) الطبري، المصدر السابق، ج 3: 606.
(25) م. ن. ص. ن.
(26) م. ن. ج 3: 607.
(27) م. ن. ص. ن.

خارطة رقم (٤)

الفتح الاسلامي للقدس

(15 هـ)



د ـ اختلاف الروايات :

يروي الطبري نفسه رواية أخرى فيقول «كان سبب قدوم عمر إلى الشام، أن أبا عبيدة حضر بيت المقدس، فطلب أهلها منه أن يصالحهم على صلح مدن أهل الشام، وأن يكون المتولي للعقد عمر بن الخطاب، فكتب إليه ذلك، فسار عن المدينة» بعد أن استخلف عليها «علياً»، وخرج «مُمِداً لهم»، أي لعسكر الشام[28].

ويروي ابن الأثير روايتين مماثلتين لروايتي الطبري، بل متشابهتين في النص إلى حد كبير[29]. وينسب الواقدي حصار القدس وما جرى خلاله من تشاور مع الخليفة عمر (رضي) ومن تفاوض مع حاميتها الرومية، إلى أبي عبيدة، فيذكر أن أبا عبيدة سرّح إلى بيت المقدس خمسة وثلاثين ألف مقاتل بقيادة سبعة قادة، مع كل قائد خمسة آلاف، وهم: خالد بن الوليد، ويزيد بن أبي سفيان، وشرحبيل بن حسنة، والمرقال بن هاشم بن أبي وقاص، والمسيّب بن نجية الفزاري، وقيس بن هبيرة المرادي، وعروة بن المهلهل بن يزيد، سرّحهم في سبعة أيام، كل يوم قائد، ثم لحق بهم بعد أن نشب القتال، عدة أيام، بينهم وبين حامية المدينة[30]. ويستطرد الواقدي فيقول إن أهل إيلياء جاؤوا إلى أبي عبيدة يعرضون عليه دخول المدينة صلحاً، على أن يتم الصلح على يدي خليفة المسلمين عمر، ثم يذكر رواية مشابهة لتلك التي رواها كل من الطبري وابن الأثير[31]، ويضيف أن أبا عبيدة كتب إلى الخليفة يخبره بما جرى، فسار الخليفة إلى بيت المقدس ونزل عند أسوار المدينة، فخرج إليه بَطْرِيقُها وتعرف إليه وقال: «هذا والله الذي نجد صفته ونعته في كتبنا، ومن يكون فتح بلادنا على يديه»[32]. ثم عاد إلى قومه يخبرهم فخرجوا مسرعين «وكانوا قد ضاقت أنفسهم من الحصار، ففتحوا الباب، وخرجوا إلى عمر بن الخطاب يسألونه العهد والميثاق والذمة ويقرون له بالجزية»[33].

---

(28) م. ن. ص 608.
(29) ابن الأثير، المصدر السابق، ج 2: 499 ـ 500.
(30) الواقدي، المصدر السابق، ج 1: 213 ـ 216.
(31) م. ن. ص 218.
(32) م. ن. ص 225.
(33) م. ن. ص 226.

ونحن نستبعد رواية الواقدي هذه، لاعتقادنا أنه، بينما كان عمرو بن العاص يحاصر القدس، كان رفاقه من قادة المسلمين، بعد اليرموك ودمشق وفحل، يجوبون أنحاء بلاد الشام غانمين منتصرين، فيحتل أبو عبيدة، ومعه خالد بن الوليد، حمص وحماة وقنسرين وحلب، ثم يسلك طريق الساحل الشامي جنوباً فيستولي على أنطاكية واللاذقية وعرقة. ويحتل يزيد بن أبي سفيان الساحل، جنوباً من بيروت إلى صيدا، وشمالاً من بيروت إلى طرابلس. ويحتل شرحبيل بن حسنة الساحل شمالاً من عسقلان إلى صور[34]. (انظر الخارطة رقم 1).

ولكن البلاذري يذكر، في رواية له، أن عمرو بن العاص هو الذي حاصر القدس، بعد أن فتح رفح، وأن أبا عبيدة «قدم عليه... بعد أن فتح قنسرين ونواحيها وذلك في سنة 16، وهو محاصر إيلياء، وإيلياء مدينة بيت المقدس»[35]، وأن أهل إيلياء طلبوا من أبي عبيدة «الأمان والصلح على مثل ما صولح عليه أهل مدن الشام» على أن يتولى العقد لهم «عمر بن الخطاب نفسه» وقد كتب أبو عبيدة إلى الخليفة بذلك «فقدم عمر فنزل الجابية من دمشق، ثم صار إلى إيلياء، فأنفذ صلح أهلها وكتب به، وكان فتح إيلياء في سنة 17». ويضيف البلاذري بعد ذلك: «وقد روي في فتح إيلياء وجه آخر»[36].

ومع أننا نرجح الرواية الأولى التي أوردها الطبري وهي أن حصار القدس تم على يد عمرو بن العاص، وليس على يد أبي عبيدة، فنحن نرى أنه لم يكن صعباً على أبي عبيدة أن يلتحق بالخليفة عمر في الجابية للتشاور معه حول أمور الفتح باعتباره القائد العام لجيوش المسلمين في الشام، وخصوصاً عندما نعلم أن أبا عبيدة كان ثاني من لقي، بعد يزيد، الخليفة حين وصوله إلى الجابية واستدعائه لسائر أمراء الأجناد في الشام[37] للتشاور، وأن أبا عبيدة حضر، مع يزيد وشرحبيل وكبار قادة المسلمين في الشام، عقد الصلح والأمان، وتسليم المدينة[38]. إلا أنه لم يشهد على هذا العقد كما شهد عليه كل من عمرو بن

---

(34) راجع، للملك، كتابنا (معارك خالد بن الوليد).

(35) البلاذري، أبو العباس، فتوح البلدان، ج 1: 188 ـ 189.

(36) م. ن. ص 189.

(37) الطبري، المصدر السابق، ج 3: 607.

(38) م. ن. ص 607 ـ 608.

العاص وعبد الرحمن بن عوف ومعاوية بن أبي سفيان وخالد بن الوليد ـ كما يستدل من نص المعاهدة نفسها ـ وليس لدينا أي تفسير لذلك سوى أن أبا عبيدة لم يكن قائد الجيش الذي حاصر المدينة المستسلمة، بل هو عمرو.

وقد اختُلف في تحديد السنة التي فتح المسلمون القدس فيها، فذكر الطبري، وكذلك ابن الأثير، فتحها في أحداث العام 15هـ، وأرخ عقد الصلح والأمان الذي عقد لأهلها في سنة «خمس عشرة»[39]، إلا أن الطبري ذكر، في رواية له، أنها افتتحت «على يدي عمر في ربيع الآخر سنة ست عشرة»[40]، وكذلك ابن الأثير[41]. وذكر البلاذري أن حصارها تم في العام 16هـ، وأن فتحها تم في العام التالي 17هـ[42].

هـ ــ المعاهدة:

وفيما يلي نص المعاهدة كما أوردها الطبري:

«بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما أعطى عبد الله عمر أمير المؤمنين أهل إيلياء من الأمان، أعطاهم أماناً لأنفسهم وأموالهم، ولكنائسهم وصلبانهم، وسقيمها وبريئها وسائر ملتها، أنه لا تُسكن كنائسهم ولا تُهدم، ولا يُنتقص منها ولا من حيّزها، ولا من صليبهم، ولا من شيء من أموالهم، ولا يُكرهون على دينهم، ولا يُضارّ أحد منهم، ولا يسكن بإيلياء معهم أحد من اليهود. وعلى أهل إيلياء أن يُعطوا الجزية كما يعطي أهل المدائن، وعليهم أن يُخرجوا منها الروم واللصوت (اللصوص) فمن خرج منهم فإنه آمن على نفسه وماله حتى يبلغوا مأمنهم، ومن أقام منهم فهو آمن، وعليه مثل ما على أهل إيلياء من الجزية، ومن أحب من أهل إيلياء أن يسير بنفسه وماله مع الروم ويخلّي بِيَعهم وصُلُبهم فإنهم آمنون على أنفسهم وعلى بِيَعهم وصُلُبهم، حتى يبلغوا مأمنهم، ومن كان بها من أهل الأرض قبل مقتل فلان. فمن شاء منهم قعد، وعليه مثل ما على أهل إيلياء

---

(39) م. ن. ص 609.
(40) م. ن. ص 610.
(41) ابن الأثير، المصدر السابق، ج 2: 501.
(42) البلاذري، المصدر السابق، ج 1: 188 ـ 189.

من الجزية، ومن شاء سار مع الروم، ومن شاء رجع إلى أهله، فإنه لا يؤخذ منهم شيء حتى يحصد حصادهم، وعلى ما في هذا الكتاب عهد الله وذمة رسوله وذمة الخلفاء وذمة المؤمنين إذا أعطوا الذي عليهم من الجزية. شهد على ذلك خالد بن الوليد وعمرو بن العاص وعبد الرحمن بن عوف ومعاوية بن أبي سفيان وكتب وحضر سنة خمس عشرة» ـ انتهى ـ[43].

(43) الطبري، المصدر السابق، ج 3: 609.

الفصل الثاني

الاحتلال الصليبي للقدس

الاحتلال الصليبي لمدينة القدس (492هـ = 1099م):

1 ـ القدس عشية الاحتلال الصليبي:

كان قد مضى على فتح المسلمين للقدس ما يقارب الخمسة قرون عندما احتلها الصليبيون عام 492هـ ـ 1099م، وكانت القدس قد دخلت في المجتمع الإسلامي كمدينة ذات موقع ديني وحضاري مميّز، فهي أولى القبلتين وفيها ثالث الحرمين الشريفين (كما سبق أن قدمنا)، وقد خصّها الخليفة الثاني للمسلمين عمر بن الخطاب (رضي) بامتياز لم تحظ به أية مدينة سواها، وذلك عندما قبل طلب أهلها بأن تفتح للمسلمين على يديه (عام 15هـ ـ 636م)، وبنى فيها أول مسجد بُنِيَ للمسلمين خارج أرض الجزيرة العربية.

وتطورت القدس، منذ الفتح، باتجاه التلاقي مع الحضارة الإسلامية، خالعة ثوبها البيزنطي، ولكنها احتفظت، في الوقت نفسه، بحلتها الدينية المسيحية، كما أرادها العرب المسلمون، فتميزت بأن جمعت الحضارتين المسيحية والإسلامية معاً، وكل ما ميّز هاتين الحضارتين من جلال وإبداع وقدسية، فكانت، بحق، ملتقى الديانتين السماويتين السمحتين: المسيحية والإسلام.

وقد وصف العديد من المؤرخين والرحالة المسلمين المدينة المقدسة قبل

سقوطها بأيدي الصليبيين، وخصوصاً في القرنين الهجريين: الرابع والخامس، والميلاديين: العاشر والحادي عشر، ومن هؤلاء:

- في القرن الهجري الرابع (الميلادي العاشر): الأصطخري (توفي عام 346هـ = 957م) في كتابه «الأقاليم» وابن حوقل (توفي عام 371هـ = 981م) في كتابه «صورة الأرض» والمقدسي المعروف بالبشاري (336هـ = 947م - 380هـ = 990م) في كتابه «أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم».
- وفي القرن الهجري الخامس (الميلادي الحادي عشر): ناصر خسرو (ولد في قبادان بفارس عام 394هـ = 1003م) في كتابه «سفرنامه»، ويرجح أنه ألف كتابه هذا في منتصف القرن الهجري الخامس (الميلادي الحادي عشر) أي قبل نصف قرن من احتلال الصليبيين للقدس.

ونستطيع أن نستخلص من كتابات هؤلاء المؤرخين والرحالة صورة مفصلة وواضحة للمدينة بكل معالمها الدينية ومجتمعها ومناخها ومنتجاتها خلال قرن ونصف القرن قبل الاحتلال الصليبي لها.

ويبدو أن «ابن حوقل»، وقد جاء بعد «الأصطخري»، قد استعار، في وصفه لبيت المقدس، الكثير مما جاء في كتاب سلفه، حتى كاد الوصف أن يكون متطابقاً تماماً، باستثناء بعض التفاصيل التي أضافها ابن حوقل، وهي غير ذات أهمية على أي حال. فكلاهما يصف مسجد المدينة بأنه «ليس في الإسلام مسجد أكبر منه» كما يذكر أن في بيت المقدس محراباً لكل واحد من الأنبياء المعروفين، ومنها «محراب داود» الذي يقع، بحسب ما ذكر ابن حوقل، في سور المدينة، وهو يقوم على «تلة» أو «بنية» يبلغ ارتفاعها «نحو خمسين ذراعاً»، وهو أول ما يلقاك من بيت المقدس وأنت قادم من «الرملة»[1].

ولكن وصف المقدسي لبيت المقدس، (في كتابه: أحسن التقاسيم)، يظل أكثر تفصيلاً ودقة وشمولاً، ولا غرو فهو ابن المدينة ذاتها، بها ولد وفيها عاش طوال حياته وبها توفي، فهو أدرى بها من سواه، لذا، يكون لكلامه عنها وقع

---

(1) الاصطخري، الشيخ أبو اسحق الفارسي، كتاب الأقاليم، ص 31، وابن حوقل، أبو القاسم، صورة الأرض، ص 158.

الخبر الموثوق والحديث الذي لا شك في صحته، خصوصاً لما اشتهر به هذا المؤرخ من جدية في البحث وعلمية في المنهج الذي يعتمد فيه «التدقيق المبني على المشاهدة والمعرفة المباشرة والتحري عن الأمور بمراجعة أولي الألباب وذوي العقول من الناس»[2].

يصف المقدسي مناخ بيت المقدس بأنه غير شديد البرد وغير حار وقل ما يقع بالمدينة ثلج، ثم يعدد منتجاتها من الفواكه والثمار منوهاً بأن الله تعالى جمع فيها «فواكه الأغوار والسهل والجبال والأشياء المتضادة»، وأما بناؤها فهو «حجر لا ترى أحسن منه» ثم إنك لا ترى «أتقن من بنائها ولا أعفّ من أهلها ولا أطيف من العيش بها ولا أنظف من أسواقها ولا أكبر من مساجدها ولا أكثر من مشاهدها»، وهي «أصغر من مكة وأكبر من المدينة»، لها «ثمانية أبواب حديد» يعدّدها، وبها ماء واسع (أي كثير)، إذ إنه «ليس ببيت المقدس أمكن من الماء والأذان، وقلّ دارٌ ليس بها صهريج وأكثر، وبها ثلاث برك عظيمة»[3]. ويستفيض المقدسي، بعد ذلك، في وصف «المسجد الأقصى» بحيث يدخل في التفاصيل الدقيقة لهذا المسجد[4].

ولكن المقدسي يتوقف طويلاً عند عيوب مدينته فيحصي هذه العيوب إحصاء الخبير المتمرّس، فهي كما قيل عنها «طشت ذهب مُلِء عقارب»، كما أنها «قليلة العلماء كثيرة النصارى» ليس فيها «للمظلوم أنصار، والمستور مهموم، والغني محسود، والفقيه مهجور، والأديب غير مشهود، لا مجلس نظر ولا تدريس، وقد غلب عليها النصارى واليهود وخلا المسجد من الجماعات والمجالس»[5].

وإننا، إذ نتوقف عند وصف المقدسي لمجتمع بيت المقدس في النصف الثاني من القرن الميلادي العاشر، وقبل الاحتلال الصليبي للمدينة، وهو الذي ألّف كتابه هذا بعد سن الأربعين بحسبما جاء في المقدمة التي وضعها بنفسه لهذا

---

(2) في تقديم الكتاب لمحققه د. محمد مخزوم، ص 9، والمستند إلى مقدمة المؤلف نفسه، م. ن. ص 19.

(3) م. ن. ص 143 ـ 145.

(4) م. ن. ص 145 ـ 147.

(5) م. ن. ص 144.

الكتاب[6]، (ولم يعش بعد ذلك سوى سنوات معدودات، إذ توفي عن عمر يناهز الرابعة والأربعين) نجد أن هذا الوصف يتطابق تطابقاً كلياً مع ما عانته المجتمعات العربية، قبل الاحتلال الصهيوني للقدس وفلسطين ولا تزال تعاني، حيث «ليس للمظلوم أنصار، والمستور مهموم، والغني محسود، والفقيه مهجور والأديب غير مشهود»، وهي صورة دقيقة لانحلال المجتمع العربي والإسلامي وتفككه، وبُعده عن القيم الإنسانية الفضلى، دينية كانت أم قومية، فما أشبه الأمس باليوم.

ولكن ما ورد عند «ناصر خسرو» عن القدس في كتابه «سفرنامه» يظل أقرب إلى واقع هذه المدينة مما سبق أن قدمناه، فهو قد زارها قبل نحو نصف قرن من احتلال الصليبيين لها «في الخامس من رمضان سنة 438هـ = 16 آذار/ مارس 1047م»[7] وقد ألّف كتابه في منتصف القرن الهجري الخامس (الميلادي الحادي عشر)[8].

يصف خسرو بيت المقدس بأنها «مدينة كبيرة» سكانها «عشرون ألف رجل» فيها «أسواق جميلة وأبنية عالية» وأرضها «مبلّطة بالحجارة»، وهي قائمة «على قمة جبل، ليس بها ماء غير الأمطار» (وذلك لا يتناقض مع ما ذكره المقدسي حيث ذكر أن ماءها واسع لكثرة ما فيها من صهاريج تجمع بها مياه الأمطار) و «ليس بقربها أشجار قط فإنها على رأس صخر». وهي «محاطة بسور حصين من الحجر والجصّ، وعليها بوابات حديدية»، وفيها «مستشفى عظيم» وفيها «مسجد الصخرة» الذي يقوم على «الصخرة التي أمر الله (عز وجل) موسى (عليه السلام) أن يتخذها قبلة له»، ثم يقدم وصفاً تفصيلياً لهذا المسجد لا يحتاج القارىء إلى وصف أدق منه وأشمل، كما يقدم وصفاً آخر «للمسجد الأقصى» الذي يقوم بالقرب من «مسجد الصخرة» وهو «أكبر مرتين» منه كما أنه «غاية في الزخرف». ثم يصف الصخرة «التي كانت قبلة الإسلام» ويصف «قبة الصخرة»

---

(6) م. ن. ص 23.

(7) خسرو، ناصر، سفرنامة، ص 55.

(8) هناك رأي يقول إن هذا الكتاب قد ألّف عام 453هـ = 1060م (شيفر)، وهناك رأي آخر يقول إنه ألّف عام 455هـ = 1063م (تقي زاده)، (م. ن. ص 16)، ولكل من الرأيين حججه.

و «الدكة» الواقعة في وسط ساحة المسجد، والمراقي الموصلة إليها[9].

ويصف خسرو، كذلك، كنيسة «بيعة القيامة» التي لها عند النصارى «مكانة عظيمة» وهي «عظيمة الزخرف» تتسع لِـثمانية آلاف رجل» ويقيم فيها «كثير من القسس والرهبان، يقرأون الإنجيل ويصلون ويشتغلون بالعبادة ليل نهار»[10].

ويضيف خسرو أن بيت المقدس (ويسميها أهل الشام القدس) تظل، بالنسبة إلى الشام وأطرافها، المكان المقدس الذي يؤمه «في موسم الحج، من لا يستطيع الذهاب إلى مكة» بحيث يؤمها، «في بعض السنين، أكثر من عشرين ألف شخص»، كما تظل مقصداً لباقي المؤمنين من غير المسلمين، حيث يأتي إليها، من بلاد الروم، كل عام «كثير من النصارى واليهود، وذلك لزيارة الكنيسة والكنيس هناك»[11]، وهو ما يشهد على تسامح المسلمين تجاه أهل الكتاب، وخصوصاً المسيحيين منهم، بحيث يؤكد ما ذهب إليه الكثير من المؤرخين بأن الحروب الصليبية لم تكن، في حقيقتها، سوى حروب استعمارية لا تمت إلى العقيدة المسيحية بصلة.

إلا أن أقرب وصف لواقع القدس عشية الاحتلال الصليبي لها هو ذلك الذي قدمه «وليم الصوري» رئيس أساقفة صور (1130 ـ 1185م)، وفيما يلي موجز لهذا الوصف:

القدس مدينة أصغر من المدن الضخمة وأكبر من المدن العادية، تحيط بها وديان عميقة من ثلاث جهات (انظر المخطط رقم 6)، وتقع على هضبتين (صهيون ومريا) هما، كلاهما تقريباً، داخل أسوار المدينة، يفصل بينهما وادٍ صغير يقسم المدينة إلى قسمين: قسم غربي يقع على هضبة صهيون، وقسم شرقي على هضبة مريا[12].

تقع «كنيسة صهيون» على هضبة صهيون، ويقوم، شمالها، حصن داود

---

(9) راجع النص كاملاً، في م. ن. ص 56 ـ 70.

(10) م. ن. ص 74 ـ 76.

(11) م. ن. ص 55.

(12) الصوري، وليم، تاريخ الحروب الصليبية، ج 1: 409 ـ 410.

«الذي يرتفع، عالياً، بأبراجه وأسواره وتحصيناته الخارجية المضافة إليه فوق المدينة الواقعة تحته، ويشكل القلعة»[13].

وتقع كنيسة «القيامة» على الهضبة ذاتها، على المنحدر الشرقي منها، وهي ذات شكل دائري[14]. ويقع «هيكل الرب» ذو الشكل الرباعي، على هضبة موريا، على المنحدر الجنوبي منها، وقد هدم هذا الهيكل مع سائر المدينة في عهد تيتوس عام 70م، إلا أن الخليفة عمر بن الخطاب أعاد بناءه، في موضعه «وتؤكد النقوش القديمة الموجودة على جدران هذا البناء في الداخل والخارج على حد سواء، هذا، وتقدم دليلاً لا يدحض على صحته»[15].

ويقع القصر الملكي المعروف بهيكل سليمان أو «المسجد الأقصى» إلى الجنوب، وهو مربع الشكل «ترتفع أبراج عالية (مآذن) فوق كلا البابين المؤديين إلى المدينة، وعند كل ركن من أركان الشكل الرباعي المذكور» وتوجد «في منتصف المنطقة التي يحيط هذا الشكل الرباعي بها» ساحة يرتفع، في وسطها، الهيكل الذي يرتفع «على شكل مثمّن ذي أضلاع متساوية». وتوجد «في منتصف الهيكل وداخل صف الأعمدة الداخلي» صخرة «ليست عالية جداً، وتحتوي على كهف»[16].

وتقع مدينة القدس «في وسط جاف، وتفتقر إلى الماء تماماً» بحيث يعتمد أهلها على مياه الأمطار التي يجمعونها «في صهاريج عديدة موجودة في كل مكان من المدينة»، وتستخدم هذه المياه طوال العام. وبلغت حاجة أهل هذه المدينة إلى الماء درجة جعلتهم يهرعون إلى ملء صهاريجهم من الينابيع الموجودة خارج المدينة (بالإضافة إلى ماء المطر الذي تم تخزينه خلال فصل الشتاء) وذلك ما أن سمعوا بزحف الجيش الصليبي نحو مدينتهم[17]. (انظر المخطط رقم 6).

---

(13) م. ن. ج 1: 410.

(14) م. ن. ج 1: 411.

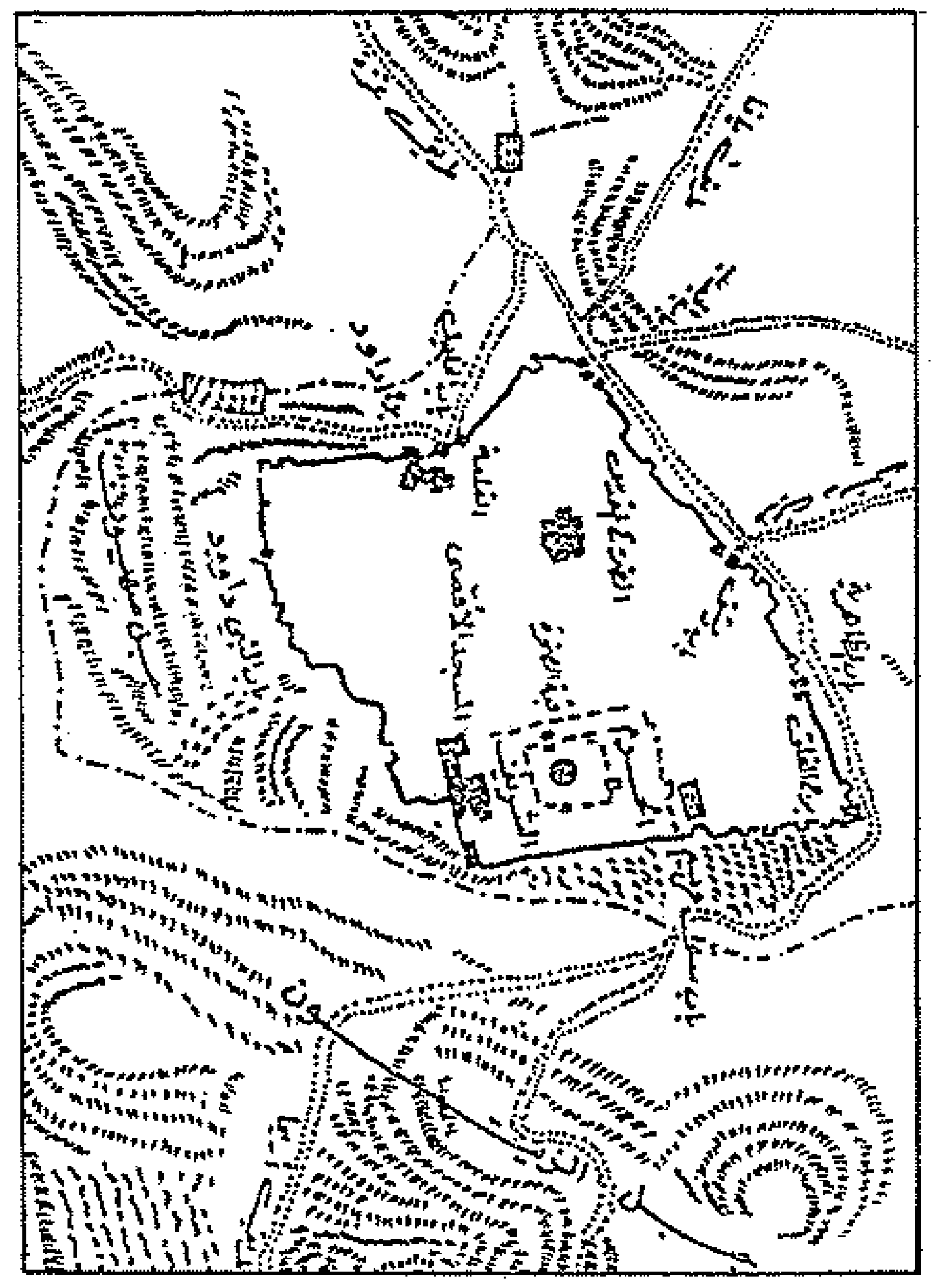
(15) م. ن. ج 1: 412، وانظر م. ن. ج 1: 144، حيث يصف وليم الصوري كيف أن الخليفة عمر أعاد بناء «كنيسة الرب» (القيامة) في الموضع الذي كانت فيه حين هدمها تيتوس «ثم أنعم عليها بما لا يحصى من الممتلكات الثمينة».

(16) م. ن. ص. ن.

(17) م. ن. ج 1: 413.

مخطط رقم (6)

مدينة القدس عشية الاحتلال الصليبي
(كما رسمها المؤرخ وليم الصوري)



لصوري ، وليم تاريخ الحروب الصليبية

2 ـ مقدمات الاحتلال:

في السابع والعشرين من شهر تشرين الثاني/ نوفمبر عام 1095 ألقى البابا أوربان الثاني خطبته الشهيرة في كاتدرائية مدينة «كليرمونت» في جنوب فرنسا، وعلى أثر انتهاء أعمال «مجمع كليرمونت» الديني الذي عقده في هذه المدينة، فكانت، في الواقع، إعلاناً لبدء الحروب الصليبية «لتحرير» فلسطين وبيت المقدس من أيدي المسلمين[18].

بدأت جموع المتطوعين للاشتراك بالحملة الصليبية الأولى تتدفق، من مختلف أنحاء أوروبا، باتجاه القسطنطينية، عاصمة بيزنطية المسيحية، حيث كان المكان المتفق عليه لالتقاء تلك الجموع، وقد بدأ بعضها بالتوجه نحو القسطنطينية منذ ربيع عام 1096م[19]، إلا أن تلك الجموع لم تلتق، جميعها، عند القسطنطينية

---

(18) قاسم، قاسم عبده، ماهية الحروب الصليبية، ص 9، والصوري، وليم، المصدر السابق، ج 1: 168. ومما قاله البابا أوربان في خطبته هذه: «لقد دخلت الكلاب إلى الأماكن المقدسة، وجرى تدنيس المقدسات، وإذلال الناس عبدة الرب... كما أن كنيسة القيامة.. تتحمل حكمهم، وقد دنستها قذارة الذين ليس لهم نصيب في القيامة..». إلى أن يقول: «لذلك، سلحوا، أيها الأخوة، أنفسكم بغيرة الرب، وشدّوا أحزمة سيوفكم على أوساطكم أيها الجبارون... فمن الأفضل أن تستشهد من أن نرى مصائب قومنا ومصائب أقداسنا... ووفقاً لهذا، إننا ننصحكم... ونأمركم بإزالة آثامكم، في أن تتحملوا البلاء والمشقات مع اخواننا الذين يسكنون في القدس، وفي تلك الأسواق... وأن تباجوا، بكل قوتكم، أولئك العاقدي العزم على تدمير الاسم المسيحي...». ويضيف «وليثق الذين سيرحلون إلى هناك، بتوبة صادقة، أنهم سيلاقون التكفير عن آثامهم، وسيجنون ثمار الجزاء السرمدي. ونضع، في الوقت نفسه، تحت حماية الكنيسة وحماية بطرس وبولس المباركين، جميع الذين سيباشرون هذه المهمة بحماسة الإيمان، ويتولون قتال الملحدين... ونقرر أنه لن يتولاهم القلق بخصوص ممتلكاتهم وأهليهم، فإذا ما اجترأ أحد، حين غيابهم، بتهور، على التحرش بهم، وضايقهم، فليقم أسقف المنطقة بحرمانه كنسياً، وليراع الجميع تنفيذ العقوبة حتى تتم إعادة السلع المسروقة وتقديم تعويض مناسب عن الخسائر التي وقعت، وستتم معاقبة الأساقفة والكهنة الذين لا يتخذون موقفاً صارماً ازاء مثل هذه الأعمال...» (انظر النص الكامل للخطبة، في: الصوري، وليم، م. ن. ج 1: 169 ـ 173). ولكن قاسم يرى أننا لا نملك «نصاً موثقاً» لهذه الخطبة (قاسم، م. ن. ص 110).

(19) غادر بطرس الناسك أراضي المانيا، نحو الشرق، على رأس جيش كبير من المشاة والفرسان (رجالاً ونساء وأطفالاً) في 20 أيار/ مايو 1096م (قاسم، المصدر السابق، ص 117). وكذلك ـ

بحسبما هو متفق عليه، وإنما التقت حول «نيقية»، التي كانت أول مدينة سلجوقية تخضع لحصار الصليبيين. وكانت آخر المجموعات التي وصلت إلى نيقية هي تلك التي كانت بإمرة كل من: روبرت كونت نورماندي، واللورد يوستاس، أخي الدوق غودفروا دي بويون، وقد وصلاها بتاريخ 3 حزيران/ يونيو 1097[20]، فاجتمع، لحصار هذه المدينة، عدد من الملوك والأمراء الفرنجة أبرزهم: الدوق غودفروا دي بويون دوق لوثرينا (لوثارنجيا أو اللورين السفلى) وأخوه اللورد بولدوين، مع جيشهما (وتحت رايتهما عدد من النبلاء)، واللورد بوهيموند امير تورانتو في جنوب ايطاليا، مع جيشه، (وتحت رايته عدد من النبلاء، ومنهم «تانكرد» ابن أخته)، والكونت روبرت كونت الفلاندر، مع جيشه، وريموند (دي سان جيل)، كونت تولوز، وأسقف بوي مع جيشيهما (وتحت رايتيهما عدد من النبلاء ومنهم: وليم أسقف أورانج، ورينبولد كونت رينبولد، المدينة التي حملت اسمه)، وروبرت كونت نورماندي، واللورد يوستاس، أخو الدوق غودفروا دي بويون، وكونت بويون (وتحت رايتهما عدد من النبلاء)[21]. وقد التقى حول هذه المدينة من الصليبيين، وحتى حزيران/ يونيو عام 1097م، نحو 600 ألف من المشاة «من كلا الجنسين» و 100 ألف «فارس مدرع»[22].

وما أن استولى الصليبيون على نيقية (حزيران 1097م) بعد حصار دام شهراً، حتى زحفوا إلى «أسكي شهر» التي سقطت بأيديهم في أول تموز/ يوليو من العام نفسه، ثم إلى مدينة الرها التي سقطت بأيديهم في مطلع العام 1098م، ثم وصلوا

= الدوق غودفروا دي بويون «الذي شرع بالزحف في اليوم الخامس عشر من شهر آب عام 1096م» (الصوري، المصدر السابق، ج 1: 195).

(20) م. ن. ج 1: 225 ـ 227.

(21) م. ن. ج 1: 195 ـ 228. ويختلف المؤرخون فيما إذا كان اللورد يوستاس مع جيش أخيه غودفروا أو مع جيش روبرت كونت نورماندي (م. ن. ج 1: 226، حاشية 1).

(22) م. ن. ج 1: 228، وما يجدر ذكره أن وليم الصوري نفسه يضع هذه الأرقام موضع الشك إذ يرى أنه مبالغ بهذا «إلا أنه لم تستنبط صيغة مرضية لتصحيحها حتى الآن»، مع أن «كانارو» يرى أن عدد الرجال المقاتلين كان ستين ألفاً فقط (م. ن. ص. ن.، حاشية 1). أما «نيقية» فكانت عاصمة السلطان السلجوقي «قليج أرسلان» (1092 ـ 1107م).

إلى أنطاكية، وكان يحكمها أمير سلجوقي يدعى «ياغي سيان» فاحتلوها بعد حصار طويل (3 حزيران 1098)[23].

واتجه الصليبيون، بعد ذلك، جنوباً، فاحتلوا «معرة النعمان» (في أواخر عام 1098م) ثم أخلوها (في 13 ك 2/ يناير 1099م) بعد أن أحرقوها وقتلوا من أهلها «ما يزيد على مئة ألف»[24]، ثم احتلوا «حصن الأكراد» (في 29 ك 2 1099م)، ثم انطرطوس (وهي طرطوس الحالية) على الساحل الشامي، ثم طرابلس، وأمد موارنة لبنان الصليبيين «بعدد من الأدلاء والجنود»[25].

وفي 16 أيار/ مايو 1099م غادر الصليبيون طرابلس وتابعوا تقدمهم جنوباً، فاجتازوا البترون وجبيل «ووصلوا في 19 أيار/ مايو إلى الحدود الفاطمية على نهر الكلب» و «لم يكن للفاطميين عساكر في ممتلكاتهم الشمالية» باستثناء بعض الحاميات في بعض المدن الساحلية[26]، مما أتاح للصليبيين التقدم بسهولة وبلا مقاومة، فدخلوا بيروت بلا قتال، ثم تقدموا نحو صيدا فبلغوها في 20 أيار 1099م، ولكنهم لقوا مقاومة عنيفة من حاميتها، إلا أنهم استطاعوا التغلب عليها وتابعوا تقدمهم نحو صور حيث «بقيت حامية صور خلف الأسوار ولم تناجزهم العداء»[27]. وتابع الصليبيون تقدمهم بعد أن غادروا صور بتاريخ 23 أيار 1099م، فبلغوا ضواحي عكا (في 24 أيار) دون أن يلقوا مقاومة تذكر، ثم وصلوا إلى حيفا، فقيسارية، حيث أقاموا أربعة أيام (26 ـ 30 أيار) استأنفوا، بعدها، تقدمهم نحو الرملة فبلغوها في 3 حزيران (1099م). وفي 6 حزيران، تابع الصليبيون تقدمهم نحو بيت المقدس فبلغوا أسوارها مساء 7 حزيران حيث عسكروا[28].

---

(23) حتي، فيليب، تاريخ العرب المطول، ج 2: 754 ـ 755.
(24) م. ن. ص 756.
(25) م. ن. ص. ن. وانظر: رنسيمان، ستيفن، المصدر السابق، ج 1: 401 ـ 410.
(26) رنسيمان، م. ن. ج 1: 410.
(27) م. ن. ص 411.
(28) م. ن. ص 411 ـ 414، والصوري، المصدر السابق، ج 1: 415.

3 ـ الاحتلال:

أ ـ القوى المتواجهة:

القوات الصليبية:

بلغ عدد القوات الصليبية التي وصلت إلى أسوار القدس وتمركزت حولها وبدأت بمحاصرتها بتاريخ 7 حزيران/ يونيو 1099م، نحو أربعين ألفاً (من مختلف الأعمار، ذكوراً وإناثاً)، وكان عدد الرجال المقاتلين منهم نحو عشرين ألفاً. وقد انتشر الصليبيون حول القدس، على امتداد بعض أسوارها، وليس كلها، وذلك بسبب نقص في عديد قواتهم، وتمركزوا على الشكل التالي:

- شمالاً، تجاه باب الساهرة (أو باب هيرودوس): قوات روبرت، كونت النورماندي.
- شمالاً بغرب، تجاه باب العمود (أو باب اسطفان أو باب دمشق): قوات روبرت، كونت الفلاندر.
- شمالاً بغرب (عند الزاوية الشمالية الغربية للمدينة): قوات غودفروا دي بويون، دوق اللورين.
- غرباً، وإلى جانب قوات غودفروا: قوات تانكرد (بالقرب من البرج الذي سمي فيما بعد باسمه).
- جنوباً، على جبل صهيون، وتجاه باب صهيون: قوات ريموند دي سان جيل كونت تولوز[29].

---

(29) رنسيمان، م. ن. ج 1: 417. وذكر الصوري ترتيباً آخر لقوات الصليبيين حول القدس، على الشكل التالي:
- في الصف الأول: معسكر غودفروا دي بويون، دوق اللورين.
- ويليه: معسكر روبرت، كونت الفلاندر.
- وفي الصف الثالث، قوات روبرت كونت النورماندي.
- وفي الصف الرابع: قوات تانكرد، حول البرج الذي عرف، فيما بعد، باسمه.
- وأخيراً، من برج تانكرد إلى الباب الغربي، وعلى الهضبة التي تقوم عليها مدينة القدس: قوات ريموند دي سان جيل كونت تولوز (م. ن. ص 416). إلا أن ما ذكره «غروسيه» =

وبقي الجانب الشرقي والجنوبي الشرقي للمدينة بلا حصار وذلك بسبب استحالة الهجوم من ذلك الجانب لوجوده في مواجهة وادي قدرون (أو وادي ستي مريم)[30]. وذكر الصوري، وكذلك رنسيمان، أن قوات ريموند دي سان جيل كانت متمركزة، في الأيام الثلاثة الأولى من الحصار، بدءاً من البرج الذي تمركز عنده تانكرد (وسمي فيما بعد باسمه) حتى الباب الغربي للمدينة، إلا أن ريموند اكتشف أن موقعه غير ملائم لمهاجمة المدينة، وأن البرج يتحكم بمعسكره، كما أن الوادي الذي يقع بين معسكره والمدينة يعيق تحركاته، فقرر أن ينقل قسماً من قواته لكي تتمركز على «الهضبة المبنية عليها مدينة القدس. . . بين المدينة وكنيسة صهيون» (على جبل صهيون بحسبما ذكر رنسيمان) تاركاً قسماً من قواته في موقعها الأصلي. ويستنتج الصوري من تحركات ريموند هذه أن كونت تولوز أراد «أن يحصل رجاله على طريق أسهل إلى المدينة لغرض الهجوم»، كما أنه كان يرغب في «حماية كنيسة صهيون والحيلولة دون تعرضها للأذى»[31].

ورغم أن القوات الصليبية كانت مزودة بأحدث الأسلحة وآلات الحصار والتدمير، فإنها وجدت نفسها عاجزة عن تنفيذ حصار كامل ومطبق حول المدينة بسبب نقص كبير في عديد المقاتلين من جهة وبسبب نقص في آلات الحصار من جهة أخرى. كما أن إطالة أمد الحصار حول القدس سوف يؤثر سلباً على معنويات الجند الذين هم آتون من بلاد باردة إلى أرض قاحلة لا ظل فيها ولا

---

* يختلف عما ذكره كل من الصوري ورنسيمان، فهو يذكر أن ترتيب القوات كان على الشكل التالي:

- شمالاً، تجاه باب العمود أو باب دمشق (وكان اسمه في السابق: باب القديس اسطفان): قوات روبرت، كونت النورماندي.
- يليه (إلى يمينه)، تجاه الباب الجديد وكاتدرائية نوتردام دي فرنس (الحالية): قوات روبرت كونت الفلاندر.
- غرباً، تجاه باب داود أو باب يافا (أو باب الخليل)، وتجاه حصن داود (أو القلعة): قوات غودفروا دي بويون وتانكرد.
- جنوباً، على جبل صهيون وتجاه باب النبي داود: قوات ريموند دي سان جيل كونت تولوز (Grousset, R. Histoire des Croisades, T I, p. 153).

(30) الصوري، م. ن. ص 417، ورنسيمان، م. ن. ص 417.
وانظر: Grousset, Op. Cit., p. 153.

(31) الصوري، م. ن. ص 416 ـ 417، ورنسيمان، م. ن. ص 417.

أشجار، وفي صيف حار لاهب لن يستطيع أولئك الجند تحمل حرارته، لذا، قرر القادة أن يُعدّوا لهجوم عاجل على المدينة.

قوات المسلمين:

كان المسلمون، في داخل أسوار مدينة القدس، في وضع دفاعي متين.

فالمدينة، بحد ذاتها، تعتبر «من أضخم المعاقل والحصون في عالم العصور الوسطى» فأسوارها التي يقف الصليبيون قبالتها، تكاد تكون عصيّةً على الاختراق أو الاجتياز، إذ إنها، منذ أن أعاد الامبراطور «هادريان» بناءها عام 139م (وكانت قد دمرت في عهد تيتوس عام 70م)، ظلت تتلقى، في العهود اللاحقة، من البيزنطيين إلى الأمويين فالفاطميين (أصحاب السلطة في فلسطين والقائمين على حماية المدينة) ما تتطلبه من إصلاحات وتعزيزات حتى أصبحت على ما هي عليه من المتانة والقوة.

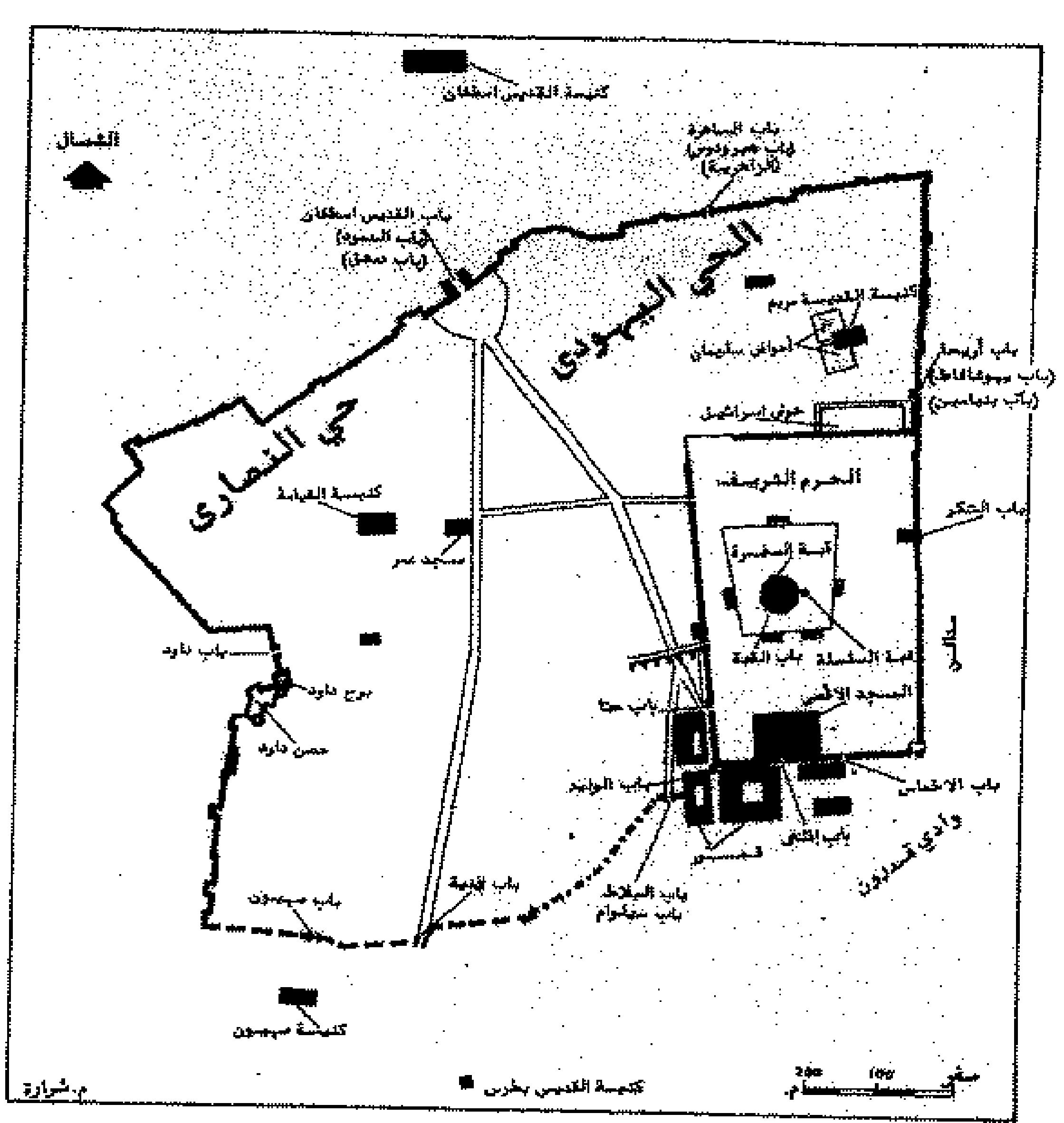
إضافة إلى ذلك، تظل القدس عصية على أي هجوم من جهاتها الثلاث: من الشرق والجنوب الشرقي (حيث يلفها وادي قدرون أو وادي جهنم)، ومن الجنوب (حيث يلفها وادي هنوم أو وادي الربابة)، ومن الغرب (حيث يلفها وادي الروث أو وادي تيروبيون)، فهي، إذن محصنة، من هذه الجهات، بتحصينات طبيعية، اضافة إلى ما تمنحها أسوارها وحصن داود الواقع في منتصف السور الغربي، والذي يسيطر على جزء كبير من محيط المدينة، من مناعة وقوة[32]. يضاف إلى ذلك الخنادق التي حفرها المدافعون خارج الأسوار، في الزاويتين الشمالية الشرقية والشمالية الغربية، وفي الجهة الشمالية من السور، لكي تعيق تقدم المهاجمين (انظر المخطط رقم 7) وهكذا، لم يكن ممكناً مهاجمة المدينة إلا من الجهتين: الشمالية، والشمالية الغربية فقط، وهي الجهات التي ركز الصليبيون، في حصارهم عليها.

ورغم أن مدينة القدس تفتقر، بشكل كلي، إلى الينابيع، فالماء فيها «واسعة» أي متوافرة إلى حد كبير (كما ذكر المؤرخ المقدسي)، إذ تكثر فيها الصهاريج التي تُملأ من مياه الأمطار، وقد سعى أهل المدينة للإكثار من جمع الماء في تلك

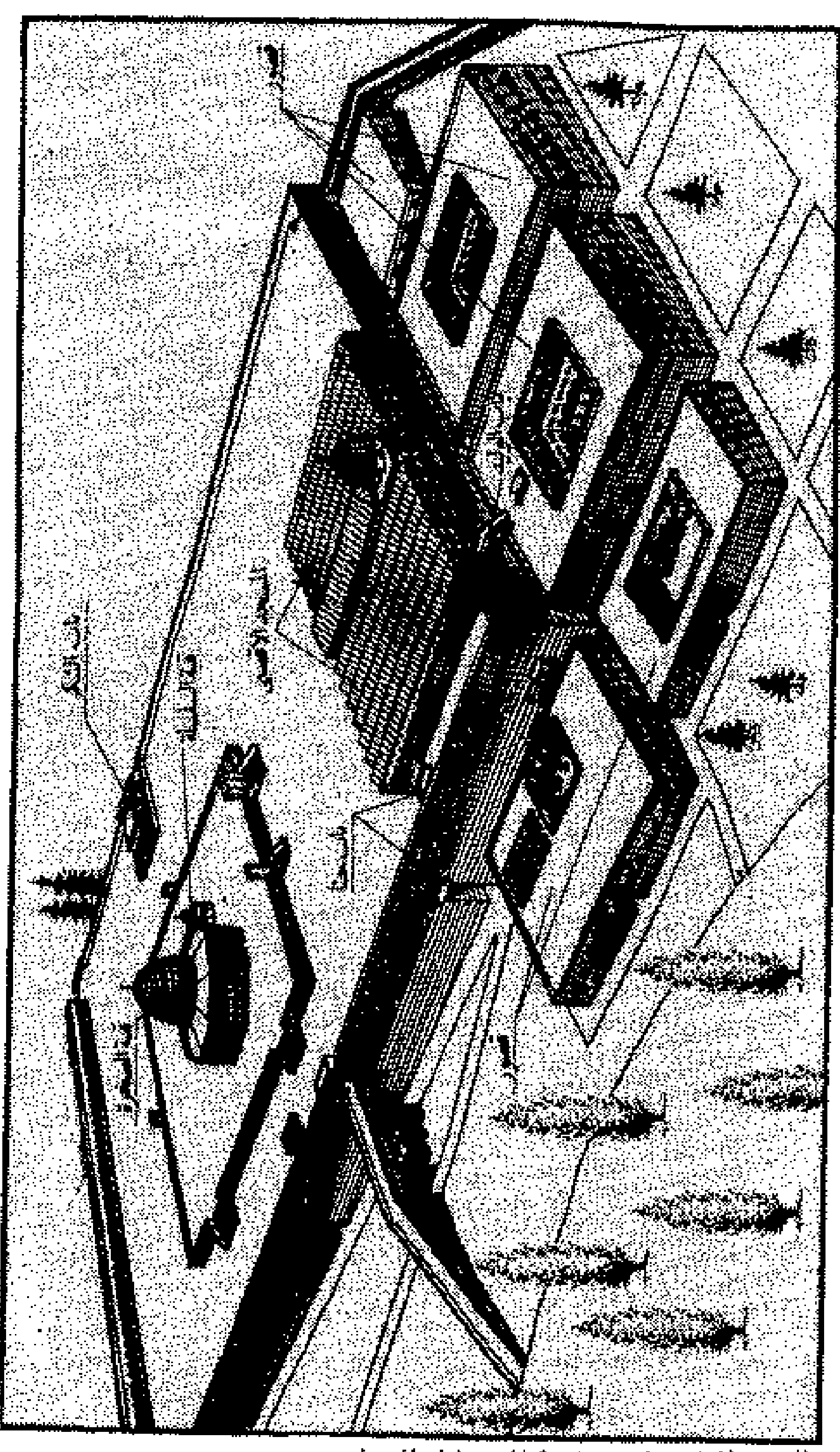
---

(32) رنسيمان، م. ن. ص 415. وقد سبق أن شرحنا ذلك في مطلع البحث.

مخطط رقم (7)
مدينة القدس
عشية الاحتلال الصليبي



BAHAT , P . 81



الحرم الشريف عشية الاحتلال الصليبي

الصهاريج، من الينابيع المجاورة للمدينة، عندما علموا بقدوم الجيوش الصليبية لاحتلال مدينتهم، استعداداً منهم لحصار طويل، كما سبق أن قدمنا[33].

وكان، في المدينة، حامية مؤلفة من العرب المسلمين: مصريين وسودانيين، تقدر بنحو ألف مقاتل[34]، بينما تداعت أعداد كبيرة «من الحصون القائمة في المناطق المجاورة ومن الريف» للدفاع عن المدينة، فبلغ عدد المدافعين عنها نحو أربعين ألف «محارب شجاع مجهزين تجهيزاً رائعاً» بحسب قول الصوري[35]. وكان قائد تلك الحامية هو الحاكم الفاطمي نفسه «افتخار الدولة» الذي، ما إن علم باقتراب الصليبيين من أسوار المدينة، حتى باشر باتخاذ التدابير اللازمة لحمايتها، فطمر كل الينابيع والآبار الواقعة خارج المدينة كي يحرم المهاجمين من التزوّد بمياهها، وأخرج منها المسيحيين من أهلها، فهم، ممنوعون، بحسب الشريعة الإسلامية، من حمل السلاح للجهاد مع المسلمين، بالإضافة إلى خشية أن يتعاطف هؤلاء مع أبناء دينهم المهاجمين فيوقعوا الاضطراب والفوضى في المدينة، ورغبة منه في توفير ما يمكن أن ينفقوه من زاد وغذاء للمسلمين المحاصَرين[36]. أما أسلحة المسلمين المدافعين عن المدينة فإنها كانت، بحسب زعم رنسيمان والصوري، تضاهي أسلحة الصليبيين نوعية وتفوقها عدداً، خصوصاً وأنهم، أي المسلمين، كانوا قد احتاطوا لهذا الأمر فجمعوا الأخشاب اللازمة لصنع الآلات الحربية الملائمة للدفاع عن المدينة المحاصَرة كالمجانيق وسواها، «وأنشأوا، داخل الأسوار، آلات حربية... معادلة في ارتفاعها لارتفاع» آلات الصليبيين[37]. وبينما كان الصليبيون يجهدون، بدورهم، لإعداد آلات الحصار التي تنقصهم، من سلالم ومجانيق، كان المسلمون لا يفتأون يراقبون تصرفاتهم بواسطة حراس يقظين كانوا قائمين على الأسوار باستمرار، ثم

(33) الصوري، المصدر السابق، ج 1: 413.
(34) حتي، المصدر السابق، ج 2: 756، وانظر رنسيمان، المصدر السابق، ج 1: 416.
(35) الصوري، المصدر السابق، ج 1: 416، والجدير بالذكر أن الصوري لا يؤكد ذلك، بل يقول: «وذكرت إحدى الروايات»، ونعتقد أن هذا العدد مبالغ فيه كثيراً.
(36) رنسيمان، المصدر السابق، ج 1: 416.
(37) الصوري، المصدر السابق، ج 1: 421. ويذكر رنسيمان (م. ن. ج 1: 418) أن أسلحة المسلمين «فاقت أسلحة الفرنج» إلا أن ذلك مبالغ فيه.

يضاهونهم في صنع آلات مماثلة. ويقول الصوري في ذلك: «كانت الآلات الحربية التي يصنعها المسلمون تُصنع من مواد أفضل من المواد التي صُنعت آلاتنا منها، وقد قاموا بهذا بالحماسة المثلى، حتى لا تكون آلات حربهم أدنى من آلاتنا في الإنشاء أو في المادة». وكان الحراس يراقبون، من على الأسوار والبروج، «كل ما أنجز في جيشنا، وبشكل خاص ما تعلق بالوسائل التي ارتبطت بآلات الحرب، حيث نقلوا على الفور، جميع تفاصيل ما راقبوه إلى الرجال الرئيسيين للقدس، الذين تنافسوا، بمهارة، وكافحوا في سبيل محاكاة أعمال المسيحيين»[38].

ب ـ الحصار:

بدأ حصار المدينة في 7 حزيران/ يونيو 1099م، إلا أنه، لم تمر أيام، حتى بدأ الجنود الصليبيون يعانون من وطأة الحر والعطش بسبب افتقارهم للماء. ورغم أنه كان بإمكانهم التزوّد بها من حوض «سيلوام» الواقع جنوب المدينة، رغم تعرضه لقذائف المحاصَرين في الداخل، فإن مياه هذا الحوض لم تكن كافية، وكان لا بد للفرد منهم أن يذهب إلى مسافات طويلة بحثاً عن الماء، إلا أنه غالباً ما لم يكن يوفق في العثور على ما يسد حاجته ويروي عطشه، وكثيراً ما كانت حامية المدينة تبعث كمائن خارج الأسوار لاقتناص هؤلاء الباحثين عن الماء فيعود معظمهم إلى المعسكرات صرعى أو جرحى أو منهكين، وهكذا لقي الكثير من جند الصليبيين و «حجاجهم» مصرعهم «بعد أن تعرضوا لهذه الهجمات المفاجئة»[39].

ومما زاد في قلق الصليبيين أن المؤن بدأت تنفد في المعسكرات، دون أن تتمكن قيادتهم من تأمين ما يمكن أن يسد حاجاتهم منها لأمد طويل.

في الجهة المقابلة، كان المسلمون مرتاحين داخل مدينتهم، فالماء والغذاء مؤمنان بشكل كاف، وقذائف المجانيق التي يطلقها المحاصِرون على أسوار المدينة ومراكز حاميتها تكاد تكون بلا تأثير على الإطلاق، خصوصاً بعد أن استطاع

---

(38) م. ن. ص 420.

(39) رنسيمان، المصدر السابق، ج 1: 418. وانظر: Grousset, Op. Cit., p. 153.

«افتخار الدولة» أن «يدعم أبراجه ويوثقها بأكياس امتلأت بالقطن والدريس (الخرق البالية)، جعلت الأبراج تصمد لما ترميه عليها منجنيقات الفرنج من قذائف»[40]. وكان «افتخار الدولة» يأمل في الصمود أمام الحصار حتى تتمكن مصر من إرسال جيش لنجدته، خصوصاً وأنه لم يكن لديه من الجند ما يكفي «لحراسة جميع الأسوار»[41]، إلا أن المسلمين كانوا متفوقين على الصليبيين في آلات الحرب ومعدات القذف، بما فيها «كميات هائلة من النار الإغريقية»[42].

ج ـ القتال:

ـ الهجوم الأول للقوات الصليبية (في 13 حزيران/ يونيو 1099م):

يعزو «رنسيمان» قرار القادة الصليبيين بالهجوم يوم 13 حزيران إلى تحريض راهب لهم على ذلك عندما التقاهم على جبل صهيون وهم في رحلة حج إلى ذلك الجبل، وعندما تذرعوا، لعدم الهجوم، بأسباب تعود إلى نقص في أدوات القتال مما يجعلهم غير واثقين من نجاح الهجوم، قال ذلك الراهب لهم: «إذا توافر لكم الإيمان، فسوف يهبكم الله النصر»[43]، وعندها تشجع القادة وقاموا بهجومهم، إلا أنهم فشلوا. ونحن إذ نشك في هذا التبرير للهجوم الفاشل، لا نشك إطلاقاً في حصافة القادة الصليبيين وذكائهم، مما يجعلنا نعتقد أن السبب الأساسي الذي دعاهم للقيام بذلك الهجوم هو ما كان يتعرّض له جندهم من حر وعطش ونقص في المؤن، وخسارة في الأرواح.

ومهما يكن من أمر، فقد قرر القادة الصليبيون شن هجومهم على المدينة في فجر اليوم السادس للحصار (أي في فجر 13 حزيران/ يونيو)، وأعطيت الأوامر للقوات بالاستعداد للهجوم «بالعتاد الكامل، وبحماية دروعهم»، وأذيعت تلك

---

(40) م. ن. ص. ن. و Grousset, Op. Cit., p. 158. ومهمة أكياس القطن والدريس كسر حدة سقوط الأحجار التي ترميها مجانيق العدو على تحصينات المدافعين.

(41) م. ن. ص. ن. ويؤكد هذا القول لرنسيمان ما ذهبنا إليه من أن التقدير الوارد عند الصوري لعديد جيش المسلمين داخل القدس (40 ألفاً) مبالغ فيه.

(42) Grousset, Op. Cit., p. 156.

(43) رنسيمان، المرجع السابق، ج 1: 419.

الأوامر «بصوت المنادي» و «على الجميع، من أدناهم إلى أعلاهم» في اليوم السابق للهجوم، أي اليوم الخامس للحصار[44]. وفي الساعة المحددة، انطلق الصليبيون باتجاه السور «بكل ما يدخرون من حماسة»، وهاجموا السور الخارجي للمدينة من الجهة الشمالية. واستمر القتال ضارياً بين الفريقين «من الفجر الباكر وحتى حوالى الساعة السابعة من النهار»، حين استطاع المهاجمون أن يدمروا القسم الخارجي من السور الشمالي وأن يتغلبوا على حامية السور التي انكفأت إلى الداخل لتدافع عن الأسوار الداخلية، وأصبح السور الخارجي تحت سيطرة المهاجمين، لولا أن هؤلاء افتقدوا الوسائل اللازمة لتسلق السور الذي احتلوه، من سلالم وأوهاق، وحاولوا تسلقه جاهدين، ولكن دون جدوى، فعادوا أدراجهم إلى مراكزهم الأساسية، بعد خسارة لا يستهان بها في الرجال[45].

ـ العودة إلى الاستعداد للقتال:

تدارس القادة الصليبيون الوضع، بعد فشل هجومهم على المدينة، في اجتماع عقد لهذه الغاية بتاريخ 15 حزيران، فقرروا التوقف عن تنفيذ أي هجوم ريثما يتم الإعداد العسكري للمعركة الحاسمة، وكان هذا الإعداد يقتضي الإسراع في إنشاء ما يحتاجه الجيش من آلات التدمير والاقتحام، وأهمها المجانيق وسلالم التسلق، وكانوا يفتقرون إلى المواد اللازمة لصنع هذه الآلات، وأهمها الأخشاب والحبال والمسامير والأقفال، ولكنهم تدبروا أمر الأخشاب من المناطق البعيدة عن القدس حيث تكثر الأشجار، واستطاع تانكرد والكونت روبرت كونت النورماندي، وكونت الفلاندر الحصول على كميات من هذه الأخشاب التي نقلت إلى المعسكرات على ظهور الإبل والعربات والأسرى المسلمين، بينما تدبروا أمر الحبال والمسامير والأقفال من سفينتين، مبحرتين من جنوى، رستا في ميناء يافا (وكان المسلمون قد أخلوا المدينة) وهي تحمل لهم مؤناً وأسلحة ومعدات للحصار. ونشط العمال الحرفيون من حدادين ونجارين، بإشراف غودفروا وريموند دي سان جيل، في إعداد آلات الحرب اللازمة من مجانيق وعرّادات

(44) الصوري، المصدر السابق، ج 1: 417.

(45) م. ن. ص. ن.، ورنسيمان، المصدر السابق، ج 1: 419، و Grousset, Op. Cit., T I, p. 153.

وأوهاق وكباش دك وآلات أخرى، كما صنعوا أبراجاً خشبية تطل على السور وتشرف عليه (وهي برج غودفروا وبرج ريموند[46] وبرج تانكرد).

في هذه الأثناء، وبينما كان الاستعداد للهجوم الحاسم يجري بطيئاً في معسكرات الصليبيين، كانت معاناة هؤلاء، من افتقارهم إلى الماء والزاد، تزداد، فقد وصلوا، في بحثهم عن الماء، حتى نهر الأردن، وكانت الأغنام والأبقار المعدة لإطعام الجند تنفق، بدورها، جوعاً وعطشاً ومن شدة الحر، وذلك رغم مساعدة المسيحيين من أهل البلاد، أولئك الذين «أظهروا الولاء للصليبيين، فأضحوا أدلاّء يرشدونهم إلى الينابيع والغابات الواقعة في الجهات المجاورة»[47]، ومع ذلك، فقد كان عليهم أن يدفعوا عن مواقعهم غارات المسلمين وكمائنهم، وسهام حامية المدينة وقذائفها. وفوق ذلك كله، فقد دبّ الخلاف بين قادة الحملة، وخصوصاً بين تانكرد الذي كان قد استولى على بيت لحم ورفع لواءه فوق كنيسة المهد، مما أغضب باقي القادة، كما دبّ الخلاف بينهم حول مسألة مستقبل القدس بعد احتلالها، هذا بالإضافة إلى المعاناة اليومية للجند، حيث كان يموت العديد منهم، يومياً، ظمأ وحراً وجوعاً، مما دفع بالكثيرين إلى التخلي عن الحملة ومحاولة العودة إلى بلادهم. وفي الوقت نفسه، كانت قوات المسلمين في المدينة المحاصَرة، تزداد يومياً، بسبب سهولة دخول المقاتلين إليها من الجوانب غير المحاصَرة، بالإضافة إلى أن عدّة هذه الحامية كانت تتعزز بما يصنعه المسلمون من آلات حربية مماثلة لآلات المحاصِرين[47].

ويتحدث كل من «غروسيه» و «الصوري» و «رنسيمان» عن الوسائل التي استخدمها القادة الصليبيون لرفع معنويات جندهم التي انهارت إلى حد كبير، وخصوصاً عندما سرت في صفوفهم إشاعة عن تحرك جيش من مصر باتجاه القدس لتخليصها من حصار الفرنجة لها (وكان ذلك في أول تموز/ يوليو)،

---

(46) رنسيمان، م. ن. ج 1: 419 ـ 420، والصوري، م. ن. ج 1: 417 ـ 418، و Grousset, Op. Cit., p. 154-155. والكبش، أو رأس الكبش: كتلة خشبية ضخمة ذات رأس من الحديد أو الفولاذ، توضع داخل برج خشبي يسيّر على عجلات، وتستخدم في الحصار لدك الأسوار والحصون.

(47) رنسيمان، م. ن. ج 1: 421، والصوري، م. ن. ج 1: 419 ـ 420.

فعمدوا، يوم 8 تموز، إلى إعلان الصوم الكامل، والحج، جماعة، إلى جبل الزيتون، بقيادة رجال الدين والقادة العسكريين، وسار الصليبيون، جميعاً، إلى «الجبل المقدس»، وهرع الجند المسلمون إلى الأسواق يشاهدونهم وهم يسخرون. وعلى الجبل، ألقى كل من القديس بطرس الناسك وريموند أجيل (قسيس ريموند) وأرنولف روز (قسيس روبرت النورماندي) عظة ألهب بها عواطف الجند والقادة وحماستهم، فعادوا، وقد نسوا، جميعهم، ما كان بينهم من مشاحنات، ليعملوا، يداً واحدة، في سبيل «تحرير» بيت المقدس[48].

د ـ الهجوم الحاسم، وسقوط القدس (الجمعة 23 شعبان 492هـ = 15 تموز/ يوليو 1099م):

ـ الاستعداد للهجوم:

درس القادة الصليبيون، خلال الأيام التي تلت حجّهم إلىٰ جبل صهيون، وضع أسوار القدس لكي يقرروا هجومهم عليها من أضعف النقاط فيها، فوجدوا أن القسم الممتد من باب العمود (أو باب دمشق) إلى برج داود (القلعة)، من السور الخارجي، متين ولا يمكن اختراقه، بالإضافة إلى أنه محمي بمختلف آلات الحرب والأسلحة المتوافرة لدى حامية المدينة، وأن القيام بالهجوم على المدينة من خلال هذا القسم لا بد من أن يبوء بالفشل. وكان هؤلاء القادة قد ركّزوا معظم جهدهم على هذا القسم، كما لاحظوا أن القسم الشمالي الشرقي من السور (من باب العمود غرباً حتى باب الساهرة فباب يهوشافاط شرقاً) لا يتمتع بمثل هذه الحصانة، وأنه أضعف أقسام السور حماية، خصوصاً وأن قسماً منه يطل على وادي قدرون وهو الوادي الذي لا يمكن اجتيازه من قبل أي مهاجم، لذلك اهتم المدافعون عن المدينة بتعزيز دفاعاتهم عن القسم الآخر من السور وأهملوا الدفاع عن هذا القسم معتمدين على صعوبة اجتياز وادي قدرون، بل استحالة اجتيازه (وهو الجانب الذي لم تتم محاصرته من قبل الصليبيين)، كما أن الأرض حول باب الساهرة (أو باب هيرودوس) ليست وعرة ولا صعبة

---

(48) رنسيمان، م. ن. ج 1: 421 ـ 423، والصوري، م. ن. ج 1: 425 ـ 426، و Grousset, Op. Cit., T 1, pp. 156-157.

المسالك، بل هي ملائمة لتقدم آلات الحرب والرجال. عندها، قرر القادة الصليبيون تحقيق مفاجأة تكتيكية وذلك بشن الهجوم من هذا الجانب من السور، رغم الصعوبات التي يمكن أن تعترضهم، وبدأوا ينقلون معدات الحصار، من سلالم وبروج وآلات حرب مختلفة، إلى ذلك الجانب. وهكذا، ففي ليل 9 ـ 10 تموز، نقل كل من غودفروا دي بويون، وروبرت كونت النورماندي، وروبرت كونت الفلاندر، قواته مع آلات الحرب التابعة لها، وواحداً من البروج المتنقلة الثلاثة، باتجاه ذلك الجانب من السور. وما أن أشرقت شمس 10 تموز حتى شاهد جنود حامية المدينة، من على أسوارهم، المقاتلين الصليبيين، مع آلات حربهم، وقد تمركزوا قبالة السور من الجهة الصعبة التي لم يكن ممكناً، في نظرهم، لأية قوة أن تشن هجوماً منها. وركز الصليبيون البرج المتنقل قبالة أكثر نقاط السور انخفاضاً وأمام تحصينات المدافعين، فبدا المقاتلون من الفريقين، وقد اقترب بعضهم من بعض، من جانبي السور، كأنهم «يتصارعون ويتقاتلون يداً بيد»[49].

وتمركز القادة الصليبيون الآخرون مع قواتهم، في الليلة نفسها، في المواقع المقررة لهم، فتمركز ريموند دي سان جيل، كونت تولوز، مع قواته، و «برجه المتنقل» ومجانيقه، مقابل القسم الجنوبي من السور، بين كنيسة جبل صهيون والمدينة. أما تانكرد، فتمركز، مع قواته، حول البرج الواقع في الزاوية الغربية من السور، والذي عرف، فيما بعد، باسمه، ومعه «برجه المتنقل» الذي أقامه قبالة السور «حيث جارى، في ارتفاعه وبنائه المتين، الأبراج الأخرى تقريباً»[50]. وهكذا استطاع الصليبيون أن ينصبوا، قبالة السور، وبالقرب منه، ثلاثة بروج متنقلة مهمتها مد الجسور اللازمة لاجتيازه، الأول مع غودفروا في الشمال، والثاني مع ريموند في الجنوب، والثالث مع تانكرد في الغرب.

وكان القادة الصليبيون قد فاجأوا المدافعين، وخلال ليلة واحدة، بتغيير مهم

---

(49) الصوري، المصدر السابق، ج 1: 426 و Grousset, Op. Cit., T 1, p. 157.

(50) الصوري، م. ن. ج 1: 427 و Grousset, Ibid، وكانت البروج الثلاثة التي أقامها كل من غودفروا وريموند وتانكرد ذات شكل مربع، واجهتها المقابلة للسور مغطاة بستائر مزدوجة تحول دون رؤية من بداخلها من قبل المدافعين، مما يتيح للمقاتلين الذين بداخلها أن ينتقلوا إلى المدينة بواسطة جسر يمدّونه بين البرج والسور (الصوري، م. ن. ص. ن).

في تكتيكهم، وذلك عندما نقلوا محاور هجومهم من جهة إلى أخرى يصعب تصور الهجوم منها، مما جعل المدافعين في حالة ضياع حقيقي وتساؤل عن الجهة التي سوف يشن العدو هجومه، على المدينة، منها.

ـ الهجوم:

بدأ الصليبيون هجومهم على القدس ليل 13 ـ 14 تموز/ يوليو 1099 على محورين:

ـ المحور الأول: شمال ـ جنوب بقيادة، غودفروا دي بويون ومعه روبرت كونت الفلاندر وروبرت كونت النورماندي، وتانكرد. وهو من باب الساهرة باتجاه الحرم الشريف.

ـ المحور الثاني: جنوب شمال، بقيادة ريموند دي سان جيل كونت تولوز ومعه بعض النبلاء والقادة، وهو من جبل صهيون (قبالة باب صهيون) باتجاه القلعة أو حصن داود.

ووفقاً لما ذكره المؤرخ ريموند آغيلرز، وهو شاهد عيان للمعركة، بلغ عدد المهاجين 12 ألف مقاتل من المشاة و1200 أو 1300 من الفرسان، أي ما مجموعه 13300 مقاتل[51]. إلا أن المهاجين لم يتمكّنوا من إحراز أي تقدم طيلة اليوم الأول (14 تموز)، إذ إنهم كانوا يجابَهون بما ترميه عليهم آلات الحرب ومعدات القذف (التي يملكها المسلمون بكميات هائلة) من نبالٍ وقسيٍ وسهامٍ وقذائف حجريةٍ وخرقٍ مبللةٍ بالزيت ومشتعلةٍ وقوارير ملتهبةٍ ونارٍ اغريقية، بينما كانت حجارتهم تسقط على أسوار المدينة وتحصينات المسلمين بلا أية فعالية تذكر، نظراً لأن المسلمين حصنوا تلك الأسوار والتحصينات «بأكياس مليئة بالقش والتبن» و «بالحبال والمنسوجات والعوارض الخشبية الضخمة والفرش المحشوة بالحرير»[52]. وكانت هذه تشكل، بطراوتها وليونتها، عازلاً بين الحجارة المقذوفة وتلك الأسوار والتحصينات، إلا أنه، في صباح اليوم التالي (15 تموز) اعتمد المهاجون أسلوباً آخر في القتال.

---

(51) رنسيمان، المصدر السابق، ج 1: 424.

(52) الصوري، المصدر السابق، ج 1: 429.

ـ عمليات المحور الأول (المحور الشمالي):

بدأت عمليات هذا المحور، بقيادة غودفروا دي بويون، ليل 13 ـ 14 تموز/ يوليو، بمحاولة تقدم من جهة باب الساهرة نحو السور، يصحبها طمر الخندق العريض والعميق المحفور حوله من الخارج، بغية دفع آلات الحرب والبروج المتنقلة نحوه، ولكن الرمايات الكثيفة التي نفّذتها حامية المدينة، على هذا المحور، بمختلف أنواع الأسلحة (وقد سبق تعدادها)، أعاقت تقدم المهاجين إلى حد كبير. فبينما كان المهاجون يجهدون لدفع بروجهم وآلات حربهم نحو السور بغية السيطرة عليه وعلى التحصينات القائمة خلفه، كان المدافعون يجهدون في عرقلة أعمال المهاجين هذه برميهم «بالقذائف المشتعلة والنبال المحملة بالكبريت الملتهب والإسفلت والزيت، أو أي شيء آخر يزوّد ألسنة النيران بالوقود» بالإضافة إلى ما كانت ترميه المجانيق وآلات الحرب الأخرى من نبال وسهام وحجارة ضخمة، وكان المهاجون ينشطون في إطفاء الحرائق التي كانت تشتعل، من جراء ذلك، في آلاتهم الحربية[53]. وهكذا انقضى اليوم كله دون أن يحقق المهاجون تقدماً يذكر، خصوصاً وأن رماياتهم على سور المدينة وتحصينات حاميتها لم تكن فعّالة بالقدر الكافي، وذلك بسبب التدابير التي اتخذها المدافعون عن ذلك السور وتلك التحصينات (والتي سبق ذكرها).

وما أن بدأ الليل يقترب حتى بدأ النزاع يخفّ ورمايات الفريقين تقلّ تدريجاً، دون أن يتخلّ أي منهما عن حذره وسلاحه. ومر ليل 14 ـ 15 والفريقان على حذرهما وسلاحهما، يرقب كل منهما تحركات خصمه لمنع وقوع أي ضرر عليه. فبينما كان المهاجون حذرين كي لا يحاول المدافعون التسلل خارج السور وإحراق آلات الحرب وتدميرها، كان المدافعون، بدورهم، حذرين كي لا يتسلل العدو إلى داخل المدينة عن طريق «إحداث ثغرة في السور، أو تسلق التحصينات»[54]، لذا كان الخوف والحذر مستمرين ومتبادلين بين الفريقين طيلة ليل 14 ـ 15 تموز/ يوليو.

---

(53) م. ن. ص. ن.
(54) م. ن. ص. ن.

إلا أن القتال ما لبث أن استؤنف صباح يوم 15 تموز، وذلك عندما استأنف غودفروا هجومه، بعنف، على السور، محاولاً أن يقترب منه ببرجه المتحرك وآلات حربه، «وكان البرج مغطى بجلود الحيوانات المسلوخة حديثاً، وذلك لحماية الجسور من النار الإغريقية»[55] التي يرميها المسلمون. واستطاع غودفروا، بعد جهد ومشقة، أن يصل ببرجه إلى حافة السور، وأن يمدّ، عند ظهر ذلك اليوم، جسراً، من البرج إلى السور، عند «باب الساهرة».

وكان «غودفروا» وأخوه «يوستاس» في الطابق العلوي من البرج، عندما تقدم اثنان من مقاتليه (وهما ليتولد وجيلبرت من تورناي Tournai) واقتحما السور، فتبعهما كل من غودفروا وأخيه، فكانوا أول من دخل مدينة القدس من المقاتلين الصليبيين صبيحة يوم 15 تموز/ يوليو 1099م. وما لبث، بعد ذلك، أن تدافع المهاجمون نحو السور يتسلقونه بسلالهم وأوهاقهم، على رأسهم روبرت كونت الفلاندر وروبرت كونت النورماندي وتانكرد، مما جعل المدافعين يتراجعون، مذعورين، نحو «الحرم الشريف» لكي يحتموا به ولكن المهاجمين تبعوهم إلى «المسجد الأقصى» حيث جرت، كما يذكر مؤرخ (صليبي) مجهول «مجزرة» كان من نتيجتها أن «مشى رجالنا في الدم حتى كعوب أقدامهم»[56].

بعد ذلك، وزع غودفروا المهام على قادة الفرق، فأرسل منهم من يفتح «باب العمود» للقوى التي كانت لا تزال خارج المدينة، كما أرسل فرقة اقتحمت المدينة من الشرق، من باب يهوشافاط. أما تانكرد، فتقدم، من تلقاء نفسه، نحو «الحرم الشريف» حيث كانت «قبة الصخرة» بما تزخر به من ثروة ذكر ابن الأثير أنها كانت «نيفاً وأربعين قنديلاً من الفضة، وزن كل قنديل 3600 درهم، و. . . تنوراً (مصباحاً كبيراً) من فضة وزنه أربعون رطلاً بالشامي، و. . . من القناديل الصغار 150 قنديلاً نقرة، ومن الذهب نيفاً وعشرين قنديلاً»، فغنمها كلها، وغنم الصليبيون من المسجد الأقصى، كما يذكر ابن الأثير أيضاً، «ما لا يقع عليه الإحصاء»[57].

---

(55) Grousset, Op. Cit., p. 158.

(56) Ibid. وانظر أيضاً، الصوري، المصدر السابق، ج 1: 434.

(57) ابن الأثير، ج 10: 284. والنقرة، من الذهب والفضة: القطعة المذابة، أو السبيكة.

وكان قد لجأ إلى سطح المسجد مئات من المسلمين أعطاهم «تانكرد» الأمان، وأعطاهم رايته ضماناً لهم، إلا أنهم، في اليوم التالي (16 تموز/ يوليو)، ذبحوا، جميعهم، ذبح النعاج على أيدي جنود صليبيين دخلوا الحرم الشريف وقتلوهم جميعاً بلا استثناء لولد أو شيخ أو امرأة، غير عابئين بالأمان الذي أعطاهم إياه تانكرد، ولا برايته التي رفعوها اعتقاداً منهم أنها ستحميهم[58].

ـ عمليات المحور الثاني (المحور الجنوبي):

بدأ ريمون، كونت تولوز، يعدّ للهجوم قبل ثلاثة أيام من بدئه، أي من تاريخ 12 تموز/ يوليو، حيث كان عليه أن يطمر خندقاً عريضاً وعميقاً يفصل بين السور من الخارج، وبين مواقعه، ويجعل وصوله إلى السور، مع برجه وآلات حربه، صعباً إن لم يكن مستحيلاً. وقد لاقى ريموند مشقة كبيرة في أداء هذه المهمة، خصوصاً وأن نيران الحامية (ومنها النار الإغريقية) التي كانت تقذف عليه من داخل السور، ومن حصن داود (أو القلعة) لم تكن لتوفر له الراحة والأمان لبلوغ المهمة. ومع ذلك فإن ريموند استطاع، مساء 14 تموز/ يوليو، أن يدفع ببرجه المتنقل فوق الخندق، ويبلغ به السور.

بعد ذلك، وليل 14 ـ 15 تموز، بدأ ريموند وقواته محاولة صعبة للتقدم من جبل صهيون (قبالة باب النبي داود) باتجاه القلعة (أو حصن داود). وقد لقي المهاجمون، على هذا المحور، مقاومة أشد من تلك التي لقيها المهاجمون على المحور الأول، خصوصاً وأن حاكم المدينة أو قائد حاميتها (افتخار الدولة) كان يقود الجبهة المواجهة لريموند وقواته. واستمر القتال طيلة قبل ظهر 15 تموز، وفي هذه الأثناء، كان غودفروا قد احتل الجهة الشمالية وتوغل في المدينة دون أن يعلم ريموند بالأمر، ولا خصمه، افتخار الدولة، الذي كان يقاتل في مواجهته. إلا أن صرخات الجنود المنتصرين وصيحات الرعب والفزع التي كانت تصدر عن المسلمين الهاربين من وجه المهاجمين أيقظت افتخار الدولة على الحقيقة المرة، كما نبهت ريموند إلى انتصار حلفائه في الجهة الشمالية، فانكفأ افتخار الدولة برجاله نحو القلعة (أو حصن داود) ليعتصم فيها، بينما تقدم ريموند إلى السور فأنزل

(58) Grousset, Op. Cit., p. 159.

الجسر عليه من برجه المتنقل «بدون مقاومة، ورفع سلالمه إلى الأسوار، ودخل المدينة من دون أدنى إعاقة»[59] من قبل المسلمين الذين كانوا قد تخلوا، نهائياً، عن القتال. وفتح ريموند الباب الجنوبي (باب النبي داود) لمقاتليه فدخلوا المدينة منتصرين. أما افتخار الدولة، فقد طلب من ريموند الأمان لكي يخرج ورجاله من القلعة ويغادروا المدينة، فأمنه ريموند، وخرج افتخار الدولة ورجاله إلى عسقلان حيث انضموا إلى ما تبقى في فلسطين من جيوش إسلامية[60]. وهكذا سقطت القدس، كلها، بيد الغزاة الصليبيين، يوم الجمعة في الخامس عشر من تموز عام 1099م الموافق للثالث والعشرين من شعبان عام 492هـ، وذلك بعد حصار دام 39 يوماً، من 7 حزيران/ يونيو حتى 15 تموز/ يوليو. (انظر الخارطة رقم 2).

هـ ـ وحشية الحضارة الغربية الصليبية

يذكر ابن الأثير أن الصليبيين قتلوا، في المسجد الأقصى «ما يزيد على سبعين ألفاً، منهم جماعة كثيرة من أئمة المسلمين وعلمائهم وعبّادهم وزهّادهم»[61]. أما من كان في القدس من اليهود، في هذه الأثناء (وكان افتخار الدولة قد سمح لهم بالبقاء في المدينة بينما أمر المسيحيين بالخروج منها خشية أن يتعاطفوا مع أبناء دينهم)، فقد لجأوا إلى كنيسهم، إلا أن المقاتلين الصليبيين حشروهم جميعاً في «معبدهم الكبير» حيث لجأوا، وأحرقوا المعبد، وهم بداخله، فقضوا جميعهم حرقاً «بحجة أنهم ساعدوا المسلمين». ويقول «ابن القلانسي» في ذلك، وهو قد عايش هذه الفترة وزامنها: «وقتل خلق كبير، وجمع اليهود في الكنيسة وأحرقوها عليهم»[62].

ويذكر رنسيمان أن مذبحة القدس تركت «أثراً عميقاً في جميع العالم» وأن عدد ضحاياها «ليس معروفاً بالضبط»، وأن القدس خلت، بعد هذه المذبحة، «من

---

(59) الصوري، المصدر السابق، ج 1: 435، و Grousset, Op. Cit., pp. 168-169.

(60) الصوري، م. ن. ج 1: 442، ورنسيمان، المصدر السابق، ج 1: 425 ـ 426، و Grousset, Op. Cit., p. 160

(61) ابن الأثير، المصدر السابق، ج 10: 283 ـ 284.

(62) رنسيمان، المصدر السابق، ج 1: 427، وابن القلانسي، (ذيل) تاريخ دمشق، ص 222.

سكانها المسلمين واليهود»، وأنه «لم يثر التعصب الإسلامي، من جديد، إلا التعصب المسيحي الذي دلّ عليه ما لجأ إليه الصليبيون من سفك الدماء»[63].

ويصف الأسقف وليم الصوري هذه المذبحة وصفاً تقشعر له الأبدان، إذ يقول: «بات من المحال النظر إلى الأعداد الكبيرة للمقتولين دون هلع، فقد انتشرت أشلاء الجثث البشرية في كل مكان، وكانت الأرض ذاتها مغطاة بدم القتلى، ولم يكن مشهد الجثث التي فصلت الرؤوس عنها، والأضلاع المبتورة المتناثرة في جميع الاتجاهات، هو وحده الذي أثار الرعب في كل من نظر إليها، فقد كان الأرهب من ذلك هو النظر إلى المنتصرين أنفسهم وهم ملطخون بالدم من رؤوسهم إلى أقدامهم. . . ويروى أنه هلك داخل حرم الهيكل (الحرم الشريف)، فقط، قرابة عشرة آلاف من الكفرة، بالإضافة إلى القتلى المطروحين في كل مكان من المدينة، في الشوارع والساحات، حيث قدّر عددهم أنه كان مساوياً لعدد القتلى داخل حرم الهيكل. وطاف بقية الجنود خلال المدينة بحثاً عن التعساء الباقين على قيد الحياة، والذين يمكنهم أن يكونوا مختبئين في مداخل ضيقة وطرق فرعية للنجاة من الموت، وسحب هؤلاء على مرأى الجميع وذبحوا كالأغنام، وتشكل البعض في زمر واقتحموا المنازل حيث قبضوا على أرباب الأسر وزوجاتهم وأطفالهم وجميع أسرهم، وقتلت هذه الضحايا أو قذفت من مكان مرتفع حيث هلكت بشكل مأساوي»[64]. ويحاول «غروسيه» أن يبرر هذه المذبحة بقوله «يبرهن النص أن انتصار المسجد الأقصى لم يكن إلا ثمناً لمعركة جديدة، وهو ما يفسر عدد القتلى»، ويستشهد، على ذلك، بكلام «المؤرخ مجهول» يستشهد به مراراً، إذ يقول: «عندما دخل حجاجنا المدينة، طاردوا (الإسماعيليين) حتى هيكل سليمان (الحرم الشريف) حيث كانوا قد اجتمعوا وخاضوا ضدنا طيلة النهار، معركة شرسة، وذبحوهم، حتى أن الدم جرى في الهيكل»[65]. كما أنه، أي غروسيه، يرى، وهو محق في ذلك، أن الرقم الذي ذكره ابن الأثير لعدد الذين قضوا في الحرم الشريف مبالغ فيه إلى حد كبير، وأن

(63) رنسيمان، م. ن. ص. ن.
(64) الصوري، المصدر السابق، ج 1: 436 ـ 437.
(65) Grousset, Op. Cit., p. 158. والاسماعيليون: أبناء اسماعيل، أي المسلمون.

كان مقبولاً من المؤرخين العرب، ذلك أن «مواطني القدس كلهم، لم يبلغوا هذا العدد»[66].

وإذ يحاول «غروسيه» أن يؤكد مقولة «المؤرخ المجهول» بأن «العرب (أي المسلمين)، كما رأينا، حوّلوا الأقصى إلى مقر حاولوا أن ينظموا، فيه، مقاومة قصوى، وهذا ما يفسر شلالات الدم التي أهرقت فيه»، تراه يعزو هذه المذبحة، بصفاقة كلية، إلى الشتائم التي يقول إن أفراد الحامية المسلمين وجهوها، من على السور، إلى عقيدة الحجاج الصليبيين يوم 8 حزيران، حيث يرى أن «هذا التدنيس للحريات، الذي ارتكب بدم بارد، ربما يفسر، وإلى حد ما، حنق المنتصرين في خضم المعركة، والغضب الذي انتابهم تجاه القرآن، الكتاب الأكثر قداسة (لدى المسلمين)، وتجاه الأئمة والعلماء شخصياً»[67].

ولا ينسى أن يبرر، كذلك مذبحة الصليبيين لليهود بعد أن جمعوهم في الكنيس وأضرموا النار فيه، فأحرقوهم أحياء، إذ يقول: «يمكننا أن نتذكر أنه، حينما حدثت المجازر ضد المسيحيين، اتخذ العنصر اليهودي موقفاً مشتركاً مع القتلة الفاطميين» وأن «دم بطاركة أورشليم جعلهم يستذكرون هذه المجازر»[68].

ولن نجد رداً على ما قدمه «غروسيه» من تبريرات غير مقبولة تدل، بشكل فاضح، على انحيازه وعدم تجرده، (مما يسيء، ولا شك، إلى مكانته التاريخية المعروفة)، سوى ما سبق ان ذكرناه من شهادات عن هذه المذبحة، وردت بقلم مؤرخ متابع لأحداث هذه الحروب، هو الأسقف وليم الصوري، والتي أضاف إليها ما يلي: «لقد كانت المجزرة التي اقترفت في كل مكان من المدينة مخيفة جداً، وكان سفك الدماء رهيباً جداً، لدرجة عانى فيها المنتصرون من أحاسيس الرعب والاشمئزاز»[69]. كذلك ما كتبه «ريموند آغليرز» وهو مؤرخ الحروب الصليبية (الذي يستشهد غروسيه برواياته كثيراً)، يقول آغيلرز: «لقد رأينا، في كل شوارع المدينة وأحيائها، تلالاً من الرؤوس والأيدي والأرجل. لقد كان الناس

---

(66) Ibid., pp. 160-161.
(67) Ibid., p. 161.
(68) Ibid.
(69) الصوري، المصدر السابق، ج 1: 436.

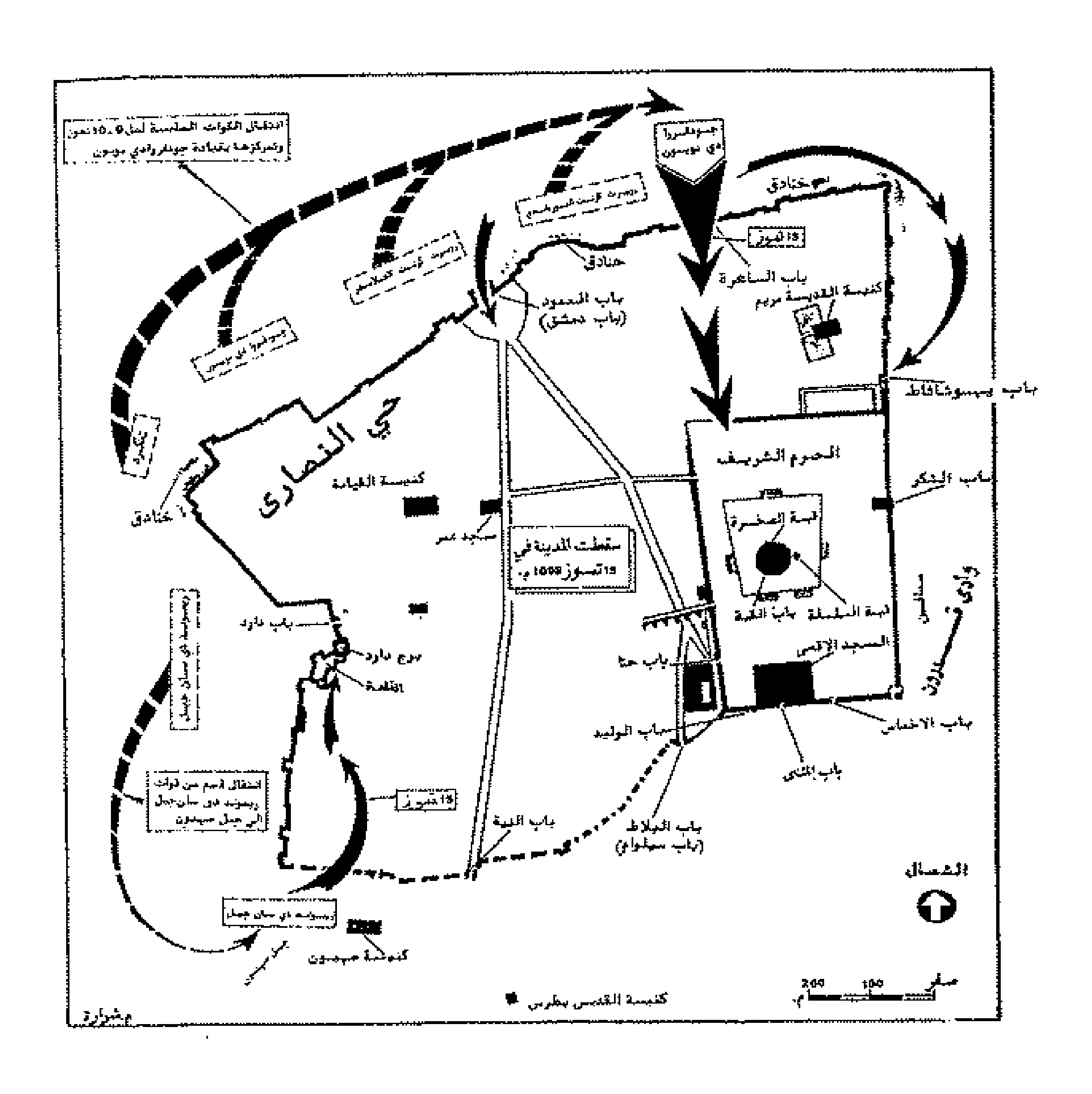
يمشون، علناً وبهدوء، على جثث الرجال والخيل» ويستطرد «إنني لا أقدم، في وصف هذا، سوى القليل من الرعب الذي شاهدته، وإذا أنا وصفت كل ما شاهدته فلن تصدقوني»[70].

وإننا لنستذكر، أمام وحشية الحضارة الغربية وهمجية الروح الصليبية هذه، ما قاله المفكر الفرنسي «غوستاف لوبون» في كتابه «حضارة العرب» إذ قال: «لم يعرف التاريخ فاتحاً أرحم من العرب».

---

(70) المؤرخ ريموند آغليرز Raymond of Aguilers وهو شاهد عيان لمذبحة القدس عند سقوطها عام 1099م، وانظر النص الحرفي لكلامه في Riley-Smith, Jonathan, The Atlas of Croisades, p. 30.

خارطة رقم (2)
الاحتلال الصليبي للقدس
(1099 م)



الفصل الثالث

تحرير القدس من الصليبيين

تحرير القدس من الصليبيين (583هـ = 1187م):

1 ـ القدس عشية تحريرها من الصليبيين:

استمر الحكم الصليبي طوال ثمانية وثمانين عاماً (1099 ـ 1187م) استطاع الصليبيون، خلالها، أن يدخلوا تعديلات حاسمة على المدينة المقدسة، خصوصاً بعد أن أفنوا كل سكانها من العرب المسلمين، فأصبحت المدينة، في ظل الحكم الجديد، «عاصمة مملكة مستقلة (هي مملكة بيت المقدس)، ومركزاً مهماً للمسيحية في العالم»[1]، حيث جذب مركزها الديني هذا أعداداً كبيرة من الحجاج المسيحيين من مختلف أنحاء العالم، مما منحها قدرة معنوية ومادية (مالية خصوصاً) على التطور والنمو السريع بشكل لم يكن منتظراً، خصوصاً وأن أعداداً من هؤلاء الحجاج كانت تأتي لكي تستقر في المدينة بشكل دائم، بالإضافة إلى أن الملك بلدوين الأول، ملك مملكة بيت المقدس (وهو أخو غودفروا دي بويون الذي توفي عام 1100م، وخليفته في الحكم) كان قد دعا المسيحيين في الأراضي العربية لكي يسكنوا المدينة المقدسة، لأنها كانت خالية من السكان تقريباً، ولأن سكانها من العرب المسلمين، ومن اليهود «قد قتلوا من غير استثناء، إلى آخر

(1) Bahat, Op. Cit., p. 90.

رجل منهم»[2]، مما غيّر وجه المدينة ومجتمعها تغييراً كلياً. كما أن قوانين جديدة صدرت، وكانت تتيح للمسيحيين الراغبين بالسكن في القدس، أن يتملكوا «الأراضي المتروكة والمحتجزة لدى القوات الصليبية خلال احتلالها للمدينة»، مما أتاح للمسيحيين العرب القادمين من مختلف أنحاء بلاد الشام أن يقيموا في الأحياء المتروكة من المدينة[3]، إلا أنهم سمحوا، فيما بعد، لعدد قليل من غير المسيحيين بالإقامة في المدينة المقدسة[4]. ونتيجة «للمذابح، ولسياسة الاستيطان» التي اتبعتها الدولة الصليبية، تغيّرت «التركيبة الأثنية» للمدينة تغييراً جذرياً، بحيث أصبحت ذات «هيمنة مسيحية»، وأما المؤسسات الدينية غير المسيحية، مثل المسجد الأقصى ومسجد الصخرة، فقد «وضعت اليد عليها، وسلمت للكنيسة اللاتينية»[5].

أما أسوار المدينة وتحصيناتها فظلت قائمة منذ العهد الإسلامي ولم يطرأ عليها أي تغيير حتى أواخر العهد الصليبي، «حيث أسهم نبلاء المدينة في توفير الاعتمادات اللازمة لصيانتها»، ويبدو أن أهم تغيير جرى في هذه التحصينات، في هذه الفترة، هو «تدعيم القلعة وحفر خنادق حولها، عام 1160م» كما دُعّم حصن داود، وظلت شبكة الخنادق التي حفرت في شمال المدينة في العهد الإسلامي، وفي القرن الحادي عشر، قائمة[6]. وكانت أبواب المدينة، بحسبما عثر عليه في الحفريات التي أجريت لاستكشاف آثار المدينة في هذه الحقبة:

- في السور الشمالي:

- في الطرف الشرقي: باب مريم المجدلية (باب ستي مريم أو باب هيرودوس) وباب الساهرة.

- في الوسط: باب القديس اسطفان (أو باب دمشق) وباب ابراهيم الخليل.

- في الطرف الغربي: باب القديس اليعازار.

---

(2) الصوري، المصدر السابق، ج 1: 560.

(3) Bahat, Op. Cit., p. 90.

(4) Ibid.

(5) الموسوعة الفلسطينية، مجلد 3: 545.

(6) Bahat, Op. Cit., p. 92.

- في السور الشرقي:

- في الوسط: باب يهوشافاط (أو باب الأسود).

- في السور الجنوبي:

- في الطرف الشرقي: باب المدبغة (أو باب الروث).

- في الوسط: باب صهيون.

- في الطرف الغربي: باب بلكاير (Belcayres's Postern).

- في السور الغربي:

- في الوسط: باب داود (أو باب يافا)، وقد نقل هذا الباب من موضعه الأساسي إلى الغرب، حيث أعيد بناؤه كجزء من الجدار الذي بناه الصليبيون في تلك الجهة[7].

وظهرت في الحقبة الصليبية، عدة أحياء في المدينة أهمها:

- حي البطريرك، الواقع في الجهة الشمالية الغربية من المدينة، وهو الجزء الرابع من المدينة الذي تملّكه رئيس أساقفة القدس البطريرك «ديمبرت» بأمر من الدوق غودفروا دي بويون حاكم المدينة وملك المملكة، وكان يدعى «الحي المسيحي» في العهد الإسلامي، حيث كان يقطن المسيحيون الذين أجيز لهم أن يعودوا، في كل قضاياهم ومنازعاتهم إلى «بطريركهم» مما جعل الكنيسة تدّعي، فيما بعد، أنه ملك لها.

ويمتد هذا الحي، مع السور الخارجي للمدينة، من جهة الغرب، من الباب الغربي «باب داود»، جنوباً مروراً «ببرج تانكرد»، حتى باب القديس اسطفان شمالاً. أما حده الداخلي فهو الطريق العام الذي يمتد من باب القديس اسطفان شمالاً حتى «موائد الصرّافين» جنوباً، «فالباب الغربي أو باب داود» غرباً[8]. ويقع «حي الاسبتارية» ضمن هذا الحي.

---

(7) Ibid., pp. 92-92. ويبدو أن «باب بكلير» منسوب إلى بلدة فرنسية بالإسم نفسه (Beclaire) في مقاطعة الأود (L'Aude).

(8) الصوري، المصدر السابق، ج 1: 467 - 471.

- الحي السوري، وهو الحي اليهودي سابقاً (أي في العهد الإسلامي) وقد سكنه المسيحيون العرب الذين انتقلوا إلى القدس من مختلف أنحاء بلاد الشام بناء لطلب من الملك بلدوين كما سبق أن ذكرنا، وهو يقع في الجزء الشمالي الشرقي من المدينة.
- الحي الأرمني، ويقع في الجزء الجنوبي الغربي من المدينة. ويقيم الأرمن كذلك في «الحي الألماني» حيث يقيم الحجاج والرعايا الألمان.

ويقع الحرم الشريف ضمن الحي السوري، وفي الجزء الجنوبي الشرقي من المدينة. (انظر المخطط رقم 8).

ويعتبر العهد الصليبي، بالنسبة إلى القدس، عهداً ازدهرت فيه المشاريع الإعمارية في المدينة، فقد بنيت الكنائس والأديرة والكاتدرائيات، كما أعيد ترميم وبناء كنائس وأديرة وكاتدرائيات عديدة كانت آثارها أو أجزاء منها لا تزال باقية منذ العهد البيزنطي، ومن هذه الكنائس والأديرة والكاتدرائيات: كنيسة القبر المقدس، وكنيسة مريم المجدلية، وكنيسة القديسة حنة، وكنيسة يوحنا المعمدان، وأبنية خاصة بفرسان الاسبتارية وأخرى بفرسان التيوتونية (من السلالة الجرمانية). (يبين المخطط رقم 8 المرفق أهم الكنائس والأديرة والكاتدرائيات التي جرى بناؤها أو ترميمها في العهد الصليبي)، ولا تزال معظم هذه الأبنية باقية إلى اليوم «برغم أنها تستخدم لغايات مختلفة عن تلك التي بنيت لأجلها»[9].

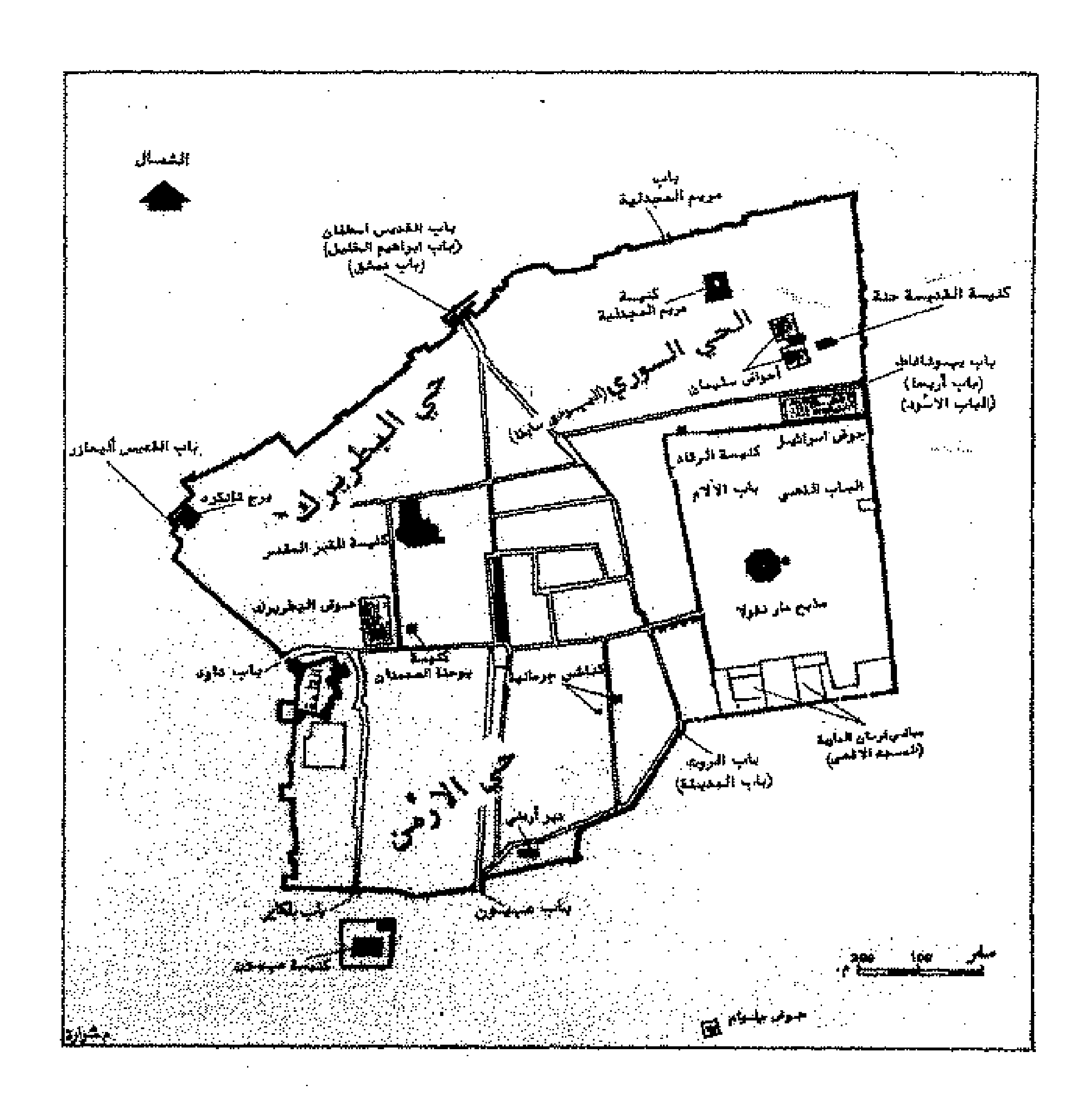
ويذكر ابن الأثير أن المدينة كانت، عشية تحريرها من الصليبيين، «في غاية الحصانة والامتناع»، حتى أن صلاح الدين ظل «خمسة أيام يطوف حول المدينة» لاستكشاف موقع ضعيف في السور يبادر إلى الهجوم منه «فلم يجد عليه موضع قتال إلا من الشمال، نحو باب عمودا (أي باب العمود)، وكنيسة صهيون»[10]. كما يذكر أن الصليبيين كانوا قد أقاموا «على رأس قبة الصخرة» صليباً كبيراً مذهباً، نزعه المسلمون عنها حين وصولهم إليها[11]. كما كانوا قد حوّلوا المسجد

(9) Bahat, Op. Cit., p. 101.

(10) ابن الأثير، المصدر السابق، ج 11: 547.

(11) م. ن. ص 551.

مخطط رقم (8)
مدينة القدس عشية تحريرها من الصليبيين



الأقصى مقراً لفرسان الداوية[12]، و «فرشوا الرخام فوق الصخرة وغيبوها» فأمر صلاح الدين بكشفها[13].

وتحدث «الشريف الإدريسي» عن هذه المدينة في كتابه «نزهة المشتاق» الذي ألفه قبل نحو ثلث قرن من تحرير القدس على يد صلاح الدين (فرغ من تأليفه عام 548هـ = 1154م) فذكر من أبوابها:

- في الطرف الغربي: باب المحراب وعليه قبة داود.
- في الطرف الشرقي: باب الرحمة، مغلق إلا في عيد الزيتون، وبالقرب منه باب الأسباط، (أو باب القديس اسطفان) وهو مفتوح.
- في الجنوب: باب صهيون.
- في الشمال: باب عمود الغراب (باب العمود).

كما ذكر من كنائسها:

- كنيسة القيامة، أو كنيسة القبر المقدس، التي يحج إليها المسيحيون، وقبتها «من عجائب الدنيا». وقد سماها المسلمون «قمامة» وهو اسم لامرأة مسيحية بنت هذه الكنيسة فسميت باسمها.
- كنيسة السيدة مريم، في مكان يدعى «الجسمانية» حيث يوجد قبر السيدة العذراء، ومن حيث يُرى جبل الزيتون «وبينه وبين باب الأسباط نحو ميل».
- كنيسة «باتر ناستر» (أو ابانا Pater-Naster) على الطريق إلى جبل الزيتون.
- كنيسة القديس يوحنا، على وادي الأردن.
- كنيسة صهيون، على جبل صهيون، جنوب القدس.
- كنيسة القديس بطرس، جنوب غربي باب صهيون.
- كنيسة «قدس الأقداس» التي تقع بالقرب من قبة المسجد الأقصى.

وذكر من مساجدها:

---

(12) الموسوعة الفلسطينية، مجلد 3: 512.

(13) ابن الأثير، المصدر السابق، ص 552.

- المسجد الأقصى، الذي «ليس في الأرض كلها مسجد على قدره إلا المسجد الجامع الذي بقرطبة»، وقد بني هذا المسجد مكان «البيت المقدس الذي بناه سليمان بن داود».

- قبة الصخرة، تقع «في وسط الجامع» وهي «مرصعة بالفص المذهب»، وتقع الصخرة المسماة «الواقعة» في وسط القبة، وهي «حجر مربع كالدرقة»، يرتفع أحد رأسيها عن الأرض بينما يلتصق الثاني بها[14].

أما القزويني (599هـ = 1203م ـ 682هـ = 1283م) الذي يفترض أن يكون قد كتب كتابه «آثار البلاد في أخبار العباد» في حوالي منتصف القرن الهجري السابع والميلادي الثالث عشر (أي بعد نحو نصف قرن من تحرير المسلمين للقدس)، فهو لم يتحدث إلا عن المسجد الأقصى وكنيسة القيامة وعين سلوان، وهو لم يخرج في حديثه عنها عن ما قرأناه في كتب المؤرخين والرحالة السالفين من المسلمين، خصوصاً المقدسي المعروف بالبشاري، وياقوت الحموي البغدادي[15]. وقد تحدث، عن بيت المقدس، في الفترة نفسها، المؤرخ المعجمي، «ياقوت» المعروف بالحموي الرومي البغدادي (575هـ = 1179م ـ 626هـ = 1229م) فأفاض في الحديث عنها: وقد تحدثنا عن ذلك سابقاً، إلا أن ما يهمنا هو معرفة حال بيت المقدس كما رآها ياقوت بعد تحريرها من الصليبيين بأقل من نصف قرن.

يذكر ياقوت المسجد الأقصى وقبة الصخرة، كما يذكر قباباً أخرى مثل قبة السلسلة وقبة المعراج وقبة النبي داود، ويذكر عين سلوان. ثم يعدد أبواب المدينة ويراها ثمانية هي: باب صهيون وباب التية وباب البلاط وباب جب أرميا وباب سلوان وباب أريحا وباب العمود وباب محراب داود. ثم يصف المسجد الأقصى وصفاً تفصيلياً دقيقاً ويعدد أبوابه وهي عشرون باباً، إلا أنه لا يذكر شيئاً عن آثار الصليبيين في المدينة ولا ما تركوه فيها من كنائس وأديرة[16].

---

(14) الشريف الإدريسي، نزهة المشتاق في أخبار الآفاق، ج 1: 358 ـ 362.

(15) القزويني، آثار البلاد وأخبار العباد، ص 159 ـ 163. ويبدو أن القزويني أخذ، في كتابه هذا، الكثير مما كتبه المقدسي وياقوت، وبالنص أحياناً.

(16) ياقوت، المصدر السابق، ج 5: 166 ـ 172.

ورغم ما كانت تتمتع به المدينة المقدسة من حصانة ومناعة على الصعيدين المادي والروحي كمدينة منيعة بأسوارها وتحصيناتها، قوية بمركزها الديني في العالم المسيحي كله، فإن مصيرها قد تقرر، بصورة حاسمة، بعد هزيمة الصليبيين في حطين (4 تموز 1187م) حيث بدأت معاقلهم تتساقط، أمام القائد المسلم صلاح الدين، الواحد بعد الآخر.

2 ـ مقدمات التحرير: صلاح الدين واستراتيجية التوحيد للتحرير

أيقن صلاح الدين الأيوبي أن من أهم عوامل انهيار المقاومة الإسلامية أمام الغزو الصليبي هو تشتت المسلمين واختلافهم، وأن الرد الوحيد على الهجمة الصليبية هو وحدة المسلمين، فسعى، منذ أن تسلم الحكم (عام 564هـ ـ 1169م) إلى تنفيذ استراتيجية واضحة ومحددة، هي توحيد المسلمين أولاً لتحرير بلادهم من الحكم الصليبي فيما بعد.

وكان المسلمون، عشية تسلم صلاح الدين الحكم في مصر، موزعين بين أمويين يتنازعون فيما بينهم ما تبقى لهم من سلطة متهاوية في بلاد الأندلس، ومن دويلات ضعيفة ممزقة في أنحاء المغرب العربي، وعباسيين يشهدون اضمحلال سلطانهم الذي اقتصر على عاصمة ملكهم بغداد، إذ نازعتهم، على ذلك السلطان، دولة فاطمية انطلقت من مصر والمغرب العربي (تونس)، إلى الشام، ثم بدأت تنحسر، بدورها، حتى انتهت، في مصر، بظهور صلاح الدين الأيوبي بعد موت آخر خليفة فاطمي (عام 567هـ ـ 1171م)، بينما توزعت بلاد الشام قوى متناحرة، بدورها، فكان فاطميو مصر في الجنوب، وسلاجقة الأتراك في الشمال، وبينهما، وفي ظلهما، مقاطعات يحكمها أمراء وزعماء، متناحرون ومنقسمون شراذم قبلية وطائفية ومذهبية، وقد انحاز بعضهم إلى الصليبيين وحالفوهم، بينما قاومهم آخرون وحاربوهم، وكان أهم هؤلاء: الأتابكة الزنكيون، ثم الأيوبيون.

في هذه الأثناء، كان الصليبيون قد نجحوا في اجتياح بلاد الشام بسهولة ويسر، مستفيدين من تشرذم المسلمين وتمزقهم، فأقاموا، في أرجائها، ممالك وإمارات هي: إمارة الرها (في بلاد الأتراك السلاجقة)، وإمارة انطاكية (في

سوريا الشمالية) وكونتية طرابلس في الشمال كذلك، ومملكة بيت المقدس، في الجنوب، بينما بقيت دمشق وسوريا الداخلية بيد المسلمين[17].

لقد كانت مهمة صلاح الدين واضحة أمامه، إذ كان عليه أن يبادر إلى توحيد شراذم المسلمين، بصرف النظر عن أجناسهم، عربية كانت أم غير عربية، وهو الكردي المسلم، المولود في تكريت من بلاد العراق، فكان أول ما سعى إليه هو تسلم قيادة الأمة الإسلامية في بلاد العرب، وتوحيد المسلمين في كل من مصر وبلاد الشام والجزيرة العربية، كي ينطلق، بعدها، لمواجهة الصليبيين.

وكان الحكم في سوريا بيد نور الدين زنكي، وكان هذا سيداً لصلاح الدين قبل أن ينتقل الأخير إلى مصر[18]، وكان نور الدين قد بلغ من العمر آخره، ثم ما لبث أن توفي، فاغتنم صلاح الدين الفرصة وأخضع بلاد النوبة وشواطىء افريقية حتى طرابلس وقابس وبلاد اليمن وجزيرة العرب وسوريا، وكان ذلك كافياً لكي يقنع الخليفة العباسي القابع في بغداد، ضعيفاً متهالكاً، بأن يؤمّره على مصر والمغرب والنوبة بالإضافة إلى الجزيرة العربية وبلاد الشام.

وكانت خطة صلاح الدين تقضي بحصر الصليبيين بين فكي كماشة طرفها الشرقي والشمال الشرقي سوريا وطرفها الجنوبي مصر، خصوصاً وأنه حظي بتأييد الخلافة العباسية، وأن الإمارات الصليبية الأربع التي قامت في بلاد الشام لم تكن تتعدى سواحل تلك البلاد، من عسقلان والعقبة جنوباً إلى حدود أرمينية شمالاً[19].

وما أن استتب الأمر لصلاح الدين حتى بدأ بتنفيذ خطته تلك، من الجنوب أولاً، ثم من الشرق والشمال، وعلى مراحل:

---

(17) حتي، المرجع السابق، ج 2: 749 ـ 761، وانظر: قاسم، المرجع السابق، ص 240.

(18) كان نور الدين زنكي قد أرسل إلى مصر جيشاً بقيادة أسد الدين شيركوه عم صلاح الدين (لنجدة شاور بن مجير السعدي، أحد وزراء الخليفة العاضد آخر الخلفاء الفاطميين، ضد أحد مناوئيه ضرغام بن سواد) وكان صلاح الدين في عداد هذا الجيش. وقد زاد من قناعة صلاح الدين في ضرورة المبادرة لمواجهة الصليبيين، ما أقدم عليه شاور (الحليف السابق لعمه أسد الدين) من تحالف مع الصليبيين في القتال ضد عمه (بعد هزيمة ضرغام وقتله).

(19) حتي، فيليب، المرجع السابق، ج 2: 764 ـ 765.

المرحلة الأولى: استكشاف القدرات القتالية للعدو:

زحف صلاح الدين من مصر، شمالاً، باتجاه الساحل الفلسطيني «فأغار على أعمال عسقلان والرملة» بعد أن هزم الصليبيين في «حصن داروم» عند «ربض غزة» عام 566هـ (كانون الأول/ ديسمبر عام 1170)، وعاد إلى مصر[20]. ثم عاد فزحف في العام التالي (567هـ = خريف عام 1171م) من مصر شمالاً بشرق، حيث اجتاز المفازة الواقعة جنوب شرقي البحر الميت، وأطل على الصليبيين مفاجئاً إياهم عند حصن «الشوبك» فحاصره، ثم حاصر الكرك وقلعتها، على الحدود الشرقية لمملكة «بيت المقدس» الصليبية، ثم عاد إلى مصر[21]. وفعل صلاح الدين الشيء نفسه في العام التالي (568هـ = تموز/ يوليو 1172م) فحاصر الكرك ثم عاد عنها إلى مصر عن طريق وادي عربة بعد أن دمّر المنطقة الواقعة خلف نهر الأردن، ولم يبق للصليبيين سوى موقع «الكرمل» (جنوب شرقي الخليل، على الضفة الغربية للأردن)، حيث لجأ الملك عموري بجيشه خشية مواجهة صلاح الدين[22]، وقد اعتبرت عملياته هذه محاولة عسكرية ناجحة لاستكشاف القدرات القتالية للعدو[23]. ونحن من هذا الرأي، نظراً لأن صلاح الدين كان يدرك، ولا شك، أن ليس باستطاعته مهاجمة المملكة الصليبية والانتصار عليها قبل توحيد مصر وبلاد الشام تحت سلطة إسلامية واحدة. إلا أن ابن الأثير يرى أن ضغينة قامت، من جراء ذلك، بين نور الدين وصلاح الدين، مما أوجب أن يعود صلاح الدين، في المرتين الأخيرتين، إلى

---

(20) الصوري، المصدر السابق، ج 2: 948، وابن الأثير، المصدر السابق، ج 11: 365. وداروم تحريف لعبارة «دار الروم»، وهي قلعة كانت تقع عند غزة، على الحدود بين مصر وفلسطين (الصوري، م. ن. ص 949).

(21) الصوري، المصدر السابق، ج 2: 963 ـ 964، ورنسيمان، المرجع السابق، ج 2: 637، وابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج 11: 371 ـ 372.

(22) ابن الأثير، م. ن. ج 11: 392 ـ 393، والصوري، المصدر السابق، ج 2: 964 ـ 965. والكرمل هذه هي غير جبل الكرمل الواقع على الساحل الفلسطيني قرب حيفا، وهي قرية قديمة كانت تقع على نحو 7 أميال جنوب شرقي الخليل، بالقرب من المنطقة الواقعة فيما وراء الأردن التي يفصلها عنها «وادي عربة» (الصوري، م. ن. ج 2: 965). وانظر: عبد الملك، بطرس، قاموس الكتاب المقدس، ص 778.

(23) دجاني ـ شيكل، هادية، القاضي الفاضل عبد الرحمن البيساني العسقلاني، ص 170.

مصر، خوفاً من نور الدين[24].

المرحلة الثانية: الاستيلاء على سوريا الداخلية، الشرقية والشمالية، بغية وضع العدو بين فكي كماشة:

انتقل صلاح الدين من مصر إلى دمشق بعد وفاة نور الدين مباشرة، في منتصف ربيع الأول عام 570هـ (1174م) سالكاً، بجيشه، من بلبيس بمصر إلى أيلة (العقبة) فبصرى فالكسوة فدمشق التي وصلها في آخر شهر ربيع الأول نفسه[25]، فدخل دمشق سلماً، ثم انتقل إلى بعلبك وحمص «وحماة وشيزر وسائر المنطقة» فامتلكها جميعها بلا قتال (عام 570هـ = 1174م)، ثم إلى حلب التي عصيت عليه بسبب اعتصام الملك الصالح اسماعيل بن نور الدين فيها ومؤازرته من قبل كونت طرابلس الصليبي الذي زحف لقتال صلاح الدين قبل استفحال أمره، مما حدا بصلاح الدين لأن يساوم الكونت الصليبي كي يقف على الحياد بينه وبين الملك الصالح لقاء إطلاق رهائن كانت للكونت عند صلاح الدين، فوافق الكونت على ذلك، وتمكن صلاح الدين من «بسط سلطانه على كل سوريا، حتى حماة شمالاً» ولكن حلب ظلت خارج سلطته[25 مكرر]. ثم سار إلى الموصل حيث خاض معركة منتصرة (عام 571هـ = 1175م) ضد قطب الدين شقيق نور الدين (وكان هذا قد انتصر لابن أخيه الملك الصالح اسماعيل بن نور الدين صاحب حلب) ولكنه لم يتمكن من إخضاع الموصل نهائياً إلا عام 578هـ = 1182م[26]. وهكذا استطاع صلاح الدين، باستيلائه على سوريا الداخلية، الشرقية والشمالية، حتى حلب ومنبج، أن يحاصر الممالك الصليبية القائمة على

---

(24) ابن الأثير، المصدر السابق، ج 11: 371 ـ 372 و392 ـ 393. وترى «دجاني ـ شيكل» ابن الأثير واحداً من المؤرخين الذين «حاولوا أن يعبروا عن ولاءاتهم الزنكية بتشويه أهداف صلاح الدين في كتاباتهم» (م. ن. ص 171).

(25) دجاني ـ شيكل، المرجع السابق، ص 190، عن البنداري وأبو شامة.

(25) مكرر ـ الصوري، المصدر السابق، ج 2: 978 ـ 979 و982 ـ 983 ولكن «رنسيمان» لم يذكر رواية الصوري عن اتفاق جرى بين صلاح الدين والكونت ريموند (رنسيمان، ج 2: 657).

(26) انظر لذلك: ابن الأثير، المصدر السابق، ج 11: 415 ـ 485. والصوري، المصدر السابق، ج 2: 978 ـ 983.

طول الساحل الشامي، بحيث لم يعد لهذه الممالك من منفذ سوى البحر غرباً وبلاد الروم شمالاً، فأضحت، كما أراد صلاح الدين لها أن تكون: بين فكي كماشة، أو داخل «كسارة بندق» يتلهى بسحقها الواحدة بعد الأخرى.

المرحلة الثالثة: استكمال الاستيلاء على شمال سوريا واستكمال عملية التطويق لمملكة بيت المقدس (استراتيجية المراحل):

كان صلاح الدين قد عاد إلى مركز الحكم في مصر للإعداد لتحرير القدس، فشكل جيشاً قوياً بلغ نحو 26 ألف مقاتل، وجهزاً تجهيزاً جيداً، ثم زحف بهذا الجيش مجتازاً «البراري الشاسعة الفاصلة بين مصر وفلسطين» حتى وصل إلى العريش، ومنها إلى غزة وعسقلان. ورغم أن صلاح الدين هزم، أمام عسقلان، هزيمة فادحة، في معركة «تل الصافي»[27]، في 25 ت 2/ نوفمبر 1177م (573هـ)[28]. ورغم أن الصليبيين عادوا ليحاصروا حماة، في العام نفسه، وفي العام الذي تلاه (574هـ = 1178م)، وبدأوا يشنون غارات على بلاد المسلمين في شمال سوريا وضواحي دمشق[29]، وأن «ابن المقدم» والي بعلبك من قبل صلاح الدين، قام بعصيان عليه، فإن ذلك لم يثبط من عزيمته، بل استعاد قوته للمواجهة، فوضع أمام عسقلان «قوة مشاغلة» وانطلق بباقي الجيش إلى دمشق، (عام 575هـ = 1178م) ومنها إلى بانياس، ثم انحاز غرباً إلى «قلعة شقيف

---

(27) الصوري، م. ن. ج 2: 998 ـ 1003، ويسمي «رنسيمان» هذه المعركة بمعركة «تل الجزر» (رنسيمان، المرجع السابق، ج 2: 671 ـ 673) بينما يسميها ابن الأثير «معركة الرملة» (المصادر السابق، ج 11: 442).

(28) رنسيمان، م. ن. ص. ن. ويذكر وليم الصوري أن صلاح الدين، عندما وصل إلى العريش «ترك جزءاً من الأمتعة الثقيلة وأثقال الجند، ثم أخذ معه الجند المسلحين تسليحاً خفيفاً وأكثر المحاربين ممارسة، ومر بقلعتي الداروم وغزة» ثم «ظهر فجأة أمام عسقلان» حيث أقام عليها الحصار. وبينما كان الصليبيون يدافعون عن المدينة المحاصرة، كانت فرقة من جيش صلاح الدين تنتشر في المناطق المجاورة لعسقلان فتحتل بعض المدن مثل الرملة واللد وتحرقها، مما أتاح للملك الصليبي الذي كان يدافع عن عسقلان أن يخرج منها لقتال صلاح الدين ويمنيه بهزيمة فادحة قبل أن يتسنى له جمع جيشه المنتشر في المنطقة كلها (الصوري، م. ن. ص 998 ـ 1003).

(29) ابن الأثير، المصدر السابق، ج 11: 450 ـ 453.

أرنون»، فحاصرها واحتلها، وتابع سيره إلى صيدا فاحتلها «بهجوم عاصف» في 20 آب/ اغسطس 1178م (575هـ)[30]. ثم شنّت قواته هجوماً من بانياس على طبرية، مما أثار الذعر في صفوف الصليبيين، فسارع بلدوين، ملك بيت المقدس، إلى عقد هدنة مع صلاح الدين لمدة سنتين «في البر والبحر على حد سواء» وذلك في أيار/ مايو عام 1180م (576هـ)، وبشروط يقول عنها «وليم الصوري» إنها «مذلة» للصليبيين. يقول وليم الصوري في ذلك: «كانت الشروط مذلة لنا إلى حد ما، حيث عقدت الهدنة بشروط متساوية ودون أية تحفظات مهمة من جانبنا، شيء يقال إنه لم يحدث من قبل»[31]. وقد استجاب صلاح الدين لطلب الملك الصليبي، وكان ذلك ضرباً من ضروب البراعة التي اشتهر بها، إذ إنه منع، بذلك، وصول أية مساعدة من ملك القدس إلى باقي حلفائه الصليبيين، مما أتاح لصلاح الدين استكمال الاستيلاء على شمال سوريا[32]. ثم ما لبث صلاح الدين أن انتقل بجيشه شمالاً لكي يهاجم إمارة طرابلس، فعسكر قرب المدينة، بينما كان أسطوله المبحر من جزيرة أرواد، والمؤلف من خمسين من الشواني، يجوب البحر وهو يرصد الساحل الشامي بغية قطع الإمدادات البحرية عن المدينة، ومحاصرتها بحراً، مما أثار الرعب في صفوف أهلها وحاميتها، فسعى كونت طرابلس عندها إلى عقد صلح معه، كذلك الذي عقده صلاح الدين مع ملك بيت المقدس في طبرية، وكان ذلك في العام نفسه (1180م)[33]. واغتنم صلاح الدين الفرصة، بعدها، فعاد من جديد، إلى مصر لكي يعدّ نفسه وجيشه لمرحلة جديدة من مراحل صراعه مع الصليبيين.

كيف كان الوضع العسكري لصلاح الدين في نهاية هذه المرحلة؟

يبدو أن صلاح الدين كان على قدر كبير من الفكر الاستراتيجي المتنور،

---

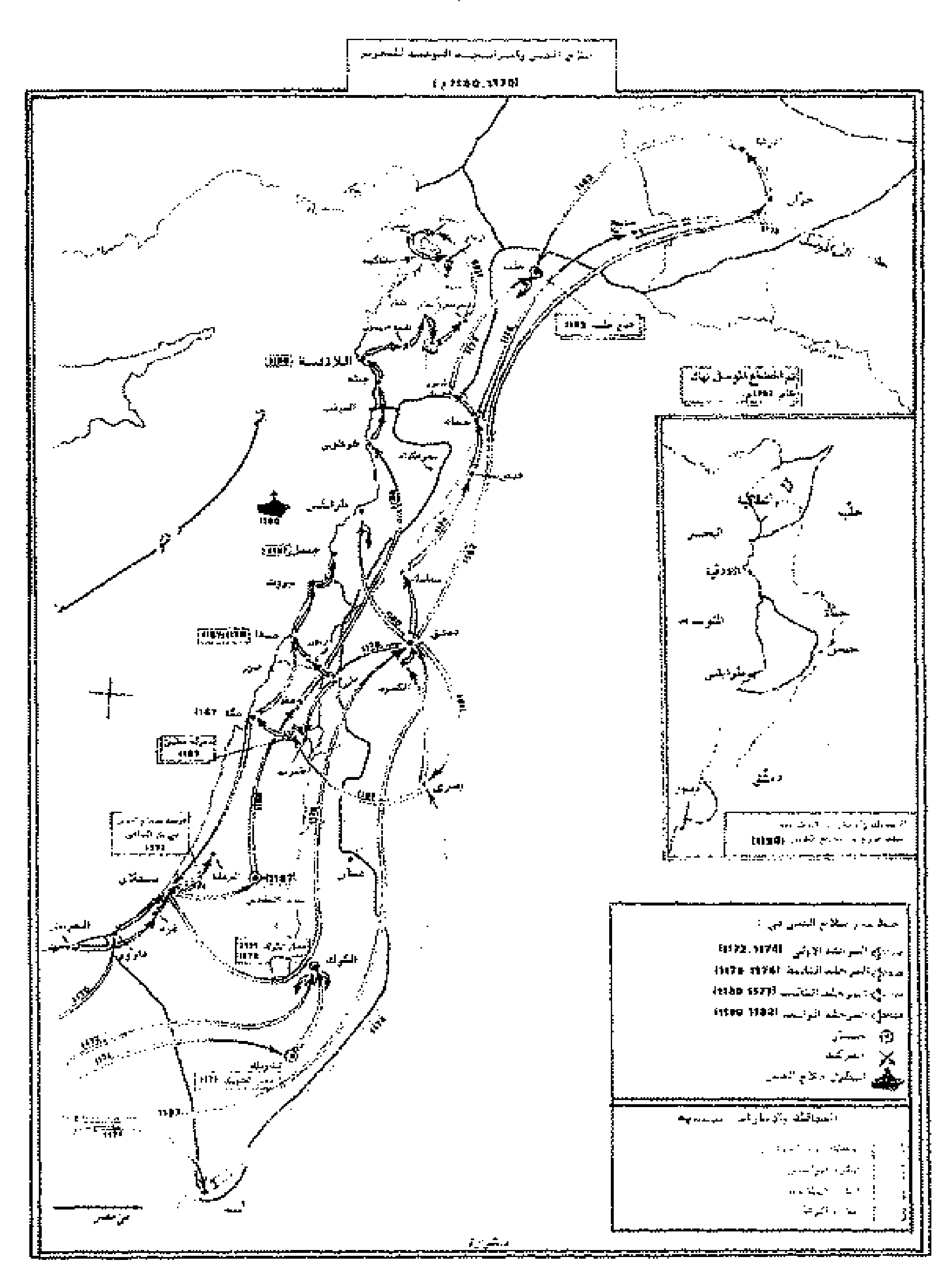
(30) الصوري، المصدر السابق، ج 2: 1011 ـ 1015، وابن الأثير، المصدر السابق، ج 11: 455.
(31) الصوري، المصدر السابق، ج 2: 1016 ـ 1017، ورنسيمان، المرجع السابق، ج 2: 679.
(32) يذكر ابن الأثير (المصدر السابق، ج 11: 464 ـ 466) أن صلاح الدين أرسل قوات كي تقاتل «قلج أرسلان» في قونية (عام 575هـ = 1179م) ثم سار إليه بنفسه في العام التالي (576هـ = 1180م) وبعد أن كان قد هادن الصليبيين، فصالحه قلج أرسلان، ولم تحدث بينهما حرب، إلا أن باقي المصادر لم تؤكد ذلك، كما أننا، بدورنا، نستبعده.
(33) الصوري، المصدر السابق، ج 2: 1018 ـ 1019، ورنسيمان، المرجع السابق، ج 2: 680.

ويظهر ذلك في استخدامه لما يمكن أن يسمى باستراتيجية «المناورة بالخطوط الداخلية»، حيث لم يكن يفتأ يناور العدو، مستغلاً الهدنة مع أحد أطرافه، لكي ينقضّ على الطرف الآخر، وهو ما فعله في هدنتيه مع كونت طرابلس ومع ملك بيت المقدس، كما يظهر من اختياره لشقيف أرنون وصيدا كهدفين للهجوم، إذ إنه اخترق، بذلك، المملكة الصليبية في طرفها الشمالي، ثم حصر بيت المقدس، وهي الهدف الرئيسي، بين ثلاثة محاور: محور دمشق ـ القدس، ومحور صيدا ـ القدس، ومحور عسقلان ـ القدس. وهو، إذ كان يسعى إلى توحيد بلاد الشام تحت سلطته، كان يسعى في الوقت نفسه، إلى تقطيع أوصال الدويلات الصليبية الممتدة على الساحل الشامي باختراقات أفقية (شرق ـ غرب) بحيث يتمكن من عزل بعضها عن بعض لكي يضربها واحدة بعد الأخرى، كما كان، في الوقت نفسه، يضيّق الخناق على القدس، هدفه الرئيسي. وهكذا نراه: (انظر الخارطة رقم 3).

- على الطرف الجنوبي لمملكة بيت المقدس: يخترق سيناء من العريش إلى الشوبك، فيفصل منطقة العقبة وخليجها عن باقي مناطق المملكة.
- على الطرف الشرقي والشمالي للمملكة: يحتل أطرافها، من الشوبك إلى ما يحاذي، غرباً، بصرى فدمشق، ثم يخترق الطرف الشمالي للمملكة اختراقاً أفقياً (شرق ـ غرب) من دمشق إلى بانياس فأرنون فصيدا، بحيث يفصل منطقة صيدا وما بعدها، شمالاً، عن جسم المملكة وعاصمتها.
- على الطرف الشرقي والشمالي لإمارة طرابلس: يحتل باقي سوريا حتى حدود حلب (التي لم يكن قد احتلها بعد)، مروراً بالجليل، ثم ينقض على إمارة طرابلس من دمشق، وبعدها (عام 1188) من حمص شرقاً، بعد أن كان قد أمّن حامياته المتمركزة في مختلف القلاع والمدن القائمة على حدود المملكة الصليبية، بهدنة مع بلدوين لمدة سنتين، مما اضطر كونت طرابلس للإسراع في عقد هدنة مماثلة معه.

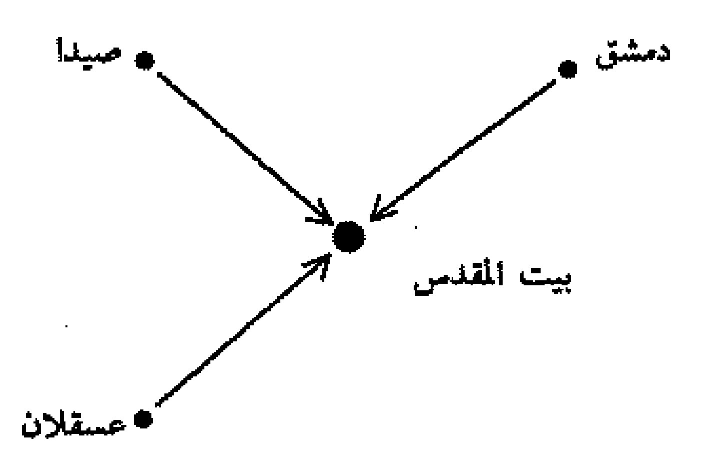
كان بوسع صلاح الدين، إذن، أن يرصد القدس من اتجاهات ثلاثة: من الشمال، على محور صيدا ـ القدس، ومن الشمال الشرقي، على محور دمشق ـ القدس، ومن الجنوب، على محور عسقلان ـ القدس، بينما يرصدها أسطوله

خارطة رقم (3)


حلب
حماة
حمص
دمشق
اللاذقية
طرابلس
بيروت
صيدا
عكا
عسقلان
الكرك

الذي كان قد أتى به من مصر، من البحر، من طرابلس وأرواد شمالاً حتى بيروت فعكا وحيفا وباقي الساحل الشامي جنوباً، لكي يمنع عنها الإمدادات، في الوقت المناسب، مما جعل المملكة الصليبية في حصار شبه كامل.

لقد نفذ صلاح الدين، بفطنة وذكاء، استراتيجية الحصار البعيد لهدفه الرئيسي، وهو القدس، ثم بدأ يقترب من هدفه شيئاً فشيئاً، على طريقة «المناورة بالخطوط المتقاربة» التي اتقنها صلاح الدين رغم أنها لم تكن معروفة في زمانه، والتي تتلخص بتحديد المحاور الهجومية التي تنطلق من نقاط متباعدة، لتلتقي في نقطة واحدة مركزية هي الهدف الرئيسي للهجوم.



المرحلة الرابعة: مرحلة الحسم (إنهاء الهدنة وقرار المعركة الحاسمة):

في العام 587هـ (1182م) أنهى صلاح الدين الهدنة التي كان قد عقدها مع ملك بيت المقدس عام 576هـ (1180م) لسنتين فقط، وكان قد قضاها في عاصمة ملكه بمصر حيث أخذ يعدّ جيشاً قادراً على خوض المعركة الحاسمة مع الصليبيين. ثم قرّر، بعدها، أن ينتقل، بجيشه هذا، إلى دمشق، حيث يكون أقرب إلى ساحة الصراع الفعلي مع الأعداء، فسار من مصر، عبر الصحراء، ولمدة عشرين يوماً، حتى وصل إلى منطقة الكرك في شرق الأردن، فعسكر بجيشه هناك. في هذا الوقت، كان الحكام الموالون لصلاح الدين، في المناطق المجاورة لدمشق وبصرى وبعلبك وحمص، يجتازون الأردن، بالقرب من بحيرة

طبرية، ويغيرون على معاقل الصليبيين عند سفوح جبل الطور، فيدمرون موقعاً حصيناً لهم في قرية تدعى «دبوريه»، ويعودون بالغنائم والأسرى.

أما صلاح الدين فإنه، بعد أن استراح جيشه في منطقة الكرك فترة من الزمن، وتزود بالمؤن اللازمة لرحلته، انتقل إلى «القريتين» (القرين) حيث تزود بالماء، ثم تابع سيره حتى وصل إلى دمشق دون صعوبات تذكر[33 مكرر]. ومن دمشق بدأ صلاح الدين يقاتل الصليبيين في كل اتجاه، وفي كل موقع، فينتصر عليهم حيناً وينهزم حيناً آخر.

ولكن صلاح الدين كان يفكر، في هذه الأثناء، بخطة مختلفة تماماً عن تلك التي ينفذها، إذ إنه ما عتم أن فاجأ الصليبيين «بهجوم عاصف على حرّان والرها» فاحتلهما «في غضون أيام قليلة. . . مع عدد كبير من المدن الأخرى، ومع قراها التابعة لها» وذلك بعد أن عبر الفرات ودخل بلاد الجزيرة مخلفاً وراءه حلب وكل بلاد الشام، فإذا بمنطقة الموصل، بكاملها، تصبح تحت سلطته (عام 1182م)[34]، ثم ما لبث أن ارتد على حلب فحاصرها واحتلها، وذلك في 7 حزيران/ يونيو عام 1183م (579هـ)[35]، موحداً، بذلك، بلاد الشام تحت سلطته، ومحاصراً الصليبيين من الرها وأنطاكية شمالاً إلى دمشق شرقاً فعسقلان وغزة جنوباً، حيث لم يبق أمامهم سوى منفذ ضيق نحو أرمينية وبلاد الروم شمالاً. وأما البحر فلم يكن آمناً تماماً بسبب سيطرة أسطول صلاح الدين عليه.

ومنذ عام 579هـ (1183م) حتى عام 583هـ (1187م)، عام سقوط القدس، لم يهدأ صلاح الدين ولم يستكن، فقد كان متحركاً في كل اتجاه، إلا أنه كان يحرص، في تحركاته هذه، على أقصى درجات السرية لكي يؤمّن أكبر قدر من المفاجأة، وهو ما اشتهر به في حروبه مع الصليبيين الذين شغلتهم سرعة تحركاته وسريتها، والمناورات المفاجئة التي كان يقوم بها، ويشهد على ذلك شاهد عيان منهم، هو المؤرخ وليم الصوري، الذي بلغ، في وصفه للتحركات المفاجئة

(33 مكرر) الصوري، م. ن. ج 2: 1036 ـ 1041.

(34) الصوري، م. ن. ج 2: 1048 ـ 1049.

(35) م. ن. ص 1058، وانظر: رنسيمان، ج 2: 703 (12 حزيران 1183) والروضتين للمقدسي الشافعي، ج 2: 42 (13 محرم 579هـ ، الموافق لشهر أيار 1183م).

لصلاح الدين، حداً يجعل القارىء يحس بمدى الخوف والقلق اللذين كان يحدثهما، لدى الصليبيين، تحركه هذا، فقد كان يتنقل بجيشه بشكل سريع ومفاجىء بحيث يصعب على أعدائه توقع المكان الذي سوف يظهر فيه، مما جعلهم عاجزين عن اكتشاف نواياه وتحديد الاتجاه الذي سوف يهاجمهم منه. يقول الصوري في ذلك: «كان من المستحيل الحصول على معلومات محددة، عن طريق الكشافة، بخصوص هدفه الحقيقي» بحيث أبقت «التخمينات المتنوعة، والتي كانت جميعها غامضة، الملك والنبلاء في حالة قلق وترقب دائمين»، وكان هؤلاء يتوقعون «من يوم لآخر، أن صلاح الدين سوف يغزو، فجأة، منطقة من مناطق المملكة بقوات قوية فوق العادة»[36].

إلا أن صلاح الدين لم يلبث أن قرّر خوض المعركة الحاسمة ضد الصليبيين، واختار موقع هذه المعركة فكان سهل حطين، غرب بحيرة طبرية، واختار زمانها فكان يوم 4 تموز/ يوليو عام 1187م (24 ربيع الثاني عام 583هـ) حيث هزم الصليبيين فيها هزيمة نكراء. ثم قاتلهم في طبرية وعكا فاستولى عليهما، وأقام في عكا، بينما أرسل وحدات من جيشه، في اتجاهات مختلفة، شمالاً وجنوباً وشرقاً، فأرسل وحدة باتجاه الشمال لاحتلال الجليل، وأخرى باتجاه الجنوب لاحتلال الساحل بين حيفا ويافا، وثالثة باتجاه الشرق والجنوب الشرقي لاحتلال صفورية والناصرة والفولة وسبسطية حتى نابلس، وما أن تم له تأمين مؤخرته جنوباً وميمنته شرقاً، حتى بدأ يعدّ العدّة لاستكمال فتوحه باتجاه الساحل الشامي شمالاً[37].

وكان صلاح الدين، لما هزم الفرنجة في حطين، قد أرسل إلى أخيه الملك العادل، وكان قد أنابه على مصر، أن ينتقل بجيشه إلى بلاد الشام، عن طريق الساحل شمالاً، فيلاقيه لاستكمال فتح هذه البلاد، فخرج العادل من مصر إلى مجدليانة (المجدل) ففتحها، ثم تابع تقدمه، مجتازاً غزة إلى عسقلان، حيث عسكر بجوارها استعداداً لمحاصرتها.

---

(36) الصوري، م. ن. ص 1058 ـ 1059.

(37) ابن الأثير، المصدر السابق، ج 11: 540، ورنسيمان: المرجع السابق، ج 2: 744 ـ 745، وانظر: الحياري، مصطفى، في كتاب «يوم القدس» ص 85، بعنوان «تحرير القدس 1187م، عبرة من الوحدة في الماضي».

وعاد صلاح الدين ليتابع، بعد ذلك، تقدمه شمالاً، ففتح تبنين وصيدا وبيروت، وكان قد أسر صاحب جبيل فساومه هذا الأخير على تسليمه المدينة بلا قتال شرط إطلاق سراحه فكان له ذلك، ودخل صلاح الدين جبيل سلماً، ثم عاد أدراجه جنوباً نحو صور، وكانت منيعة، فجاوزها إلى عسقلان، وكان أخوه الملك العادل قد سار من مصر لملاقاته، كما أسلفنا، فالتقيا على أبواب عسقلان حيث حاصراها. وكانت المدن والقلاع والقرى تسقط بيد صلاح الدين كما تسقط الثمرات اليانعة «ولم ينقض شهر أغسطس/ آب سنة 1187م (583هـ) حتى لم يبق للمسيحيين (الصليبيين) جنوب طرابلس سوى صور وعسقلان وغزة وبضع قلاع معزولة، ثم المدينة المقدسة، بيت المقدس»، وفي 4 أيلول/ سبتمبر من العام نفسه (1187م) سقطت عسقلان، واستسلمت بعدها بأيام حامية حصن غزة[38]. ومن عسقلان حيث أقام، بثَّ صلاح الدين سراياه «في أطراف البلاد المجاورة» ففتحت جيوشه «الرملة والداروم. . . ومشهد ابراهيم الخليل (عليه السلام) ويُبنى وبيت لحم وبيت جبريل والنطرون وكل ما كان للداوية»[39]. وما فتئت جيوش صلاح الدين أن أضحت على أبواب المدينة المقدسة، العاصمة الروحية للصليبيين، والهدف الرئيسي للقائد المظفر صلاح الدين.

3 ـ التحرير
(الجمعة في 27 رجب 583هـ = 2 ت 1/ اكتوبر 1187م):

تعتبر «حطين» المعركة الحاسمة في تاريخ الحرب الإسلامية ـ الصليبية، إذ «فقدت مملكة بيت المقدس قواتها العسكرية الرئيسية في هذه المعركة» كما «تم تدمير أكبر جيش صليبي أمكن جمعه منذ قيام الكيان الصليبي»، وأضحى القائد المنتصر، في هذه المعركة، على الصليبيين «صاحب السيادة على العالم الإسلامي بأسره»[40].

---

(38) ابن الأثير، م. ن. ص 538 ـ 546.

(39) رنسيمان، المرجع السابق، ج 2: 746 ـ 747، وانظر ابن الأثير، المصدر السابق، ج 11: 541 ـ 546.

(40) قاسم، المرجع السابق، ص 143.

بعد حطين، لم يعد للصليبيين، في المملكة المقدسة خصوصاً، قوة يتباهون بها، لذا، ما إن استسلمت عسقلان وغزة لصلاح الدين في أيلول/ سبتمبر من العام نفسه، حتى قرر صلاح الدين أن ينطلق بجيشه (الذي أعاد جمعه من كل المنطقة في جنوب فلسطين، حيث كان قد نشره منذ سنوات)، ليستكمل توحيد بلاد الشام. وما إن اتجه بهذا الجيش شمالاً، نحو القدس، لفتحها عنوة وبالسيف (وكان قد أقسم على ذلك أمام وفد من المدينة جاءه إلى عسقلان لكي يفاوضه ولكنه عاد بعد أن رفض شروط صلاح الدين)[41]، حتى بدأت مدينة القدس تستعد لمقارعة القائد المسلم الذي جاء يتحدى مناعتها وجبروتها، بعد ثمانية وثمانين عاماً من احتلال الصليبيين لها.

وكان «باليان الثاني دييلان» أو «باليان بن بيرزان» أو «باليان ابلين» صاحب الرملة، وأحد القادة الصليبيين الذين لجأوا إلى صور، قد طلب من صلاح الدين السماح له بدخول القدس لكي يصطحب زوجته «الملكة ماريا» وأولاده الذين لجأوا إليها من نابلس، فسمح له صلاح الدين بذلك شرط أن لا يمكث بها سوى ليلة واحدة وأن لا يصطحب سلاحاً، فوافق. ولكن ما أن دخل باليان المدينة المقدسة، وكان فيها البطريرك هرقل، حتى اضطر للبقاء فيها تحت ضغط المسيحيين الفرنجة الذين التمسوا إليه أن يقودهم في الدفاع عن المدينة، غير أنه لم يرض أن ينكث بوعده لصلاح الدين فكتب إليه يستأذنه فأذن له صلاح الدين بذلك، بل إن صلاح الدين أرسل حرساً من عنده لمرافقة زوجته وأولادها، مع حاشيتها ومتاعها، إلى صور[42].

وجدير بالذكر أن المسيحيين الوطنيين التابعين للكنيسة الأرثوذكسية لم يكونوا منسجمين مع أبناء دينهم من أتباع الكنيسة اللاتينية من الصليبيين بسبب التفاوت الواضح بين الكنيستين بالإضافة إلى انتمائهم العربي والمشرقي، إذ كان «لزاماً على المسيحيين الوطنيين أن يشهدوا طقوساً كانت لغتها وشعائرها غريبة عنهم،

---

(41) رنسيمان، المرجع السابق، ج 2: 748.

(42) م. ن. ص 748 ـ 749، وابن الأثير، المصدر السابق، ج 11: 546. وكانت «ماريا» زوجة للملك آموري الأول. وقد تزوجت من «باليان» بعد وفاة زوجها الأول. ويذكر «غروسيه» أن حرس صلاح الدين رافق الملكة من أبواب القدس حتى طرابلس (Grousset, Op. Cit., V. 2, p. 809) إلا أننا نميل إلى الأخذ برأي رنسيمان.

فتطلعوا بشغف إلى الأيام التي كان بوسعهم، زمن الحكام المسلمين، أن يباشروا (يمارسوا) عبادتهم كيفما شاؤوا»[43]. وكان هذا التفاوت في الطقوس مؤثراً إلى درجة أنه فرض تفاوتاً في المشاعر، تجاه المسلمين، بين هؤلاء المسيحيين الوطنيين (العرب) وبين المسيحيين اللاتينيين (الفرنجة)، مما حدا بعالم مسيحي أرثوذكسي، من مدينة القدس، يدعى «يوسف بابيط»، لأن يرتضي أن يكون مستشاراً لصلاح الدين في أمور أبناء طائفته من المسيحيين العرب الأرثوذكس. وقد استطاع صلاح الدين، بفضل هذا العالم «الاتصال بالجماعات الأرثوذكسية، في داخل المدينة، فوعدوا بفتح أبواب المدينة لصلاح الدين»[44]. ويتهم «غروسيه» المسيحيين الوطنيين «الروم الملكيين» بالتآمر على «الكاثوليك اللاتين» وتفضيلهم للمسلمين على الفرنجة بسبب الخلاف القائم بينهم وبين اللاتين حول كنيسة القيامة، ويستشهد بنص من كتاب لرينو (Reinaud) عن بطاركة الاسكندرية في «نبذة عن المؤرخين العرب» فيذكر أن «القسم الأكبر من شعب القدس، يتألف من مسيحيين روم ملكيين يضمرون حقداً مميتاً للمسيحيين اللاتين»، ثم يذكر قصة «يوسف بانيط» (كما يسميه) الذي اتخذه صلاح الدين مستشاراً له كما سبق أن ذكرنا، وأن يوسف هذا أقنع «ملكيي» القدس بأن يفتحوا أبواب المدينة للمسلمين[45].

قبل أن يغادر صلاح الدين، بجيشه، عسقلان، متجهاً إلى القدس، أرسل إلى أسطوله في مصر، وكان عليه «حسام الدين لؤلؤ الحاجب»، يأمره بأن يتجه صوب السواحل الشامية بمهمة اعتراضية لكل السفن الفرنجية التي يمكن أن تتجه نحو المدينة المقدسة حاملة مساعدات من أي نوع كان، وما أن وصل الأسطول إلى عرض البحر، مقابل القدس، وبدأ بتنفيذ مهمته، حتى سار صلاح الدين، بجيشه، من عسقلان إلى القدس، فبلغها في 20 أيلول/ سبتمبر 1187م (15 رجب 583هـ) حيث عسكر أمامها، وبدأ يستعد لحصارها وقتالها[46].

---

(43) رنسيمان، م. ن. ص 751.

(44) م. ن. ص. ن.

(45) Grousset, Op. Cit., V. 2, pp. 811-812.

(46) ابن الأثير، المصدر السابق، ج 11: 546. ورنسيمان، المرجع السابق، ج 2: 749، وأبو شامة، كتاب الروضتين، ج 2: 92.

أ ـ الاستعداد للقتال:

ـ الصليبيون:

كان عدد المقاتلين الصليبيين في القدس «يزيد على ستين ألفاً» من الخيالة والرجّالة «عدا النساء والصبيان» بحسبما ذكر «أبو شامة» في «كتاب الروضتين»[47]. ويبدو أن عدد سكان المدينة، وبالتالي عدد المقاتلين فيها، قد ازداد بسبب توافد اللاجئين إليها من المدن والقرى الفلسطينية المجاورة، والتي تعرضت للأخطار خلال الحرب الإسلامية الصليبية. ويذكر «رنسيمان» أن معظم هؤلاء اللاجئين لم يكن يتقن فن القتال، وكان الرجال فيهم قلة ضئيلة إذ كان مقابل كل رجل «خمسون امرأة وطفل»، ولم يكن في المدينة سوى «فارسين اثنين» مما حدا بباليان إلى أن «ينصّب فارساً، كل صبي تجاوز السادسة عشر من عمره، وانحدر من أسرة نبيلة»، ثم جنّد كل الذكور الذين بلغوا هذه السن، ووزع الأسلحة على كل «من استطاع أن يحمل السلاح»[48]، ونشر المقاتلين على الأسوار وفي الحصون، ونصب المجانيق، وحفر الخنادق. يقول أبو شامة، في ذلك: «ونصبوا (الصليبيون) على كل نيِّق منجنيقاً، وحفروا في الخندق حفراً عميقاً، وشادوا في كل جانب ركناً وثيقاً، وفرّقوا على كل برج فريقاً»[49]. إلا أن ابن الأثير يخالف «رنسيمان» في عدد الفرسان الذين كانوا في القدس قبل تجنيد الصبية النبلاء وتنصيبهم فرساناً، فيذكر أنه كان في القدس «من خَلُص» من فرسان الصليبيين «من حطين»، وأن خلقاً كبيراً اجتمعوا في المدينة، من «أهل تلك النواحي، عسقلان وغيرها»، وقد صعد الجميع على الأسوار «بحدّهم وحديدهم» حيث «نصبوا المجانيق» وحصّنوا تلك الأسوار «بما وجدوا إليه سبيلاً»[50].

---

(47) أبو شامة، المصدر السابق، ج 2: 92. وانظر الرقم نفسه في: الأصفهاني، العماد الكاتب، الفتح القسي في الفتح القدسي، ص 124.

(48) رنسيمان، المرجع السابق، ج 2: 749. وينسب «غروسيه» إلى البطريرك هرقل القول إنه يوجد، في القدس، رجل واحد مقابل خمسين امرأة وطفلاً (Grousset, Op. Cit., p. 811).

(49) أبو شامة، المصدر السابق، ج 2: 93، والنيق: أرفع موضع في الجبل، وهنا: أرفع موقع في السور.

(50) ابن الأثير، المصدر السابق، ج 1: 547، وانظر الأصفهاني، المصدر السابق، ص 119.

ـ المسلمون:

لم يذكر المؤرخون عدد جيش صلاح الدين الذي خاض معركة القدس ضد الصليبيين، ولكن ما من شك في أنه كان جيشاً كبيراً، إذ إن صلاح الدين كان قد جمع كل جيشه الذي سبق أن وزعه في عسقلان والشوبك وحصن داروم وغزة وغيرها من المناطق التي سبق أن احتلها في جنوب فلسطين، بالإضافة إلى جيش مصر الذي أتى به أخوه الملك العادل، كما أن أسطوله حاصر الساحل الفلسطيني قبالة القدس. ثم إن مهمة جيوشه التي كانت منتشرة في شمال سوريا وشرقها كانت منع وصول أي مدد من الممالك والإمارات الصليبية إلى بيت المقدس. إلا أنه لا بد من الإشارة إلى أن جيش صلاح الدين الذي سبق أن انتصر في حطين كان يعد 25 ألف مقاتل (12 ألف فارس و13 ألف راجل)[51] وهذا هو الحد الأدنى من عديد الجيش الذي يمكن القول إن صلاح الدين قد حشده لتحرير القدس.

وصل صلاح الدين إلى أسوار القدس يوم الأحد في 15 رجب عام 583هـ (20 أيلول/ سبتمبر 1178م) كما أسلفنا، فأمر أخاه الملك العادل أن ينزل، بجيشه، في الجهة الجنوبية من السور، عند جبل صهيون، بينما نزل هو «بالجانب الغربي من السور الذي كان مشحوناً بالمقاتلة من الخيالة والرجّالة»[52]، وبقي في مواقعه تلك خمسة أيام يهاجم السور وتحصينات العدو، ويبدو أنه كان يهدف، من تحركاته العسكرية في تلك الأيام الخمسة، الى استكشاف القوة العسكرية الدفاعية للعدو وكيفية توزيعها على الأسوار، ثم التعرف إلى مواقع الضعف والخلل سواء في الجهاز الدفاعي للعدو أم في الأسوار والتحصينات نفسها. ولا شك في أنه كان يهدف من تمركزه في الجانب الغربي للسور، طيلة تلك الأيام الخمسة، الى تضليل العدو وإيهامه بأن الهجوم الرئيسي على المدينة سوف يشن من تلك الناحية، لكي يفاجئه، فيما بعد، بالهجوم المباغت من مواقع أخرى ومن ناحية أخرى، حيث يكون العدو قد نقل معظم قواته إلى الجهة التي يظن أن الهجوم سوف ينطلق منها (ولا نوافق رنسيمان على أن سبب تغيير

---

(51) عبد الحميد، صبحي، معارك العرب الحاسمة، ص 177.

(52) أبو شامة، المصدر السابق، ج 2: 92. وانظر: الخياري، المرجع السابق، ص 86 ـ 87.

صلاح الدين لمواقعه حول السور من الجانب الغربي إلى الجانب الشمالي هو تسلط أشعة الشمس على عيون عساكره[53]، إذ كان عليه أن يكتشف ذلك منذ اليوم الأول فيغير مواقعه تبعاً لذلك ولا ينتظر طيلة أيام خمسة). ويؤكد ابن الأثير وجهة نظرنا إذ يقول: «بقي صلاح الدين خمسة أيام يطوف حول المدينة لينظر من أين يقاتله (السور)، لأنه في غاية الحصانة والامتناع، فلم يجد عليه موضع قتال إلا من جهة الشمال»[54].

بعد هذه الفترة، قرر صلاح الدين الانتقال بجيشه إلى الجانب الشمالي من السور، إلى سهل الساهرة، عند باب العمود، حيث «نصب، تلك الليلة، المجانيق، فأصبح من الغد وقد فرغ من نصبها، ورمى بها»، وكان ذلك «يوم الجمعة» في «العشرين من رجب»[55]، (25 أيلول)، بينما أمر أخاه بالبقاء في مواقعه بغية تشتيت جهد المدافعين الذين سيضطرون للرد على ضربات المحاصِرين من عدة مواقع. ويؤكد كلام ابن الأثير هذا ما سبق أن ذكرناه من أن صلاح الدين كان يرغب في تأمين عنصر المفاجأة عندما نقل جيشه من الجانب الغربي إلى الجانب الشمالي من السور، ونصب المجانيق وأعدها للرمي، «فأصبح الغد وقد فرغ من نصبها ورمى بها»، كما يؤكد ذلك قول «رنسيمان» نفسه إن المدافعين اعتقدوا، للوهلة الأولى، أن صلاح الدين قد رفع الحصار عن المدينة، إلا أنهم فوجئوا به «صبيحة يوم 26 أيلول/ سبتمبر 1187م» وقد اتخذ جيشه مواقع جديدة له «على جبل الزيتون»، ثم «أخذ النقّابون، في حراسة فرسانه، ينقبون السور الواقع قرب باب العمود»[56].

ويحاول المؤرخ «غروسيه» كذلك أن يعتبر فشل صلاح الدين في الهجوم الذي شنّه على السور، في الأيام الأولى لتمركزه، سبباً رئيسياً في نقل جهده العسكري من الجانب الغربي، حيث كان قد تمركز ما بين العمود (باب القديس اسطفان) وحصن داود (القلعة)، إلى الجانب الشمالي من باب العمود حتى باب يهوشافاط

---

(53) رنسيمان، المرجع السابق، ج 2: 749 ـ 750.
(54) ابن الأثير، المصدر السابق، ج 11: 547.
(55) م. ن. ص. ن. وأبو شامة، المصدر السابق، ج 2: 92.
(56) رنسيمان، المرجع السابق، ج 2: 750.

(باب ستي مريم) نحو جبل الزيتون، إذ يقول: «وصل صلاح الدين أمام القدس في 20 أيلول 1187م، وجرب هجوماً من الجهة الشمالية ـ الغربية بين الباب القديم، باب القديس اسطفان (باب العمود) وحصن داود (القلعة)، ولكنه فشل. وفي 25 أيلول نقل جهده ضد القطاع الشمالي بين باب القديس اسطفان وباب يهوشافاط (باب ستي مريم) نحو جبل الزيتون»[57]، إلا أننا لا نجاريه في هذا الاعتبار، لأنه، لو كان الأمر كذلك، لما انتظر صلاح الدين أياماً لكي ينقل جهده العسكري من الغرب إلى الشمال.

ب ـ الحصار والقتال:

كان الصليبيون قد بدأوا القتال قبل تمركز جيش المسلمين حول أسوار المدينة، أي قبل 20 أيلول، وذلك عندما تقدمت مفرزة من طليعة الجيش الإسلامي نحو الأسوار بقيادة الأمير جمال الدين شروين بن حسن الزرازي، فخرجت إليها مفرزة من حامية المدينة فقاتلتها وهزمتها وقتلت أميرها[58]، وقد حدث هذا قبل أن يتمركز صلاح الدين بجيشه في الجانب الغربي من السور.

ومهما يكن من أمر، فقد بدأ صلاح الدين قتاله الفعلي ضد العدو المتحصن داخل أسوار المدينة في صباح 26 أيلول/ سبتمبر 1187م (21 رجب 583هـ)، فتقدم بجيشه نحو الأسوار بغطاء كثيف من المدفعية التي كانت سائدة في ذلك العصر (وهي المجانيق)، وكان عددها 12 منجنيقاً كبيراً ترمي الحجارة الكبيرة، وتقدم، تحت هذا الغطاء أيضاً، النقّابون الذين بدأوا ينقبون في السور «مما يلي وادي جهنم في قرنة شمالية»[59].

ودار القتال عنيفاً بين الفريقين: حامية المدينة تحاول أن تنال من المسلمين،

---

(57) Grousset, Op. Cit., V. 2, p. 810.

(58) ابن الأثير، المصدر السابق، ج 1: 547 وأبو شامة، المصدر السابق، ج 2: 92. وانظر: Grousset, Op. Cit., V. 2, p. 810. ويعتبر كل من ابن الأثير وأبو شامة أن الأمير جمال الدين خرج للقاء العدو «غير محتاط ولا حذر» وأنه «تقدم وما تحرّز وما تحزّم»، (ابن الأثير، م. ن. ص. ن. وأبو شامة، م. ن. ص. ن).

(59) الحياري، المرجع السابق، ص 87 (نقلاً عن ابن شداد).

وتوقف تقدمهم، بسهامها ونبالها، ومجانيقها، من على الأسوار، ومن التحصينات، وهي تقاتل بعنف وضراوة لا مثيل لهما، بينما كان فرسانها يخرجون «إلى ظاهر البلد، يقاتلون ويبارزون»، إلا أن ذلك لم يكن ليثني المسلمين عن تقدمهم ونقبهم للأسوار وتدميرها وتدمير التحصينات العدوة بمجانيقهم. وقد قتل، في هذه المعركة، من الفريقين، الكثير، وممن قتل من المسلمين «الأمير عز الدين عيسى بن مالك» وكان والده «صاحب قلعة جعبر»[60].

واستمر القتال عنيفاً، بعد ذلك، خصوصاً وأن المسلمين، وقد هالهم مصرع الأمير عز الدين، لم يعودوا يرضون بغير الانتصار، وهزيمة الأعداء، بديلاً. ويصف «غروسيه» المعركة التي دارت عند أسوار المدينة بأنها كانت، من الضراوة، «ما لم يسمع بمثله»، كما كانت «عطشاً حقيقياً للشهادة»، وهو يستطرد: لقد كانت: «المعارك الأكثر ضراوة، كما لم يشهده إنسان، فكل رجل من الجيشين كان ينظر إلى الصراع كفعل ديني والتزام حتمي»[61]. كما يصف «غروسيه» كذلك، قتال الصليبيين الذين «كانوا يخرجون كل يوم، للقتال، إما كمجموعة، أو فرادى»، بأنهم «قاوموا آلات الحرب العائدة لصلاح الدين بعزم لم يكن منتظراً من قبل هذه العناصر المدنية»[62]. وهو، إذ يذكر أن «جميع هجمات المسلمين فشلت، ومنوا بالخسائر»، يحاول أن يبرز خسارة الصليبيين وهزيمتهم في هذه المعركة بأنه «كان لدى صلاح الدين تفوق في المدفعية إلى درجة أن سقوط المدينة كان حتمياً، وأن النقّابين العاملين تحت غطاء من حجارة المجانيق نجحوا في فتح ثغرة في جدار السور»[63].

وقرر الفرسان والنبلاء الصليبيون القيام بهجوم ردي انتحاري على المسلمين، خارج الأسوار، إلا أن بطريركهم «هرقل» ردعهم عن ذلك بعد أن أقنعهم أن

---

(60) ابن الأثير، م. ن. ص: 547 ـ 548، وأبو شامة، م. ن. ص 92 ـ 93. ورنسيمان، المرجع السابق، ج 2: 750 و Grousset, Op. Cit., V. 2, p. 810. وجعبر: قلعة كانت على الفرات بين بالس والرقة، قرب صفين، وكانت تسمى قديماً (دوسر)، ثم ملكها جعبر بن مالك فسميت (جعبر)، (معجم البلدان).

(61) Grousset, Op. Cit., V. 2. p. 810.

(62) Ibid.

(63) Ibid., pp. 810-811.

«عملهم البطولي» هذا لن تكون نتيجته سوى «التخلي عن النساء والأطفال، للعدو، بلا دفاع» وأن المسلمين سوف «يتجنبون قتلهم، ولكنهم سوف يجبرونهم على اعتناق الإسلام». وقد قدّر البطريرك نفسه أنه يوجد، في القدس «منذ استسلام الصليبيين في حطين، خمسون امرأة أو طفلاً، لكل رجل واحد»[64]. فهل كان البطريرك هرقل جاهلاً، حقيقة، لتعاليم الإسلام التي تمنع المسلمين من إكراه غير المسلمين، من أهل الكتاب، على اتباع دينهم؟

بعد هذا القتال العنيف قرر صلاح الدين أن يشن هجوماً حاسماً على العدو المتمركز على السور وفي التحصينات، مستغلاً غضب المسلمين لمقتل أحد أمرائهم «عز الدين عيسى بن مالك» من جهة، ونجاح النقابين في الوصول إلى السور والعمل لاختراقه من جهة أخرى، فكثف رمايات المجانيق، مغطياً تقدم المهاجين بحجارتها، وبسيل من السهام والنبال يطلقها الرماة نحو المدافعين عن السور والحصون لكي تشل مقاومتهم، مما جعل أولئك المدافعين يتراجعون عن مراكزهم، بينما تقدم المسلمون واجتازوا الخندق الخارجي المحفور حول السور ثم التصقوا بالسور وعملوا به نقباً وتهديماً. واشتد قصف المجانيق وتوالى رمي السهام والنبال من الرماة المتقدمين خلف المهاجين يحمونهم، ونجح المهاجون في فتح ثغرات عديدة في السور الذي أوشك أن يصبح ملكاً للمهاجين. وفي وقت ما من تاريخ 29 أيلول/ سبتمبر (1187)، استطاع المهاجون فتح «ثغرة كبيرة» في السور نفذ منها المسلمون ورفعوا راياتهم عليه، إلا أن المدافعين ما لبثوا أن احتشدوا وردوا المسلمين عن السور[65]. ورغم ذلك، فقد أيقن المدافعون أن لا جدوى من دفاعهم، وأنهم مشرفون على الهلاك، بل إنهم هالكون حتماً إن هم استمروا في عنادهم، فاجتمع قادتهم وقرروا، بعد نقاش طويل، أن يطلبوا من صلاح الدين الأمان، وأن يفاوضوه على تسليم المدينة، وأرسلوا لهذا الغرض «جماعة من كبرائهم وأعيانهم»[66]. (انظر الخارطة رقم 4).

---

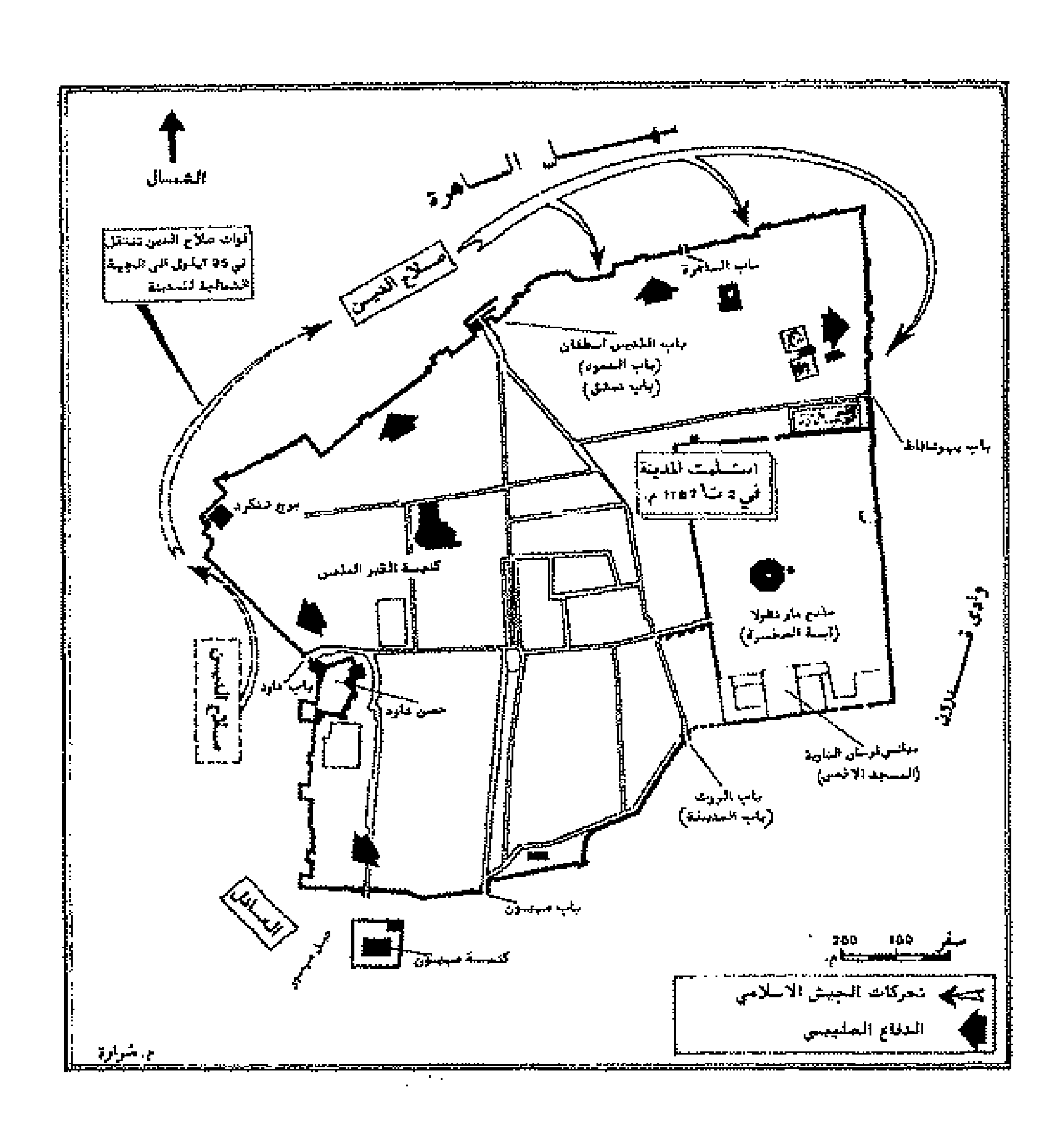
(64) Ibid., p. 811.

(65) رنسيمان، المرجع السابق، ص [illegible]، وانظر: الحياري، المرجع السابق، ص 88 (عن العماد الأصفهاني).

(66) ابن الأثير، المصدر السابق، ج 11: 548، وأبو شامة، المرجع السابق، ج 2: 94.

خارطة رقم (4)

حصار صلاح الدين للقدس
(1187 م)



ج ـ المفاوضات، وتسليم القدس إلى صلاح الدين
(يوم الجمعة في 27 رجب 583هـ ـ 2 ت 1/ اكتوبر 1187م):

شكّل الصليبيون المحاصَرون في القدس، إذن، وفداً من «كبرائهم وأعيانهم» وقصدوا صلاح الدين لمفاوضته بشأن طلب الأمان وتسليم المدينة، ولكن صلاح الدين، وقد استذكر ما فعله الصليبيون بالمسلمين، مقاتلين وشيوخاً ونساء وأطفالاً، إذ أبادوهم عن بكرة أبيهم، يوم احتلوا القدس، منذ ثمانية وثمانين عاماً (1099م)، رفض إجابتهم إلى طلبهم، وقال: «لا أفعل بكم إلا ما فعلتم بأهله (أي القدس) حين ملكتموه سنة إحدى وتسعين وأربعمائة (هجرية) من القتل والسبي، وجزاء السيئة بمثلها»[67]، فعاد الرسل إلى المدينة خائبين، وعندها قرر قائدهم باليان التوجه بنفسه للتفاوض مع صلاح الدين.

والتقى باليان بصلاح الدين في خيمته، وعرض باليان على القائد المسلم تسليم المدينة شرط «خروج حر للمدافعين عنها»[68]، فأجابه صلاح الدين أنه أقسم ليفتحن المدينة عنوة وبالسيف، ولن يحلّه من قسمه سوى استسلامها له بلا قيد أو شرط، ورفض أن يعطي باليان ما طلبه، لأهله وللمدافعين عن المدينة، من أمان[69]، مذكراً القائد الصليبي «بما ارتكبه الصليبيون، سنة 1099م من المذابح»[70]. وحدث أنه، في أثناء التفاوض بين القائدين، اندلع قتال شديد على السور بين المهاجمين والمدافعين، استطاع خلاله، المهاجمون أن يرفعوا راياتهم فوق السور ولكنهم ارتدوا عنه لشراسة المقاومة، وكان خبر القتال قد وصل إلى صلاح الدين وهو مجتمع بباليان، فأخبر صلاح الدين باليان «أن لواءه قد ارتفع على سور المدينة»[71]، مما حدا بباليان إلى أن يطرح آخر ما لديه من حلول يائسة في مفاوضات صعبة مع قائد شديد المراس ومنتصر لا محالة، فقال لصلاح الدين: «أيها السلطان، اعلم أننا، في هذه المدينة، في خلق كبير لا يعلمهم إلا الله

---

(67) ابن الأثير، م. ن. ص 548، وأبو شامة، م. ن. ج 2: 94 ـ 95، والصحيح، 492هـ.
(68) Grousset, Op. Cit., V. 2, p. 812.
(69) ابن الأثير، المصدر السابق، ج 11: 548.
(70) رنسيمان، المرجع السابق، ج 2: 751.
(71) م. ن.ص. ن.

تعالى، وإنما يفترون عن القتال رجاء الأمان، ظناً منهم أنك تجيبهم إليه كما أجبت غيرهم، وهم يكرهون الموت ويرغبون في الحياة، فإذا رأينا أن الموت لا بد منه، فوالله لنقتلن أبناءنا ونساءنا، ونحرق أموالنا وأمتعتنا، ولا نترككم تغنمون منها ديناراً واحداً، ولا درهماً، ولا تسبون وتأسرون رجلاً ولا امرأة. وإذا فرغنا من ذلك أخربنا الصخرة والمسجد الأقصى وغيرهما من المواضع، ثم نقتل من عندنا من أسرى المسلمين، وهم خمسة آلاف أسير، ولا نترك لنا دابة ولا حيواناً إلا قتلناه، ثم خرجنا إليكم كلنا فقاتلناكم قتال من يريد (أن) يحمي دمه ونفسه، وحينئذ لا يُقتل الرجل حتى يقتل أمثاله، ونموت أعزاء أو نظفر كراماً»[72].

وكان صلاح الدين قد أُخبر بأن رجاله قد تراجعوا عن السور، بعد أن كانوا قد رفعوا رايتهم فوقه، بسبب شراسة مقاومة الأعداء، فجمع إليه أصحابه واستشارهم في الأمر «فأجمعوا على إجابتهم إلى الأمان، وأن لا يخرجوا ويُحملوا على ركوب ما لا يُدرى عاقبة الأمر فيه عن أي شيء تنجلي. ونحسب أنهم أسارى بأيدينا، فنبيعهم نفوسهم بما يستقر بيننا وبينهم»[73]، فأقر صلاح الدين ما أقره القادة المسلمون، وأبلغ باليان بذلك، على أن يدفع المحاصَرون فدية، عن الرجل «عشرة دنانير، يستوي فيه الغني والفقير»، وعن الطفل، ذكراً كان أم أنثى «دينارين»، وعن المرأة «خمسة دنانير»، وأن يتم ذلك خلال «أربعين يوماً»، فمن لا يدفع الفدية خلال هذه المدة «فقد صار مملوكاً». وطلب باليان من صلاح الدين أن تكون الفدية عن الفقراء مجتمعين «ثلاثين ألف دينار» فوافقه صلاح الدين على ذلك. ويذكر ابن الأثر أن باليان افتدى «ثمانية عشر ألف رجل» بثلاثين ألف دينار «وأُخذ أسيراً ستة عشر آدمي ما بين رجل وامرأة وصبي، هذا بالضبط واليقين»[74].

---

(72) ابن الأثير، المصدر السابق، ج 11: 548 ـ 549.

(73) م. ن. ص 549.

(74) م. ن. ص 549 ـ 550، ويذكر رنسيمان أن فدية الطفل كانت ديناراً واحداً، كذلك غروسيه، إلا أننا نرجح ما ذكره ابن الأثير. كما يذكر كل من رنسيمان وغروسيه أن عدد الفقراء الذين أطلق سراحهم مقابل ثلاثين ألف دينار بلغ سبعة آلاف (رنسيمان، المصدر السابق، ج 2: 752) و (Grousset, Op. Cit., p. 813). إلا أننا نرجح، كذلك، رأي ابن الأثير.

والسؤال الذي يتبادر إلى الذهن أمام ما عرضناه من مفاوضات بين صلاح الدين وباليان، وهي مفاوضات انتهت بخروج الصليبيين جميعاً، مقاتلين وشيوخاً ونساء وأطفالاً، من المدينة المقدسة، سالمين، تماماً بعكس ما جرى للمسلمين، يوم أن احتل الصليبيون المدينة عام 1099م. ألم يكن باستطاعة صلاح الدين أن يقتحم المدينة عنوة، وبغتة، وبدون إراقة دماء المقاتلين المسلمين، بواسطة من كان «بداخل المدينة» من أصدقائه، وهم «عدد كبير» من «ذوي النفوذ والسلطان»، خصوصاً وأن حلفاء من المسيحيين الوطنيين «الأرثوذكس» المعادين «للاتين» تماماً، كانوا قد وعدوه بفتح أبواب المدينة له ساعة يشاء؟ إن المؤرخ «رنسيمان» لا يشك في ذلك[75]، وقد عُرف صلاح الدين، في حروبه كلها، وبشهادة الصليبيين أنفسهم، والمؤرخين الفرنج بالذات، أنه كان إنساني النزعة بقدر ما كان صلب العقيدة جازم الإرادة قوي الشكيمة واثقاً بالنصر في هذه الحروب، وهو، في رأي رنسيمان وبشهادته، قد أدرك أن سلطته على القدس «أضحت وطيدة» وأن باستطاعته «أن يفتحها متى يشاء» ولكنه «كان مستعداً لأن يكون سخياً، فأحب أن لا تتعرض بيت المقدس إلا لأقل ما يصح أن تتعرض له من الأضرار»[76]. وبالإضافة إلى أنه كان يرغب أن لا يعرّض الأماكن المقدسة الإسلامية في المدينة والمسلمين الأسرى الذين هم بأيدي الصليبيين فيها، لأي ضرر، فإنه كان يرفض أن يدفع الشيوخ والنساء والأطفال الصليبيون المحاصَرون في المدينة المقدسة، ثمن رعونة قادتهم، السالفين، وتعصبهم ووحشيتهم تجاه مسلمي هذه المدينة يوم احتلالهم لها، وربما كان يأنف، كذلك، أن يورط المسيحيين الوطنيين المتحالفين معه والمقيمين في المدينة، بعمل خفي يسيء إلى سمعتهم بين أبناء ملتهم، وهو ما لا يرتضيه ولا شك.

ومهما يكن من أمر، فقد تم الاتفاق بين صلاح الدين وباليان على تسليم المدينة وفقاً للشروط التي ذكرنا، ودخلها صلاح الدين «يوم الجمعة في 27 رجب 583هـ = 2 ت 1/ اكتوبر 1187م»، وذلك بعد أن أعطى باليان الأوامر لحاميتها بإلقاء السلاح والاستسلام لجند المسلمين، «وكان يوماً مشهوداً، ورفعت الأعلام

---

(75) رنسيمان، المرجع السابق، ج 2: 750 ـ 751.

(76) م. ن. ص 750 ـ 752.

الإسلامية» على أسوار المدينة المقدسة[77] للمرة الثانية في تاريخها. وقد استمر حصار صلاح الدين للمدينة اثني عشر يوماً. وبسقوط القدس، انهارت أمام القائد المسلم معظم المدن والمواقع التي كانت لا تزال تحت سيطرة الصليبيين في معظم أنحاء بلاد الشام.

دخل صلاح الدين القدس، إذن، يوم الجمعة في 27 رجب، وكانت ليلة الإسراء، فأمر بأن يوضع على كل باب من أبواب المدينة أمير من أمراء الجيش لكي يتسلم الفدية من الصليبيين الخارجين من المدينة ويحتسبها، وكان في المدينة «على الضبط، ستون ألف رجل ما بين فارس وراجل، سوى من يتبعهم من النساء والولدان»[78]. ويستطرد ابن الأثير: «ولا يعجب السامع من ذلك، فإن البلد كبير، واجتمع إليه من تلك النواحي، من عسقلان وغيرها، والداروم والرملة وغزة، وغيرها من القرى، بحيث امتلأت الطرق والكنائس، وكان الإنسان لا يقدر أن يمشي»[79]. إلا أن ابن الأثير يتهم الأمراء الذين كلفوا تقاضي أموال الفدية على الأبواب بالخيانة، إذ يقول فيهم إنهم «استعملوا الخيانة، ولم يؤدوا فيه أمانة، واقتسم الأمناء الأموال، وتفرقت أيدي سبأ، ولو أديت فيه الأمانة لملأ الخزائن وعمّ الناس»[80].

أما صلاح الدين فإنه، بعد أن استقر له الحكم في المدينة المقدسة، أمر بإعادتها إلى ما كانت عليه قبل احتلالها من الصليبيين، وكان هؤلاء قد أقدموا على تغيير الكثير من المعالم الإسلامية للمدينة، فزرعوا صليباً كبيراً مذهباً على رأس قبة الصخرة، و «فرشوا الرخام فوق الصخرة وغيّبوها» فنزع المسلمون الصليب عن رأس الصخرة، وأمر صلاح الدين بكشفها، وكان فرسان الداوية قد بنوا مباني لهم غرب المسجد الأقصى لكي يسكنوها، وأنشأوا فيها «هُري ومستراح وغير ذلك»، وأدخلوا قسماً من هذا المسجد في أبنيتهم، فأمر صلاح الدين «بإعادة

---

(77) ابن الأثير، المصدر السابق، ج 11: 549، ورنسيمان، المرجع السابق، ج 2: 752، وكانت المرة الأولى يوم فتحها الخليفة عمر بن الخطاب عام 15هـ = 636م.

(78) ابن الأثير، م. ن. ص 549.

(79) م. ن. ص 549 ـ 550.

(80) م. ن. ص 549.

الأبنية إلى حالها القديم» كما أمر «بتطهير المسجد والصخرة من الأقذار والأنجاس»، ثم عيّن إماماً للمسجد الأقصى وأقام فيه منبراً، وعفا ما كان فيه وفي الأبنية المجاورة من صور كان الصليبيون قد وضعوها أو رسموها، وأعاد المسيحيين الوطنيين من أهل القدس إلى مساكنهم، كما سمح لهم بشراء ما أراد الفرنج بيعه من ممتلكات ومتاع وأموال[81].

د ـ صلاح الدين يؤكد المقولة «لم يعرف التاريخ فاتحاً أرحم من العرب»:

سوف نقتصر كلامنا، في هذا المجال، على شهادات المؤرخين الفرنجة، قال «ستيفن رنسيمان» ما نصه بالحرف: «الواقع أن المسلمين الظافرين اشتهروا بالاستقامة والإنسانية، فبينما كان الفرنج، ومنذ ثمانٍ وثمانين سنة، يخوضون (في) دماء ضحاياهم، لم تتعرض الآن دار من الدور للنهب، ولم يحلّ بأحد من الأشخاص مكروه، إذ صار رجال الشرطة، بناء على أوامر صلاح الدين، يطوفون بالشوارع والأبواب يمنعون كل اعتداء يقع على المسيحيين... ومن المناظر التي تدعو للحزن والأسى، ما حدث من التفات العادل إلى أخيه صلاح الدين يطلب منه إطلاق سراح ألف أسير، على سبيل المكافأة عن خدماته له، فوهبهم له صلاح الدين، فأطلق العادل سراحهم على الفور. وإذ ابتهج البطريرك هرقل لأن يلتمس هذه الوسيلة الرخيصة لفعل الخير[82]، لم يسعه إلا أن يطلب من صلاح الدين أن يهبه بعض الأرقاء ليعتقهم، فبذل له صلاح الدين سبعماية أسير، كما جعل صلاح الدين لباليان خمسماية أسير. ثم أعلن صلاح الدين أنه سوف يطلق سراح كل شيخ وكل امرأة عجوز. ولما أقبل نساء الفرنج

---

(81) م. ن. ص 551 ـ 553. والهُري (بضم الهاء وتسكين الراء): بيت كبير يجمع فيه طعام السلطان. والجمع: أهراء.

(82) يقصد رنسيمان من هذا القول الغمز من قناة البطريرك هرقل الذي قال عنه، في النص نفسه، ما يلي: «لم يحفل البطريرك وهيئة الكنيسة إلا بأنفسهم، ودهش المسلمون حينما رأوا البطريرك هرقل يؤدي عشرة دنانير، مقدار الفدية المطلوبة منه، ويغادر المدينة، وقد انحنت قامته لثقل ما يحمله من الذهب، وقد تبعت العربات التي تحمل ما بحوزته من الطنافس والأواني المصنوعة من المعادن النفيسة»، (رنسيمان، المرجع السابق، ج 2: 752 ـ 753).

اللاتي افتدينْ أنفسهن، وقد امتلأت عيونهن بالدموع، فسألن صلاح الدين أين يكون مصيرهن بعد أن لقي أزواجهن أو آباؤهن مصرعهم أو وقعوا في الأسر، أجاب بأن وعد بإطلاق سراح كل من في الأسر من أزواجهن، وبذل للأرامل واليتامى من خزائنه العطايا كلٌّ بحسب حالته. والواقع أن رحمته وعطفه كانا على نقيض أفعال الغزاة المسيحيين في الحملة الصليبية الأولى»[83].

وقال «غروسيه» ما نصه، بالحرف أيضاً: «بعكس الصليبيين، نفذ صلاح الدين وعوده بشرف وبشعور إنساني، وبروح فروسية، مما أثار إعجاب المؤرخين اللاتين الذين سردوا أحداث تلك الفترة، ففي 2 ت 1/ اكتوبر، ووفقاً لاتفاقه مع باليان، احتل القلعة (حصن داود) وباقي البروج، لكي يمنع عن الفرنجة أي أذى، كما أنه أقام على الممرات الرئيسية رجال ثقة مهمتهم تنفيذ أمر صارم هو منع إلحاق أي ضرر بالمسيحيين، ووضع على كل شارع فارسين ورتباء لحفظ المدينة، وقد حفظوها إلى درجة أن أحداً لم يشاهد ولم يسمع كلاماً عن مذلةٍ ما لحقت بمسيحي. ثم إنه أجّل دخول القوات المسلمة إلى المدينة لكي يجنِّب المسيحيين أية إهانة، ولهذا، لم يكن باستطاعة الجنود المسلمين أن يدخلوها إلا من باب داود (باب الخليل)». ويستطرد «غروسيه»: «طلب بعض المتعصبين من صلاح الدين هدم معابد المسيحيين وتدمير كنيسة القيامة بهدف إلغاء حج المسيحيين (المؤمنين بالثالوث المقدس)، فصدهم عن ذلك بكلمة منه، قال: «لماذا الهدم والتدمير، طالما أن هدف عبادتهم هو مكان الصليب والقبر المقدس، وليس البناء الخارجي؟ وحتى لو سويت الأبنية بالأرض، فإن مختلف الطوائف المسيحية لن تتخلى عن السعي للوصول إلى هذا المكان. لنفعل، إذن، كما فعل الخليفة عمر الذي احتفظ بهذه الأبنية عندما فتح القدس في السنوات الأولى للإسلام». ويعلق «غروسيه» على ذلك بالقول: «إن كلّ ما يتحلى به هذا السلطان العظيم من حرية الرأي والمعتقد يبرز في هذه العبارة الجميلة»[84]. ويعدد «غروسيه» بعدها، الكثير من مآثر صلاح الدين في هذا المجال[85].

---

(83) م. ن. ص 752 ـ 753.

(84) Grousset, Op. Cit., V. 2, pp. 814-816.

(85) Ibid., pp. 816-818. بعد سقوط القدس، تابع صلاح الدين فتوجه في سوريا شمالاً، فاحتل =

4 ـ عودة القدس إلى الصليبيين، ثم تحريرها منهم ثانية (من عام 626هـ = 1229م حتى عام 642 هـ = 1244م):

بعد وفاة صلاح الدين، وفي ربيع الآخر من عام 626هـ (1229م) انتقلت القدس إلى الصليبيين من جديد، ذلك أنه، عندما توفي الملك المعظم، صاحب دمشق والقدس (عام 624هـ = 1227م) خلفه، في حكم البلاد، ابنه الناصر داود، وكان ضعيفاً وقليل الدراية في شؤون الحكم، فانتهز عمه الملك الكامل، صاحب مصر، هذه الفرصة، وانقض على القدس ونابلس واحتلهما، مما دفع بأخيه الملك الأشرف، صاحب الجزيرة، إلى التدخل، وتم بين الأخوين «الكامل والأشرف» اجتماع في «تل العجول» انتهى باقتسامهما للبلاد التي كان حكمها قد آل إلى ابن أخيهما الملك الناصر داود الذي آثر الفرار إلى دمشق والتحصّن بها، فتبعته جيوشهما وحاصرت دمشق (مطلع عام 626هـ = أواخر عام 1228م). واغتنم قائد الحملة الصليبية السادسة الأمبراطور فردريك الثاني، ملك صقلية (1197م ـ 1250م) وأمبراطور المانيا (1220م ـ 1250م)، فرصة الخلاف، بين الأخوة الأيوبيين (ورثة القائد صلاح الدين)، وكان في يافا، يتلقى، بين الفينة والأخرى، وسطاء للصلح مع الملك الكامل، فتشدّد في شروطه لذلك، مصرّاً

صفد (1188م) ثم توجه نحو طرطوس، مجاوزاً قلعة شقيف أرنون وحصن الأكراد وقلعة طرابلس، وسقطت طرطوس في العام نفسه (1188م) ثم سقط بعدها حصن المرقب وجبلة واللاذقية وقلعة صهيون (عام 584هـ/ 1188م) ثم بكاس الشغر فبرزية وسرمين فدربساك والبغراس وارتاح وحارم في ضواحي انطاكية (584هـ/ 1188م) واحتلت فرقة من جيشه حصن كوكب جنوب بحيرة طبرية (عام 584هـ/ 1189م). وهكذا استطاع صلاح الدين أن يحقق ما بين عامي 1187 و1190م انتصارات عسكرية باهرة، حيث لم يبق للصليبيين، بعدها، من مملكة بيت المقدس سوى مدينة صور، ومن امارة طرابلس سوى العاصمة طرابلس. ومن إمارة أنطاكية سوى العاصمة أنطاكية وثغر السويدية وحصن المرقب (انظر الخارطة). (رنسيمان، ج 2: 760 ـ 761).

وفي 22 شعبان عام 588هـ (2 أيلول/ سبتمبر 1992م)، عقد الصلح النهائي في الرملة بين صلاح الدين وريكاردوس قلب الأسد ملك انكلترا، على أن يحفظ الصليبيون بالشريط الساحلي من صور إلى يافا وأن يسمح لحجاجهم بزيارة بيت المقدس، وأن يكون الساحل الفلسطيني من عسقلان إلى يافا لصلاح الدين. ولم يمهل القدر صلاح الدين بعد ذلك، إذ توفي ليلة الأربعاء في 27 صفر عام 589هـ الموافق للرابع من آذار عام 1193م، عن عمر يناهز السابعة والخمسين. (رنسيمان، ج 3: 138 ـ 141).

على ضرورة استيلائه على بيت المقدس لقاء أي صلح مع الملك الأيوبي (المنشغل بحصار ابن أخيه في دمشق)، رغم أن جيش الأمبراطور فردريك لم يكن يتعدى «أحد عشر ألف رجل» غادر عدد كبير منهم المشرق عائداً إلى بلاده[86]. وتم الاتفاق بين الأمبراطور والملك الكامل على عقد صلح بينهما مقابل أن يستولي الأمبراطور الصليبي على «مدينة القدس ذاتها، وبيت لحم، مع شريط من الأرض يخترق لدّ (اللد) وينتهي عند يافا، على البحر، فضلاً عن الناصرة وغرب الجليل، بما اشتمل عليه من حصن مونتفورت (قلعة الشقيف) وتبنين، وما تبقى حول صيدا من المناطق الإسلامية، على أن يظل في أيدي المسلمين، من بيت المقدس، منطقة المعبد بما تحتوي عليه من قبة الصخرة والمسجد الأقصى»[87]، وهو ما لم يقله ابن الأثير الذي ذكر أن الاتفاق تمّ على أن يسلم المسلمون إلى الأمبراطور «بيت المقدس ومعه مواضع يسيرة من بلاده، ويكون باقي البلاد مثل الخليل ونابلس والغور وملطية وغير ذلك بيد المسلمين»، ثم يعود ابن الأثير فيؤكد أنه «لا يسلّم إلى الفرنج إلا البيت المقدس والمواضع التي استقرت معه»[88].

وهكذا استعاد الصليبيون بيت المقدس، سلماً، بعد أن كان صلاح الدين قد حرّرها منهم، حرباً، منذ أقل من نصف قرن (منذ 42 عاماً) ودخلها الأمبراطور الصليبي، في احتفال مهيب، بتاريخ 17 آذار/ مارس عام 1229م (ربيع الآخر 626هـ)[89].

ويذكر ابن الأثير أن المسلمين استعظموا ذلك «وأكبروه، ووجدوا له من الوهن والتألم ما لا يمكن وصفه»[90]، كما «بكى الناس في دمشق على ما جرى في بيت المقدس. . . فلم يمر بدمشق أكثر بكاء من ذلك اليوم»[91].

---

(86) رنسيمان، المرجع السابق، ج 3: 326، حاشية (1)، وانظر: م. ن. ص 326 ـ 328.
(87) م. ن. ص 330 ـ 331.
(88) ابن الأثير، المصدر السابق، ج 12: 483.
(89) رنسيمان، المرجع السابق، ج 3: 330 ـ 332.
(90) ابن الأثير، المصدر السابق، ج 12: 483.
(91) العارف، المرجع السابق، ص 188.

إلا أنه لم يمضِ وقت طويل على ذلك (عشر سنوات فقط) حتى استعاد المسلمون المدينة المقدسة من الصليبيين حرباً، إذ إنه، ما أن انتهت مدة المعاهدة الموقعة بين الملك الكامل وفردريك الثاني بشأن القدس (عام 636هـ = 1239م) حتى عاد البابا غريغوري التاسع (في صيف عام 1239م) لإعداد حملة صليبية جديدة بغية إبقاء القدس بيد الصليبيين، وكان لم يمض بعد، على موت الملك الكامل سنة واحدة (توفي عام 635هـ ـ 1238م).

انطلقت الحملة الصليبية، فرنسية هذه المرة، بقيادة Thibaut IV تيبوت أو تيبالد الرابع (كونت شمبانيا وملك نافار) باتجاه الشرق، من فرنسا بحراً، فوصلت إلى عكا (في مطلع أيلول/ سبتمبر 1239م ـ 637هـ)، واستطاعت، خلال أيام، أن تحشد جيشاً من نحو ألف فارس وألف راجل[92]. وانعقد مجلس قيادة الحملة لتقرير خط سيرها بعد عكا، ونوقشت كل الاحتمالات والفرضيات، وتم الاتفاق أخيراً، على أن تتوجه الحملة، جنوباً، نحو عسقلان وغزة، وهما معقلان مصريان، بغية الاستيلاء عليهما وجعلهما مركزاً لانطلاق الحملة نحو دمشق شمالاً، بعد أن تكون قد حمت مؤخرتها من أي هجوم مصري من الجنوب، كما حالت دون وصول أي مدد يمكن أن يأتي، من هذه الجهة، أي مصر، إلى أهل دمشق وبلاد الشام.

إلا أن الحملة الصليبية هذه منيت بهزيمة ساحقة على أبواب غزة حيث تصدى لها جيش مصري بقيادة الأمير المملوكي ركن الدين، فخسرت، في هذه المعركة نحو ألف رجل وأسر نحو ستماية[93]، وفرّ الباقون باتجاه عسقلان حيث كان يعسكر، تحت أسوارها، ما تبقى من الجيش الصليبي.

وفي هذه الأثناء، اغتنم الملك الناصر داود، صاحب الكرك، انشغال الصليبيين بحربهم مع المصريين في غزة، فزحف إلى بيت المقدس حيث ألقى الحصار عليها طيلة 27 يوماً، ولم يكن فيها من وسائل الدفاع، «سوى ذلك

---

(92) رنسيمان، المرجع السابق، ج 3: 372 و374. ويذكر عاشور أنه كان في هذه الحملة «ألف وخمساية فارس عدا المشاة» (عاشور، سعيد، الحركة الصليبية، ج 2: 1034).

(93) رنسيمان، م. ن. ج 3، ص 375، وقيل ألف وثمانماية رجل، «ولم يقتل من المسلمين غير عشرة» (عاشور، سعيد، م. ن. ص 1036).

القطاع من السور، عند باب اسطفان، الذي سبق لفردريك أن شرع في عمارته، وكذلك القلعة التي تضم حصن داود»[94] فضرب ذلك السور، وتلك القلعة، بالمجانيق، وصمدت حاميتها الصليبية الصغيرة في وجه الهجوم والحصار، إلى أن استسلمت (بتاريخ 7 كانون الأول/ ديسمبر 1239م = جمادى الأولى 637هـ) على أن يؤمّن لها الرحيل إلى الساحل (حيث لا تزال تقوم مملكة الصليبيين)، وأما الملك الناصر داود، فقد دمّر كل ما بناه الصليبيون، في المدينة، من سور واستحكامات وبروج وقلاع، بما فيها حصن داود، وعاد إلى الكرك، عاصمته[95].

ولكن، ما أن غادر الملك الناصر داود القدس إلى الكرك حتى عاد الصليبيون إليها، وبقوا فيها حتى تموز/ يوليو عام 1244م (المحرم 242هـ)، خصوصاً وأن هذه الفترة شهدت حروباً أهلية داخلية بين الملوك الأيوبيين في مصر وبلاد الشام، مما أتاح للصليبيين حرية التصرف، في هذه البلاد، إلى حد كبير، بل التحالف مع بعض هؤلاء الملوك ضد بعضهم الآخر[96].

وفي منتصف عام 1244م (مطلع عام 642هـ) توجه الملك الصالح نجم الدين أيوب، صاحب مصر، نحو بلاد الشام، ومعه جيش من مصر ونحو عشرة آلاف فارس من الخوارزميين (الذين استدعاهم من وراء الفرات لمناصرته، فعبروا الفرات عام 642هـ = 1244م وانضموا إليه). وما أن علم الصليبيون بتقدم الملك الصالح من مصر نحوهم بهذا الجيش اللجب حتى أسرعوا يحصّنون المدينة المقدسة ويعززون حاميتها ويقوّون استحكاماتها، ولكن الخوارزميين ما لبثوا أن اقتحموا المدينة (في 11 تموز/ يوليو 1244م = أول صفر 642هـ)، حيث جرت، في شوارعها، معارك حامية بين المهاجين والمدافعين، استطاع المهاجمون خلالها،

---

(94) رنسيمان، م. ن. ص 375، ويرى عاشور أن حملة الناصر داود على القدس تمت أثناء وجود الحملة الصليبية الفرنسية في عكا وقبل توجهها إلى غزة حيث هزمت (عاشور، المرجع السابق، ج 2: 1034) إلا أننا لا نرى رأيه.

(95) رنسيمان، م. ن. ص 376 ـ 377، ويبدو أن بعض المؤرخين قد جعلوا احتلال الملك الناصر داود للقدس قبل معركة غزة لا بعدها (ومنهم العارف، ص 189)، إلا أن الصحيح هو ما كتبه رنسيمان (استناداً إلى المقريزي)، وهو ما اعتمدناه بدورنا.

(96) لا مجال للإسهاب في هذا المجال، انظر رنسيمان، م. ن. ص 377 ـ 391.

أن يفتحوا طريقاً لهم إلى دير الأرمن حيث «أجهزوا على الرهبان والراهبات، ولقي حاكم المدينة الفرنجي مصرعه عند قيامه بهجوم على القلعة وهلك معه مقدم الأسبتارية»[97]، أما الحامية فظلت تقاوم آملة أن تصلها نجدة ما من أهلها الصليبيين، إلا أن هؤلاء كانوا عاجزين عن إنجادها، فاستغاثت بالملك الناصر صاحب الكرك، الذي طلب من المهاجمين السماح لرجال الحامية ومن معهم من النساء والشيوخ والأطفال، بالخروج من المدينة سالمين، فخرج من القدس (بتاريخ 23 آب/ اغسطس عام 1244م = ربيع الأول 642هـ) نحو «ستة آلاف من المسيحيين، من الرجال والنساء والأطفال» وتركوا المدينة للخوارزميين الذين سلموها للملك الصالح نجم الدين أيوب، بعد أن نهبوها وفتكوا بمن فيها من نصارى، ثم انسحبوا إلى غزة.

«وبهذا خرجت بيت المقدس، نهائياً، من أيدي الفرنج، ولم يدخل أبوابها جيش مسيحي إلا بعد حوالى سبعة قرون»[98]. ويذكر القاضي جمال الدين بن واصل أنه مرّ ببيت المقدس في العام نفسه (1244م) وقبل تحريرها «فرأيت الرهبان على الصخرة وعليها قناني الخمر، ورأيت الجرس في المسجد الأقصى، وأبطل الآذان بالحرم»[99].

---

(97) م. ن. ص 392.

(98) م. ن. ص 392 ـ 393، وانظر: Grousset, Op. Cit., V. 3, pp. 412-414.

(99) عاشور، المرجع السابق، ج 2: 1043، عن: أبو الفدا، المختصر، وأبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ويذكر «غروسيه» الشيء نفسه (Grousset, Op. Cit., V. 3, p. 408) عن أبو الفدا والمقريزي.

الفصل الرابع

الاحتلال البريطاني للقدس

الاحتلال البريطاني للقدس (1336هـ = 1917 م):

استمرت القدس في ظل الحكم الإسلامي نحو سبعة قرون شهدت، خلالها، انتقال السلطة الإسلامية من الأيوبيين إلى المماليك (648هـ = 1250م) ثم إلى العثمانيين (922هـ = 1516م) ثم إلى محمد علي باشا المصري (1247هـ = 1831م) ثم إلى العثمانيين من جديد (1256هـ = 1840م). وظلت القدس بيد العثمانيين إلى أن احتلتها بريطانيا في نهاية الحرب العالمية الأولى (1336هـ = 1917م).

وإذا كنا قد تغاضينا عن الحديث عن حروب القدس في هذه الفترة من الحكم الإسلامي، فذلك لأن موضوع بحثنا هو حروب المسلمين (والعرب) مع الآخرين (البيزنطيين والصليبيين والبريطانيين والصهاينة) في سبيل القدس، وليس حروب المسلمين فيما بينهم.

1 ـ القدس عشية الاحتلال البريطاني:

كانت معالم القدس قد تغيرت كثيراً، وكذلك مجتمعها، عشية الاحتلال البريطاني، عما كانا عليه في القرون السابقة. وقد بدأ هذا التغير في القرن الميلادي التاسع عشر، وخصوصاً في عهد ابراهيم باشا (1831 ـ 1840م) وعلى

أثر الثورة التي قام بها مسلمو المدينة ضد حكم ابراهيم باشا، (عام 1834م) والتي قمعت، من قبل الحاكم المصري، بشدة متناهية ذهب ضحيتها من الثوار، في معركة واحدة (نيسان/ ابريل 1834)، «ثلاثة آلاف قتيل وخمسماية أسير» بحسبما ذكره «عارف العارف»[1]، هذا عدا ما خلفته المعارك الأخرى بين الثوار وعسكر ابراهيم باشا من ضحايا، خصوصاً وقد عمت تلك الثورة فلسطين بأسرها[2].

كان التسامح الديني الذي اتبعه الحكم الإسلامي، خلال القرون السابقة، في مدينة القدس، كما في بلاد المسلمين كافة، قد أدّى إلى أن سكن المدينة المقدسة عدد كبير من المسيحيين واليهود إلى جانب المسلمين، مما أقام بين هذه الطوائف، على اختلافها، لحمة وطنية ومجتمعية وثيقة، وخلق، بين المؤمنين بالأديان السماوية الثلاثة، وشائج من الود والتآلف، لم تعرف من قبل، ولكن ما أن احتل ابراهيم باشا بلاد الشام، ومنها فلسطين (والقدس من ضمنها) حتى بدأ بتنفيذ سياسة مالية وضرائبية مرهقة لأهالي تلك البلاد، كما أنه عمد إلى ضرب زعامات بعض الأسر الإسلامية ونفوذها، وهي الأسر التي اعتادت، بحكم التقاليد السائدة، أن تفرض سيطرتها على باقي سكان البلاد[3]، ثم عمد إلى جمع السلاح من الأهالي، وفرض التجنيد الإجباري على الشباب المسلم (دون سواه، وفقاً للشريعة الإسلامية التي تمنع تجنيد أهل الذمة فيما يسمى بالجهاد). وكان من شأن هذه التدابير أنها «أغضبت المسلمين» إلا أنها أثارت ارتياحاً لدى باقي الطوائف من «النصارى واليهود» مما خلق تنافراً بين المسلمين وغيرهم من الطوائف[4].

وتفاقمت الأمور بين الأهالي والحاكم المصري بسبب تفاقم التذمر من سياسة ذلك الحاكم، إلى أن انتهى الأمر بأن اندلعت الثورة، ضد الحكم المصري، في فلسطين والقدس، كما في باقي بلاد الشام. وكان الثائرون، في القدس، من

---

(1) المفصل في تاريخ القدس، ص 383. وقد توقفنا عن إجراء التوافق بين التاريخين الميلادي والهجري عندما بلغنا، في هذه الحروب، القرن الميلادي العشرين.

(2) انظر أخبار هذه الثورة عند: العارف، عارف، م. ن. ص 277 ـ 291.

(3) انظر أسماء هذه الأسر، في م. ن. ص 279 ـ 280.

(4) م. ن. ص 280.

المسلمين الذين هالهم أن يساق شبابهم إلى «التجنيد الإجباري»، بعد أن أثقل ذلك الحكم كواهلهم بالضرائب والرسوم الباهظة وعمليات جمع السلاح. وكان الأمر قد صدر من ابراهيم باشا (بتاريخ 5/4/1834) إلى أهل القدس لكي يقدموا، للخدمة الإجبارية في جيشه «مئتي رجل من مدينة القدس، وثلاثة آلاف من كل أقضية القدس ونابلس والجليل»[5]، فاندلعت الثورة في فلسطين عموماً، وفي القدس خصوصاً، وكان مسلحو القدس هم الذين أضرموا نار هذه الثورة باعتبارهم الأكثر تضرراً من سياسة ابراهيم باشا هذه.

أعلن أهالي القدس الثورة على ابراهيم باشا بتاريخ 23 نيسان/ ابريل عام 1834، وكان ابراهيم باشا في يافا، فعاد إلى القدس على رأس قوة من «تسعة آلاف مقاتل»، وما أن دخلها حتى هبّ «اللاتين والأرمن واليهود وفريق من الأرثوذكس» لاستقباله «ولم يقابله أحد من المسلمين»[6]. وهكذا، بينما اتبع المسلمون في القدس سياسة النفور من حكم ابراهيم باشا والثورة عليه، مالأ المسيحيون واليهود فيها الحاكم المصري، فحازوا على رضاه، ونالوا، من جراء ذلك، امتيازات في المدينة، منها ما ساوى بينهم وبين المسلمين ومنها ما جعلهم متفوقين عليهم، (إذ إنه ألغى الكثير من العادات والتقاليد التي كانت متبعة في ذلك الحين، وفيها إهانة للنصارى واليهود، كما أنه أعفى النصارى واليهود والكنائس من بعض الضرائب والرسوم)، ولا شك في أن ما أدخله ابراهيم باشا من إصلاحات على النظام الإداري للمدينة، والتي ساوى، من خلالها، بين المسلمين وباقي الطوائف، كان بدافع التوسل والتودد للدول الأوروبية فحسب[7].

لقد كان عهد ابراهيم باشا، إذن، وعلى صعيد الطوائف في المجتمع المقدسي، عهد تغيّرات جذرية مهمة، فهو قد ألغى الامتيازات التي كانت للمسلمين على باقي الطوائف، وسواء أكان ذلك بدافع الانتقام من المسلمين

---

(5) م. ن. ص 279.
(6) م. ن. ص 283.
(7) انظر هذه العادات والتقاليد والضرائب والرسوم في م. ن. ص 288 ـ 289.
وانظر: Encyclopédie de l'Islam, pp. 335-336.

الذين ثاروا على الحكم المصري، أم بدافع إرضاء تلك الطوائف ومَن وراءها من دول أوروبية كان محمد علي، والد ابراهيم باشا وحاكم مصر، يبغي التقرب منها وكسب ودها في صراعه المصيري مع الأمبراطورية العثمانية، فقد شجع ذلك أبناء الطوائف غير الإسلامية، من نصارى ويهود، على التدفق، بأعداد كبيرة، إلى القدس، للاستيطان فيها، فازدهرت المدينة عمرانياً وتجارياً، خصوصاً وأن ابراهيم باشا كان قد أباح التجارة في البلاد للأجانب، وكان ذلك محظوراً عليهم «إلا في بعض الثغور والموانىء الساحلية»، كما أنشأ الكثير من طرق المواصلات بين القدس والمدن المجاورة[8].

واستطاع غير المسلمين من النصارى واليهود أن يدخلوا في المجلس الإداري الذي شكله ابراهيم باشا للمدينة كممثلين عن طوائفهم، كما استطاعوا أن ينالوا ترخيصاً لكي يبنوا مساكن ويقيموا أماكن عبادة لهم خارج أسوار المدينة المقدسة، فبدأت مدينة القدس تمتد شمالاً وجنوباً وغرباً خارج تلك الأسوار[9].

وإذا كان سكان القدس، من مسلمين ومسيحيين، قد انتشروا خارج الأسوار بلا نية مستترة ولا تصور مستقبلي لمصير المدينة المقدسة، فإن اليهود كانوا، بعكس ذلك، يخططون، بدقة وانتباه كبيرين، لما يجب أن يؤول إليه مصير هذه المدينة، في نظرهم. وهكذا، فقد بدأت المستعمرات اليهودية تنتشر خارج الأسوار بدءاً من عام 1859، حتى بلغ عددها 16 مستعمرة عند نهاية القرن المنصرم (التاسع عشر)، حيث «طوقت القدسَ من الغرب والشمال والشمال الشرقي»[10]. ويذكر المؤرخ «عارف العارف» أن عدد سكان القدس كان، في هذه الفترة (فترة حكم ابراهيم باشا)، عشرين ألف نسمة «ألف منهم مسيحيون»[11]، ولم يذكر عدد اليهود بسبب ندرتهم، على ما يبدو، فإذا بهذا العدد يتزايد، بصورة مفاجئة وغير متوقعة، حتى يصل، في منتصف القرن التاسع عشر، إلى التساوي بينه وبين عدد المسيحيين في المدينة، بينما يحافظ

---

(8) العارف، م. ن. ص. ن.

(9) Bahat, Op. Cit., p. 122.

(10) بحيري، صلاح الدين، يوم القدس، ص 38 (أضواء على الجغرافية السياسية لمدينة القدس).

(11) العارف، المرجع السابق، ص 288.

المسلمون على زيادة واضحة في عددهم. إلا أنه، وفي العام 1870م، صار اليهود يشكلون غالبية سكان هذه المدينة[12]، كما أضحت معظم الأبنية البارزة في المدينة، من مدنية ودينية، ملكاً لهم[13].

ويذكر المؤرخ اليهودي «دان باهات» أن المسلمين بدأوا يتوسعون في شمال المدينة القديمة قبالة باب هيرودوس وباب دمشق وباب يافا، أما المسيحيون فقد توسعوا «حول المدينة القديمة» وخصوصاً على جبل صهيون وجبل الزيتون[14]. ثم يقدم أرقاماً لعدد السكان من كل طائفة، فيذكر مثلاً، أن عدد المسيحيين من سكان مدينة القدس ازداد من 3000 نسمة (في نهاية القرن التاسع عشر) إلى 13000 نسمة (عشية الحرب العالمية الأولى) وأن عدد السكان المسلمين ازداد، في الفترة نفسها، من 4000 إلى 12 ألف نسمة. أما اليهود فقد ازداد عددهم «من نحو ألفي نسمة في مطلع القرن التاسع عشر، إلى نحو 45 ألف نسمة في نهاية العهد العثماني»[15]، مما يؤكد ما سبق أن أشرنا إليه من تصور استراتيجي للحركة الصهيونية لمصير القدس في مطلع هذا القرن. وقد ورد في كتاب «القضية الفلسطينية والخطر الصهيوني» جدول يبين عدد السكان اليهود في مدينة القدس، عام 1910، على الشكل التالي:

ـ السفارديون	15000 نسمة
ـ الاشكنازيون القدامى (من فئة المهاجرين)	20000 نسمة
ـ الاشكنازيون (الذين هاجروا حديثاً)	10000 نسمة
ـ المهاجرون من آسيا وافريقيا	5000 نسمة
المجموع	50000 نسمة[16]

(12) Bahat, Op. Cit., p. 127, & Encyclopedie de l'Islam, p. 335.

(13) Bahat, Op. Cit., pp. 122-125.

(14) Ibid., p. 125.

(15) Ibid.

(16) مؤسسة الدراسات الفلسطينية وقيادة الجيش اللبناني، القضية الفلسطينية والخطر الصهيوني، ص 133.

وتقترب هذه الأرقام من تلك الواردة في «الموسوعة الفلسطينية»، إذ بلغ عدد سكان القدس، وفقاً لهذه الموسوعة، ما يلي:

- عام 1890 = نحو 45 ألف نسمة.
- عام 1896 = نحو 50 ألف نسمة.
- عام 1912 = نحو 90 ألف نسمة.
- عام 1917، وعشية الاحتلال البريطاني، كان هذا العدد قد انخفض إلى 50 ألف نسمة، بسبب ما رافق الحرب العالمية الأولى من «آلام رهيبة سببها القهر والديكتاتورية والجوع والأمراض»، إلا أنه عاد فارتفع عام 1920 إلى 61 ألف نسمة[17]، ولكن تلك الموسوعة لم تفصّل هذه الأعداد وفقاً لطوائف السكان. وقد زاد من حرية الطوائف في استيطان مدينة القدس ما أدخلته الدولة العثمانية من إصلاحات تقضي «بالمساواة بين جميع الرعايا العثمانيين» وتسمح «بتعيين قناصل لانكلترا وفرنسا وغيرهما من الدول الغربية» وفقاً لما وعد به السلطان العثماني عبد المجيد الأول هذه الدول، وهي تلك التي أنجدته في حرب القرم ضد روسيا (عام 1854 ـ 1855)، كما أنجده بعضها في حربه ضد ابراهيم باشا في بلاد الشام (عام 1840). وإذا كان الانكليز قد أنشأوا أول قنصلية لهم في القدس عام 1838 وفي عهد ابراهيم باشا، فقد تبعها، بعد ذلك، وفي العهد العثماني الجديد، باقي القنصليات الأوروبية مثل قنصليات فرنسا والنمسا وبروسيا وروسيا وسردينيا واسبانيا والولايات المتحدة الأميركية، وكان لذلك، ولا شك، أثر كبير في تغلغل النفوذ الاستعماري في البلاد، وبالتالي في «ازدياد الهجرة اليهودية وتفاقم عدد اليهود في القدس تدريجياً»، وخصوصاً أنه، منذ عام 1856، وبعد إنشاء أول سكة للحديد بين القدس ويافا، المرفأ الأول لفلسطين، بدأ اليهود يتغلغلون في البلاد «تحت ستار التنقيبات الأثرية»[18].

وهكذا، فإن «الإصلاحات الإدارية والعسكرية، وتدخّل القناصل وتحسّن

---

(17) الموسوعة الفلسطينية، مجلد 3: 514. و Encyc, de L'Islam, V. 5,p. 336.

(18) م. ن. ص 513 ـ 514 و Encyclopedie de l'Islam, v. 5, p. 336.

وسائل المواصلات»[19]، أنهت كل ما كان يعزل المدينة المقدسة عن المحيط الخارجي وعن العالم الأوروبي، وأتاحت لأهلها، من كل الملل، وخصوصاً المسيحيين واليهود منهم، إقامة علاقات تجارية ودينية وثقافية واسعة مع أبناء طوائفهم، في المحيط الخارجي، وفي العالم الأوروبي أيضاً، وساعدهم، على ذلك، وجود قناصل من مختلف الدول الأوروبية الناشطة والفاعلة، في المدينة نفسها.

وقد رافق كل ذلك تقدم المدينة على صعيد الوسائل المتقدم ذكرها، «ففي عام 1865، رُبطت القدس بالعالم الخارجي بواسطة التلغراف، وفي عام 1868، وضعت في العمل أول طريق معبّدة تصل القدس بيافا، وتبعها خط سكة الحديد عام 1892»، . . . ثم «الخدمات البريدية» فيما بعد[20].

أما على الصعيد الإداري، فقد أصبحت مدينة القدس، عام 1874، عاصمةً لمتصرفيةٍ سميت باسمها، وترتبط بالأستانة مباشرة.

وأما على الصعيد العمراني، فقد تطورت القدس، في هذه الفترة، تطوراً كبيراً، إذ ارتفع، في قلب المدينة وفي ضواحيها، العديد من «الكاتدرائيات والكنائس والجوامع الحديثة، وكذلك دور العبادة اليهودية، والصروح البطريركية، والأديرة، والمآوي والمدارس. . . والمؤسسات العلمية، والمستشفيات والمستوصفات والمياتم وغيرها من المؤسسات الخيرية»[21]. وبدأت المدينة، منذ عام 1860، تمتد خارج الأسوار، «إذ فضّل المسلمون الاستقرار جنوباً على جبل الطور وخصوصاً في وادي الجوز، وعلى التلال المجاورة شمال المدينة، وتجمّع الروم الأرثوذكس خصوصاً، في حي قطمون، قرب سان سيمون، المقر الصيفي لبطريركهم، وأما اليهود فقد أنشأوا نحو 60 تجمعاً سكنياً قرب المدينة»[22]، واستقرت «الجالية الألمانية» لفرسان الهيكل (الداوية) في الجنوب الغربي من المدينة، كما استقرت «الجالية الأميركية» ومن ضمنها «كثير من السويديين» في الشمال منها[23]. (انظر المخطط رقم 9).

---

(19) Encyclopedie de l'Islam, v. 5, p. 336.

(20) Ibid.

(21) Ibid.

(22) Ibid.

(23) Ibid.

مخطط رقم (9)

مدينة القدس عشية الاحتلال البريطاني

- 1917 -

مساجد

كنائس وأديرة

معابد يهودية

مسلمون

مسيحيون

يهود

مسلمون ويهود

BAHAT, P. 127

2 ـ مقدمات الاحتلال:

عندما أطلق الشريف حسين، شريف مكة، الرصاصة الأولى، يوم الاثنين في 15 حزيران/ يونيو عام 1916، وذلك إيذاناً ببدء ثورته «الثورة العربية الكبرى»، لم يكن يدرك أن ما بدأه إن هو إلا إيذان بتحطيم آمال الأمة العربية في التحرر والوحدة، وتمزيق أوصال المشرق العربي، بالإضافة إلى أنه تدمير لأكبر وآخر امبراطورية إسلامية شهدها العصر الحديث، وأن ثورته تلك لن تكون إلا لمصلحة الحلفاء الغربيين الذين شجعوه عليها، وأمدوه بالمال والسلاح، وخصوصاً: فرنسا وانكلترا. وكانت خطة الشريف حسين وحلفائه تقضي بما يلي:

1 ـ يعلن «شريف مكة» الثورة على العثمانيين من الحجاز، ومن مكة بالذات، لما لها عند المسلمين، من كرامة وحرمة، فتنضم إليها بلاد الشام والحجاز معاً، مما يجعل القوات العثمانية المتمركزة ما بين «حلب» شمالاً و «مكة جنوباً» مشلولة الحركة والفعالية، ومحاصَرة.

2 ـ يتم ذلك أثناء نزول الجيوش الحليفة في مصر، قرب الاسكندرية، مما يجعل القوات العثمانية في هذا القطر محصورة بين نارين: نار الحلفاء من الغرب، ونار الثوار من الشرق.

3 ـ يجري مدّ الثورة إلى العراق شرقاً، مما يجعل المشرق العربي، كله، خارج دائرة السيطرة العثمانية، ويسهّل، بالتالي، للحلفاء، دخول الشام والعراق بلا مقاومة.

إلا أن الشريف عاد فاقتصر ثورته على الحجاز والشام، وذلك بتوجيه من الحلفاء أنفسهم، إذ إنهم كانوا يستعجلون احتلال العراق بأنفسهم، وبالفعل، احتلت القوات البريطانية «قوط العمارة» في 24 شباط/ فبراير عام 1917، ثم تقدمت نحو بغداد فاحتلتها في 11 آذار/ مارس عام 1917، وتابعت تقدمها بعد

ذلك نحو الموصل، فالرمادي[24].

وما لم يدركه الشريف حسين أيضاً، هو أن الحلفاء الذين وثق بهم واطمأن إلى وعودهم بإقامة «المملكة العربية السورية» في بلاد الشام، بزعامته، هم أنفسهم، الذين اجتمعوا، قبل اندلاع الثورة بشهر تماماً، أي بتاريخ 15 أيار/ مايو، من العام نفسه، لكي يتفقوا، فيما بينهم، على اقتسام المشرق العربي (بلاد الشام والعراق) وتقسيمه إلى دويلات ضعيفة وهزيلة وغير قادرة على مقاومة المشاريع الاستعمارية التي كانوا يحرصون على تنفيذها، في هذه البلاد، مستقبلاً، وأهمها: مشروع قيام الدولة العنصرية الصهيونية في فلسطين، فكان ما اشتهر، فيما بعد، وفي تاريخ هذه المنطقة باسم «اتفاقية سايكس ـ بيكو». وهكذا اقتطعت انكلترا لنفسها من هذه البلاد ووفقاً لهذه الاتفاقية: العراق وفلسطين، وشرق الأردن، واقتطعت فرنسا لنفسها: لبنان وسوريا، ومُنحت تركيا لواء الاسكندرون، كما مُنحت ايران إقليم الأحواز، أو الأهواز (أو عربستان)[25].

وبينما كان الشريف حسين، وإلى جانبه مستشاره الانكليزي «الكولونيل لورانس»، يزحف بقواته شمالاً، نحو دمشق، كانت كل من انكلترا وفرنسا تعدّان العدة لتنفيذ ما اتفق عليه ممثلاهما «مارك سايكس وجورج بيكو» سراً (عام 1916). ولم تلبث ان اطلقت انكلترا، على لسان وزير خارجيتها اللورد «آرثر جيمس بلفور»، وبتاريخ 2 ت 2/ نوفمبر عام 1917، وعدا بإقامة «وطن قومي» لليهود في فلسطين، وذلك بعد أن حرصت على أن تكون فلسطين، بعد انتهاء الحرب (العالمية الأولى)، تحت حكمها لتنفيذ هذا الوعد[26]. ثم بدأت بالإعداد

---

(24) أنطونيوس، جورج، يقظة العرب، ص 276 وانظر: Bernard, H. Leçons d'histoire militaire, T 1, p. 293 et Boudet, Jacques (Gl.), Histoire universelle de Armées, T 4, p. 85.

وكانت هذه القوات البريطانية بقيادة الجنرال مود (Maude)
(Bernard, Ibid., et Boudet, Ibid).

(25) انتزع لواء الاسكندرون من سوريا وأعطي لتركيا عام 1939 (الكيالي، عبد الوهاب، موسوعة السياسة، ج 5: 492 ـ 494) وانتزع إقليم الأحواز، أو الأهواز (التسمية العربية) أو عربستان (أي بلاد العرب وهي التسمية الفارسية) من العراق وأعطي لإيران عام 1925 (م. ن. ج 4: 83).

(26) انظر تفاصيل اتفاقية سايكس ـ بيكو ووعد بلفور في كتابنا «مؤامرة الغرب على العرب»، ص 29 ـ 51.

لغزو المشرق العربي والاستيلاء على حصتها منه (وكانت قد بدأت باحتلال العراق) كما بدأت فرنسا، بدورها بالإعداد لغزو هذا المشرق والاستيلاء على حصتها كذلك.

بدأت انكلترا تستعد لغزو بلاد الشام، انطلاقاً من مصر، وبدءاً بفلسطين، وكان ذلك وفقاً لخطة استراتيجية رسمتها، إذ كانت تبغي الوصول إلى القدس فتحتلها وتسيطر، بذلك، على ثالث مركز ديني إسلامي بعد مكة المكرمة والمدينة المنورة، ولا غرو فالقدس «أولى الكعبتين، وبها ثالث الحرمين». ثم إن توغل القوات البريطانية في بلاد الشام شمالاً يبعد القوات العثمانية نهائياً عن قناة السويس، ويحول دون أية محاولة جديدة لاحتلالها من قبل هذه القوات، كتلك التي قامت بها في منتصف كانون الثاني/ يناير عام 1915، ولم تنجح، ثم كررتها في مطلع آب عام 1916 ولم تنجح كذلك[27].

بلغ عديد القوات البريطانية الموجودة في مصر نحو 300 ألف رجل، مقابل 40 أو 50 ألفاً من العثمانيين متمركزين في فلسطين وسوريا. وقد انطلقت القوات البريطانية، بقيادة الجنرال «ارشيبالد موراي Sir Archibald Murray» نحو العريش فاحتلتها بلا قتال، في 21 ك 1/ ديسمبر 1916، وذلك لأن الأتراك كانوا قد أخلوها قبل وصول هذه القوات، ثم تقدمت نحو رفح فاحتلتها في 10 كانون الثاني/ يناير 1917، ولكنها توقفت أمام غزة التي كانت تدافع عنها حامية تزيد على 4 آلاف جندي، وقد حاولت القوات البريطانية احتلالها، في هذه الفترة، مرتين (في 26 آذار/ مارس وفي 19 نيسان/ أبريل 1917) ولكنها فشلت[28]. وقد رأت القيادة البريطانية، بعد فشل الجنرال «موراي» في هجومين متتاليين على غزة، أن تستبدل به الجنرال «ادمون أللنبي Sir Edmond Allenby»، فتسلم «أللنبي» قيادة القوات البريطانية الزاحفة إلى فلسطين في حزيران عام 1917، وأخذ يعدّ العدة لهذا الزحف بعد أن منح صلاحيات واسعة وأعطي كل ما يتطلبه الهجوم من جند وآليات، فمدّ السكك الحديدية، كما مدّ

---

(27) الأيوبي، الهيثم، الموسوعة العسكرية، ج 1: 629، والعارف، المرجع السابق، ص 374 ـ 377، و Wanty, Emile, L'Art de la guerre, T 2, p. 206.

(28) الأيوبي، م. ن. ص. ن. والعارف م. ن. ص 376 ـ 379، و Wanty, Emile, Op. Cit., p. 206.

أنابيب المياه، عبر سيناء، ووصلت هذه الإمدادات إلى دير البلح، ثم اتخذ أللنبي «القنطرة» مركزاً لقيادته، وكان مجموع القوات التي وضعت بتصرفه للزحف إلى فلسطين نحو مائة ألف رجل[29].

بعد أن أنهى الجنرال أللنبي استعداداته للهجوم، اتجه بقواته نحو «بئر السبع» فاحتلها بتاريخ 31 تشرين الأول/ اكتوبر عام 1917، ثم شن، في 2 تشرين الثاني/ نوفمبر، هجوماً على غزة، حيث لقي مقاومة عنيفة من قبل حامية المدينة، واستمر القتال خمسة أيام انتهت بانتصار القوات البريطانية ودخولها غزة في 6 منه (1917). وبعد غزة، استولت القوات البريطانية على عسقلان (في 9 من الشهر نفسه)، ثم على يافا (في 17 منه). وفي 9 كانون الأول/ ديسمبر عام 1917، دخلت قوات الجنرال أللنبي مدينة القدس[30] «محررة الأماكن المقدسة بعد الصليبيين بتسعة قرون» كما يقول الكولونيل «هنري برنارد» أستاذ التاريخ العسكري في الكلية الملكية العسكرية ببروكسل (بلجيكا)[31]، مما يشير إلى أن العديد من المؤرخين الغربيين ما زالوا ينظرون إلى القدس نظرة صليبية ما دامت بأيدي العرب أو المسلمين. (انظر الخارطة رقم 5).

3 ـ الاحتلال (9 كانون الأول/ ديسمبر 1917):

أ ـ الهجوم الأول على القدس (19 ـ 24 ت 2/ نوفمبر 1917) وفشله:

كانت القوات البريطانية التي تقدمت لاحتلال القدس، بقيادة الجنرال أللنبي،

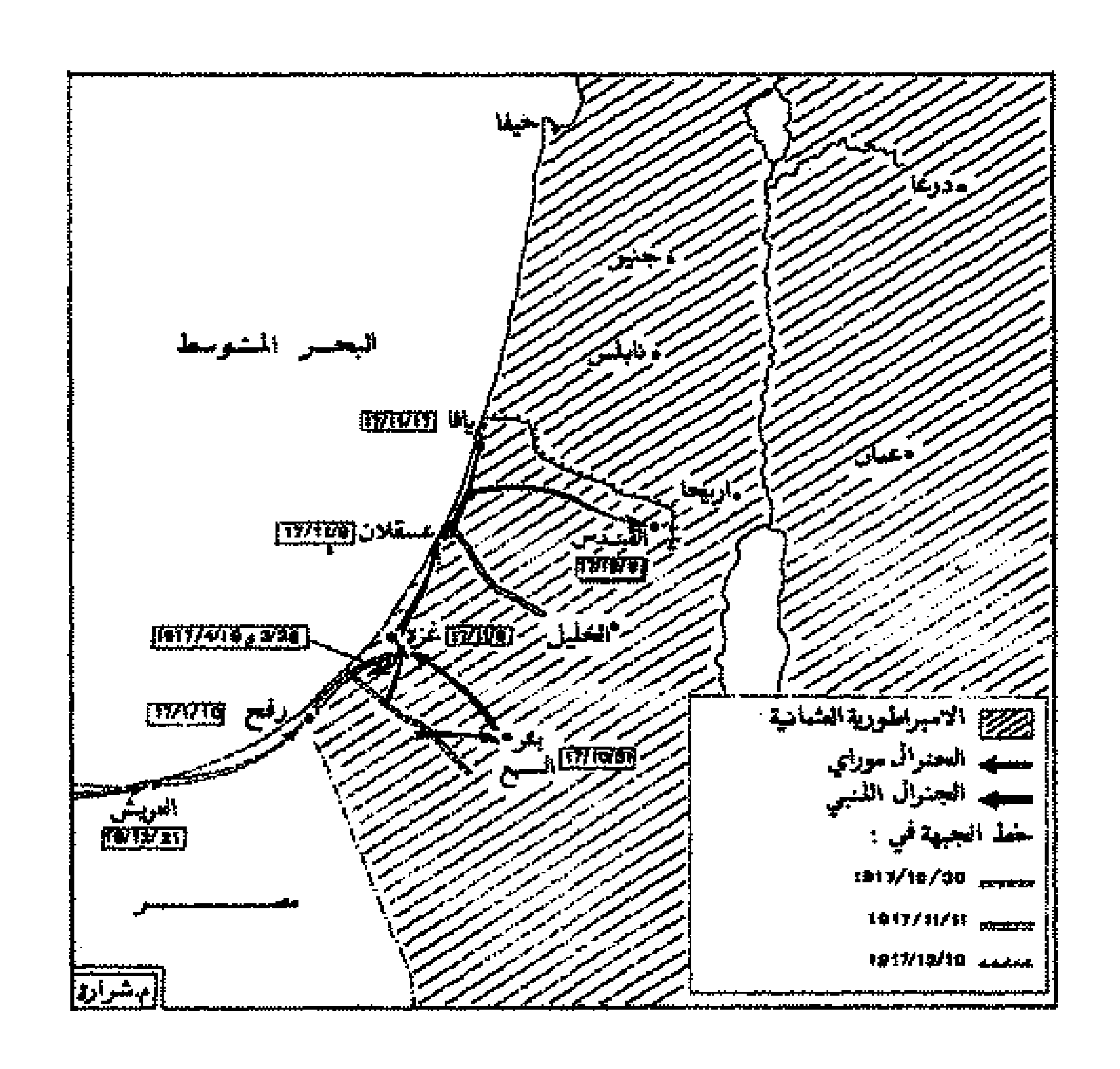
---

(29) العارف، المرجع السابق، ص 378 ـ 379 وBernard, H. Op. Cit., T1, p. 293.

(30) أنطونيوس، المرجع السابق، ص 300 ـ 331. والعارف، المرجع السابق، ص 378 ـ 379، و Bernard, H. Op. Cit., T 1, p. 293 et Boudet, Op. Cit., T 4, p. 85 et Encyclopedie d'Islam, V. 5, p. 337 et Bahat, Op. Cit., p. 129.
ويذكر «برنارد» أن «القوات التركية ومعها قوات ألمانية» تخلت عن غزة ويافا بتاريخ 15 تشرين الثاني/ نوفمبر 1917 (Ibid., T 1, p. 293)
ويبدو أن المدينة قد استسلمت للقوات البريطانية في 9 كانون الأول/ ديسمبر، إلا أن الجنرال أللنبي دخلها في 11 منه مما جعل بعض المؤرخين يؤرخون دخول القائد الإنكليزي المدينة وليس استسلامها.

(31) Bernard, Op. Cit., T1, p. 293.

خارطة رقم (5)
تقدم القوات البريطانية من مصر الى القدس
(1916 _ 1917)



تتألف من: الفرقة العشرين (بقيادة الجنرال شتورود general Sir Philip Shetwode) والفرقة الحادية والعشرين (بقيادة الماجور جنرال شوفل Chauvel) وفرقة الفرسان الأنزاك Anzac (بقيادة الماجور جنرال شيتور Chaytor) وقد عبّأ الجنرال أللنبي قواته هذه على الشكل التالي:

- فرقة الفرسان الأنزاك Anzac والفرقة 54: تتمركزان في السهل الواقع بين يافا والقدس للقيام بمهمة الدفاع.
- باقي وحدات الفيلق وهي:
- الفرقة 75: تتقدم على محور طريق يافا ـ القدس.
- الفرقة 52: تتقدم على يسار الفرقة 75.
- فرقة الفرسان اليومانيين: تتقدم على يسار الفرقة 52، وعلى محور الميرة ـ بيت عور التحتا.
- لواء من فرقة الفرسان الأوستراليين: على يمين الفرقة 75 في الوادي، حيث يمر الخط الحديدي. وكان مقابل القوات البريطانية، في الجبهة الفلسطينية، الجيشان: السابع والثامن من جيوش الصاعقة العثمانية، وكان عديدهما لا يتعدى الـ 50 ألفاً.

بتاريخ 19 تشرين الثاني/ نوفمبر، شرعت القوات البريطانية بالتقدم على المحاور المحدّدة لها، باتجاه القدس، وكان الطقس بارداً وممطراً، والضباب كثيفاً، وكان العثمانيون قد خرّبوا الطريق بين يافا والقدس في أكثر من موضع[32]. وفيما يلي وصف لتقدم مختلف القوات على مختلف المحاور:

بتاريخ 20 منه: انطلقت فرقة الفرسان اليومانيين، على محور البيرة ـ بيت عور التحتا، حتى وصلت إلى بلدة «ساريس» غرب القدس، فاحتلتها، وذلك بعد أن اضطرت هذه الفرقة لتغيير اتجاهها بسبب وعورة طريق بيت عور.

بتاريخ 21 منه: احتلت الفرقة 75 قرية العنب انطلاقاً من بيت عور الفوقا، ثم اتجهت شمالاً بشرق، نحو البيرة فاحتلتها في اليوم نفسه، عند منتصف الليل،

---

(32) العارف، المرجع السابق، ص 378 ـ 380، واليومانيون: Yoemen، في التاريخ البريطاني، طبقة وسطى بين النبلاء والفلاحين (Encyclopaedia Britannica, vol. 12, p. 833).

وذلك بعد مقاومة عنيفة من القوات العثمانية المتمركزة على الجبل حيث تقع قرية النبي صموئيل.

بالتاريخ نفسه: قامت القوات العثمانية المتمركزة على جبل بيتونيا، مقابل فرقة الفرسان اليومانيين، بهجوم ردي على هذه الفرقة، فأعادتها إلى نقطة انطلاقها وهي بيت عور الفوقا، (وكانت القوات العثمانية المتحصنة على تلك الجبال تبلغ نحو 3 آلاف جندي مجهزين بالمدافع).

بتاريخ 22 و23 منه: قامت الفرقتان 75 و52 بهجوم على قرية «الجيب» (بين النبي صموئيل وجبل بيتونيا) ففشلتا في الاستيلاء عليها، إلا أن الفرقة 52 استطاعت أن تشق طريقاً لها من بيت لقيا إلى «بدو» حيث وضعت مدافعها.

ـ حاولت القوات العثمانية، في هذه الأثناء، استرداد النبي صموئيل، فقامت بثلاث هجمات ردية على القوات البريطانية المتمركزة في هذه البلدة، ولكنها فشلت في استردادها.

بتاريخ 24 منه: لم تتمكن القوات البريطانية من التقدم نحو القدس لاحتلالها، فأصدر الجنرال أللنبي أوامره إلى تلك القوات بأن تحتفظ بمواقعها وتتخذ وضعية الدفاع عنها حتى تصلها التعزيزات اللازمة لاستئناف الهجوم[33]. (انظر الخارطة رقم 6).

ب ـ قتال المواقع (27 ت 2/ نوفمبر ـ 2 ك 1/ ديسمبر 1917):

ما أن توقف الهجوم الأول على القدس حتى بدأ الجنرال أللنبي يعد العدة للهجوم الثاني، فاتخذ الإجراءات التالية:

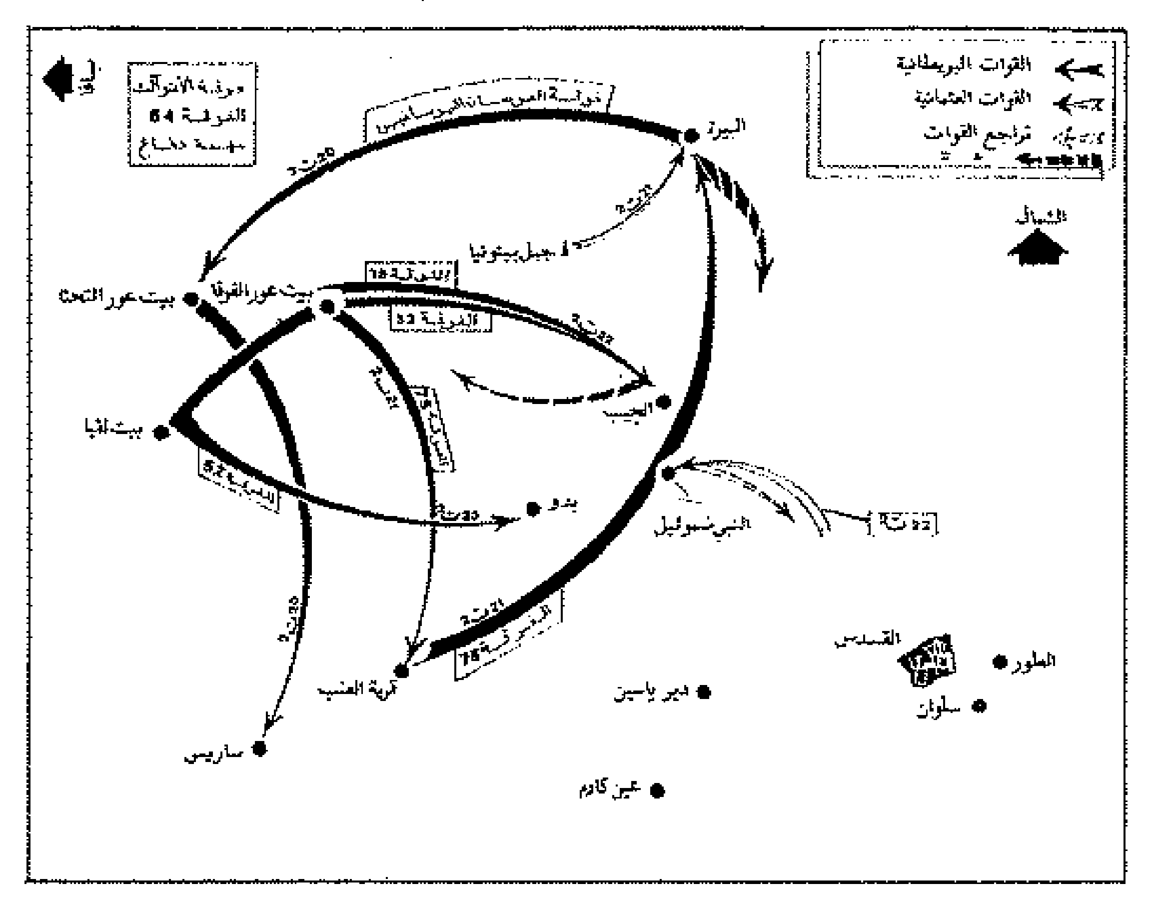
- استبدل الفيلق العشرين (وقائده الجنرال فيليب شترود) بالفيلق الحادي والعشرين.
- استبدل الفرقة 60 (جاءت من غزة) والفرقتين: العاشرة والـ 74، بالفرقتين 75 و52(*).

---

(33) العارف، م. ن. ص 380 ـ 381.

(*) أي أنه أحلّ الفيلق 20 محل الفيلق 21 والفرق 60 و10 و74 محل الفرقتين 75 و52، إذ دخلت «ياء» الترك على الفرق المتروكة أو المستبدَلة، قال تعالى: ﴿أتستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير﴾ (البقرة 2/ 61) وقال: ﴿ولا تتبدلوا الخبيث بالطيب﴾ (النساء 4/ 2).

خارطة رقم (6)
الهجوم البريطاني في الأول على القدس
/ نوفمبر 1917)



ـ ظلت الفرقة 53 مع كتيبة خيالة وبطارية مدفعية على طريق الخليل، شمال بئر السبع، كاحتياط.

وقد جرى في الفترة ما بين 27 ت 2/ نوفمبر و3 ك 1/ ديسمبر 1917 قتال مواقع بين الفريقين على الشكل التالي:

بتاريخ 27 ت 2/ نوفمبر: هاجمت القوات العثمانية المتمركزة على جبل بيتونيا فرقة الفرسان اليومانيين المتمركزة في بيت عور الفوقا فأجلتها عن مواقعها، واستطاعت أن تفتح ثغرة بينها وبين الفرقة 54 المتمركزة في السهل بين يافا والقدس، إلا أن الجنرال أللنبي أرسل قوات من فرقة الفرسان الأوستراليين ومن الفرقة 52 استطاعت سد هذه الثغرة.

بتاريخ 30 منه: أسرت القوات البريطانية نحو 300 جندي من القوات العثمانية في بيت عور الفوقا.

بتاريخ 1 ك 1/ ديسمبر (معركة شلتا): هاجم طابور من القوات العثمانية (فرقة الصاعقة 19) قوات من فرقة الفرسان الأوستراليين متمركزة في «البرج» جنوب «شلتا»، ولكن الفرقة 52 البريطانية أنجدت القوات الأوسترالية المهاجَمة وردّت القوات العثمانية على أعقابها بعد أن كبدتها خسائر فادحة (100 قتيل و172 أسيراً)، ولم يخسر البريطانيون في هذه المعركة سوى ستين قتيلاً.

وقامت القوات العثمانية، في اليوم نفسه، بهجمات على النبي صموئيل وبيت عور التحتا، فردت على أعقابها.

بتاريخ 3 منه: شنّت الفرقة 74 البريطانية هجوماً على بيت عور الفوقا فاحتلتها، إلا أنها عادت فأخلتها بسبب ما أصابها من نقص في العديد، إذ قتل منها، في هذه المعركة، ثلاثماية قتيل، مما جعلها غير قادرة على الاحتفاظ بالبلدة، خصوصاً وأنها محاطة بتلال مرتفعة من كل جانب، مما يجعل الدفاع عنها صعباً ومكلفاً[34].

(34) م. ن. ص 381 ـ 382.

ج ـ الهجوم الثاني على القدس
(7 ـ 9 كانون الأول/ ديسمبر 1917) واحتلال المدينة:

تسلم الجنرال «شتوود» قائد الفيلق العشرين، عملية الهجوم الثاني على القدس، فأعد للهجوم خطة جديدة، أجرى، على أساسها، تعديلات في مواقع القوات، على الشكل التالي:

ـ **خطة الهجوم: التمركز وتوزيع المهمات:**

ـ **الفرقة 74** (المتمركزة في منطقة «النبي صموئيل» شمال القدس، من النبي صموئيل شمالاً، إلى طريق القدس ـ يافا جنوباً:

- الاستعداد لشن هجوم رئيسي من الشمال إلى الجنوب، باتجاه القدس، وعلى محور طريق النبي صموئيل ـ القدس.
- تأمين الاتصال مع الفرقة العاشرة المتمركزة على يمينها.

ـ **الفرقة العاشرة:** ـ التمركز على يمين الفرقة 74 وتأمين الاتصال بهذه الفرقة.

- تأمين الدعم المباشر للفرقة 74 وتغطية جناحها الأيمن بالنار عند تقدمها باتجاه الهدف.

ـ **الفرقة 53:**

- الاحتشاد على طريق الخليل ـ القدس، جنوب القدس.
- الاستعداد لشن هجوم رئيسي من الجنوب إلى الشمال، باتجاه القدس، وعلى محور: الخليل ـ بيت لحم ـ القدس.
- مهاجمة الخطوط الدفاعية للعدو عند بيت لحم واحتلالها كمرحلة أولى من التقدم باتجاه الهدف.

ـ **الفرقة 60:**

- الاحتشاد جنوب طريق العنب ـ القدس، غرب القدس.
- الاستعداد لشن هجوم باتجاه القدس وعلى محور: العنب ـ القدس.
- تغطية طريق العنب ـ القدس، بالنار بواسطة الجناح الأيسر للفرقة.

- تأمين الاتصال مع الفرقة 53 بواسطة الجناح الأيمن للفرقة.

- المدفعية:

- تأمين إسناد مدفعي للقوات المهاجمة بواسطة:

- ثلاث بطاريات من المدفعية الجبلية.

- بطارية ونصف من المدفعية الخفيفة.

- ثلاث بطاريات من مدافع الهاوتزر.

- الهجوم:

- بتاريخ 7 كانون الأول/ ديسمبر: حاولت الفرقة 53 التقدم باتجاه الهدف (القدس) إلا أن الأمطار الغزيرة والوحول الكثيفة أعاقت تقدمها.

- بتاريخ 8 منه:

- قام لواء من الفرقة 60 (اللواء 179) بهجوم على «وادي صرار»، باتجاه القدس، واستولى على التلال الكائنة جنوب بلدة «عين كرم» الواقعة جنوب غربي القدس، وذلك في الساعة 3,30 من صباح اليوم نفسه.

- قامت الفرقة 74 (المؤلفة من الفرسان اليومانيين) بهجوم على الجيش العثماني السابع المتمركز على التلال الواقعة شمال غربي القدس، عند بيت أكسا، (وكان هذا الجيش الذي يعد نحو 15 ألفاً إلى 16 ألف مقاتل مشغولاً بتحصين دفاعاته على تلك التلال)، واستولت عليها.

- قام اللواء 180 من الفرقة 60 بالهجوم على بلدة «دير ياسين» وعلى مواقع أخرى للعثمانيين واقعة «شرق وادي الصرار»، واستولى عليها.

- تقدمت الفرقة 53 على المحور المحدد لها، ووصلت إلى «بيت جالا» شمال غربي بيت لحم.

هكذا أصبحت القدس مطوقة من جهات ثلاث:

- من الشمال والشمال الغربي، عند بيت أكسا، بواسطة الفرقة 74.

- ومن الغرب والجنوب الغربي، عند عين كارم ودير ياسين وشرق وادي الصرار، بواسطة الفرقة 60.

ـ ومن الجنوب، عند بيت جالا وبيت لحم، بواسطة الفرقة 53[35]. (انظر الخارطة رقم 7).

انسحاب العثمانيين من القدس:

أيقن العثمانيون، يوم 1917/11/8، أن القدس ساقطة لا محالة بيد البريطانيين. وفي صباح هذا اليوم، استدعى المتصرف العثماني «عزت بك» كلاً من مفتي المدينة «كامل أفندي الحسيني» ورئيس بلديتها «حسين بك الحسيني» وقال لهما:

«ها قد أحاط الجنود الإنكليز بالقدس، ولا بد من أن تسقط عما قليل بأيديهم، ولقد اعتزمت مغادرة المدينة بعد نصف ساعة، وأود أن ألقي بين أيديكم هذا الحمل الأدبي العظيم، ألا وهو تسليم المدينة للفاتحين». ثم أعطى رئيس البلدية وثيقة التسليم (باللغة التركية) وهذا نصها:

«إلى القيادة الإنكليزية

منذ يومين والقنابل تتساقط على القدس المقدسة لدى كل ملة، فالحكومة العثمانية، رغبة منها في المحافظة على الأماكن الدينية من الخراب، قد سحبت القوة العسكرية من المدينة، وأقامت موظفين للمحافظة على الأماكن الدينية، كالقيامة والمسجد الأقصى، وعلى أمل أن تكون المعاملة من قبلكم على هذا الوجه، فإني أبعث بهذه الورقة مع وكيل رئيس بلدية القدس، حسين بك الحسيني».

8/ 12/ 1333هـ

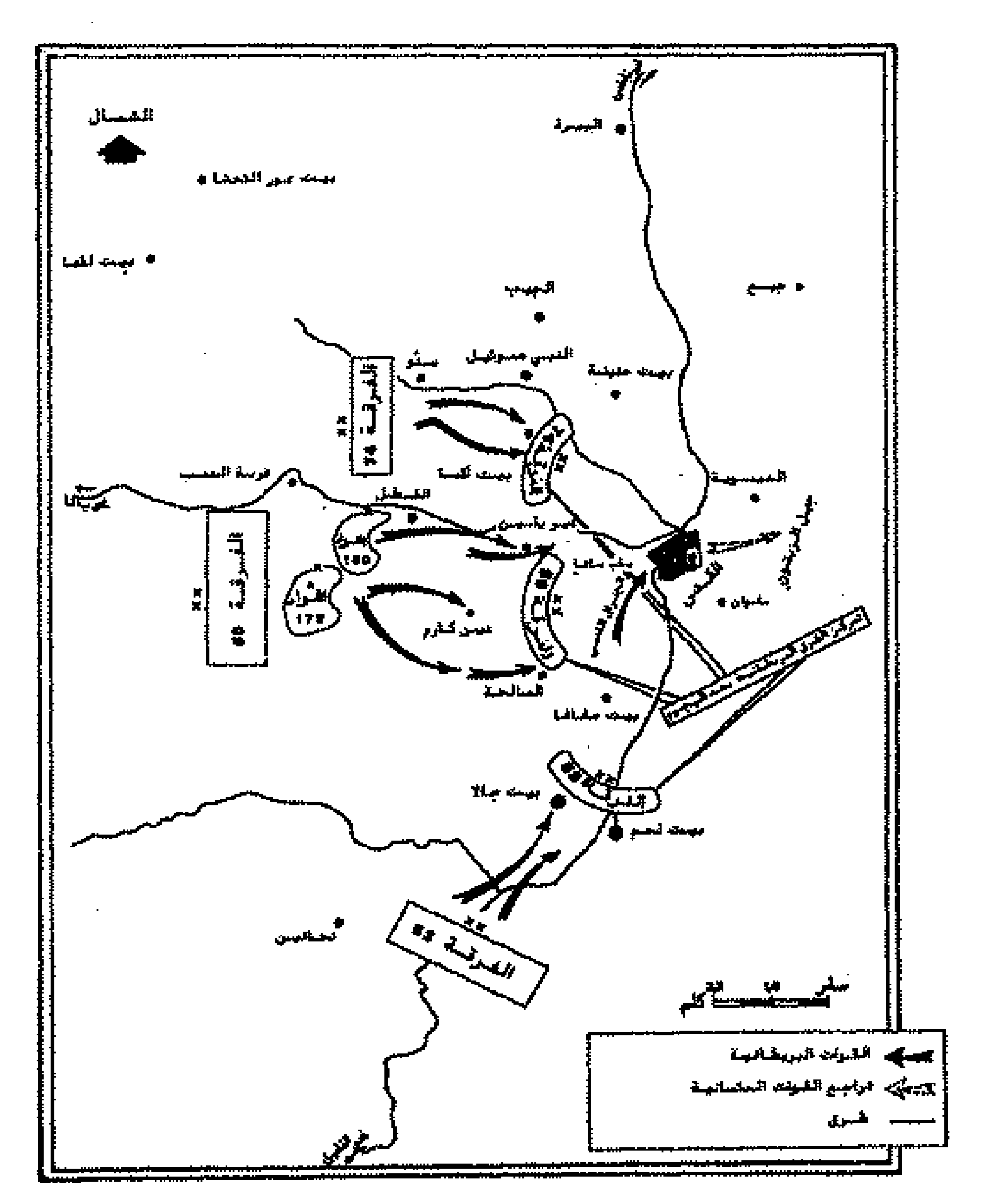
متصرف القدس المستقل

عزت[36]

(35) م. ن. ص 382 ـ 383.

(36) م. ن. ص 383.

خارطة رقم (7)
الهجوم البريطاني الثاني على القدس
(كانون الاول / ديسمبر 1917)



BAHAT, P129

وبعد أن سلم المتصرف رئيس البلدية وثيقة التسليم هذه، ترك المدينة إلى أريحا، بينما كان الجيش العثماني يستعد لإخلاء القدس إلى جبل الزيتون، حيث أخذ يقيم تحصينات له.

أما حامية القدس فقد بدأت بالانسحاب من المدينة ليل 8 ـ 9/ 11 «قسم منهم بهدوء، وقسم آخر بانهزام»[37]، ولم يبزغ فجر يوم الأحد في 9 كانون الأول/ ديسمبر 1917، حتى كان العثمانيون قد أنهوا انسحابهم من القدس تماماً[38].

ويقول المؤرخ عارف العارف، مستعيداً ذكرياته عما جرى يوم الأحد في 9/ 11:

«في نحو الساعة التاسعة (صباحاً) ذهب رئيس البلدية، يصحبه ابن أخيه توفيق صالح الحسيني، ومفتشا الشرطة عبد القادر العلمي وأحمد شريف، والشرطيان حسين العسلي وابراهيم الزعنون، وفريق من الشبان نذكر منهم: رشدي محمد المهتدي، وجواد اسماعيل الحسيني، وحنا اسكندر اللحام، وكان اللحام حاملاً العلم الأبيض، علامة التسليم. والتقى هؤلاء بقائد الفرقة الستين الجنرال شي (G^al. Shea) عند مستشفى «ولنغ» على طريق الشيخ بدر، للمغرب من المدينة، فسلموه وثيقة الاستسلام المتقدم ذكرها. فدخل الجيش الإنكليزي، في الساعة العاشرة والنصف، المدينة»[39].

وهكذا غادر العثمانيون المدينة المقدسة بعد أن كانوا قد حكموها طوال أربعة

---

(37) م. ن. ص. ن.
(38) م. ن. ص 384.
(39) م. ن. ص. ن. وجدير بالذكر أن المؤرخ عارف العارف (1892 ـ 1973) قد عاصر هذه الفترة وإن لم يكن قد عايش الأحداث في مدينة القدس، مسقط رأسه، إذ إنه كان، حينئذ، أسيراً في سيبيريا (1915 ـ 1917) وقد هرب من الأسر ولم يعد إلى القدس إلا بعد انتهاء الحرب عام 1918. وقد تسلم عارف العارف مناصب إدارية مهمة في الفترة ما بين 1921 و1948 خلال الحكم البريطاني لفلسطين، فكان حاكماً للواء القدس في عهد الانتداب، ثم رئيساً لبلديتها بعد الانتداب البريطاني (1950 ـ 1955) ثم وزيراً للأشغال. وقد ترك عارف العارف 18 كتاباً مطبوعاً و23 مجلداً مخطوطاً هي مذكراته اليومية من أحداث فلسطين (الزركلي، خير الدين، الأعلام، ج 3: 246). ولهذه الأسباب، يمكن القول إن ما قدمه المؤرخ عارف العارف من أبحاث تاريخية حول فلسطين والقدس لا بد من أن تحظى بثقة المؤرخ العربي والقارىء العربي معاً.

قرون كاملة (1517 ـ 1917م). (انظر الخارطة رقم 7).

وفي الحادي عشر من الشهر نفسه، دخل الجنرال أللنبي المدينة من باب يافا «وتسلم وثيقة الاستسلام أمام حشد عريض من الناس»[40].

والجدير بالذكر أنه كان لا بد للجنرال البريطاني «أللنبي» أن يستذكر، عندها، احتلال أسلافه الصليبيين للمدينة المقدسة، منذ ثمانية قرون، فيعلن، بتبجح وصلف: «اليوم، انتهت الحروب الصليبية».

---

(40) Bahat, Op. Cit., p. 129.

الباب الثاني

حروب القدس
في التاريخ العربي الحديث

الفصل الأول:

الاحتلال الصهيوني للقدس الغربية

الفصل الثاني:

الاحتلال العربي للقدس الشرقية

الفصل الثالث:

الاحتلال الصهيوني للقدس الشرقية

الفصل الأول

الاحتلال الصهيوني للقدس الغربية

الاحتلال الصهيوني للقدس الغربية (1948م = 1368هـ):

1 ـ القدس الغربية عشية الاحتلال الصهيوني:

تقع القدس الجديدة خارج أسوار القدس القديمة، وحولها، وقد بنيت في عهود حديثة، بدءاً من القرن الميلادي التاسع عشر، واكتظت بالسكان والأبنية في فترة الانتداب البريطاني على فلسطين، وبتخطيط مرسوم من قبل الدولة المنتدبة، بعد السماح بهجرة يهودية منظمة وكثيفة إلى هذه البلاد. وقد أطلق اسم «القدس الغربية» على الأحياء التي احتلها اليهود من «القدس الجديدة» في حرب عام 1948، بينما أطلق على القسم الآخر من المدينة (القديمة والجديدة) اسم «القدس الشرقية».

كان البريطانيون قد قدموا فلسطين هدية لليهود، على لسان «بلفور» وزير خارجيتهم عام 1917، وتعهدوا، في «صك الانتداب الانكليزي على فلسطين» الذي أقرته عصبة الأمم عام 1922، بتنفيذ هذا الوعد، وبإدارة البلاد بشكل «يكفل إنشاء الوطن القومي اليهودي» في فلسطين[1].

---

(1) المادة الثانية من صك الانتداب البريطاني على فلسطين، وانظر النص الكامل لهذه الوثيقة في: سويد، ياسين، مؤامرة الغرب على العرب، وثيقة رقم (3)، ص 387 ـ 393.

لذا، ما إن احتل البريطانيون فلسطين حتى شرعوا بإعدادها لهذا الغرض، ففتحوا أبواب الهجرة لليهود على مصاريعها، وعهد الجنرال «أللنبي»، بعد أن احتل القدس مباشرة، أي (عام 1918)، إلى أحد المهندسين البريطانيين المدعو «مكلين Mclean»، بتخطيط جديد للمدينة بحيث قسمت إلى أربعة أقسام هي: المدينة- القديمة (داخل الأسوار)، والمناطق المحيطة بها، والقدس الشرقية (العربية)، والقدس الغربية (اليهودية). وبينما وضع البريطانيون قيوداً شديدة على البناء في المناطق المحيطة بالقدس القديمة وفي القدس العربية، شجعوا، بعكس ذلك، البناء الحرّ في القدس اليهودية، وخصوصاً عندما أعلنوها «منطقة تطوير» وإنماء[2]، وذلك بغية أن يتاح لليهود تكثيف وجودهم في المدينة المقدسة وحولها، وإضعاف الوجود العربي فيها.

وكانت القدس، بقسميها، القديم والجديد، وقبيل الاحتلال البريطاني لفلسطين، ذات غالبية سكانية عربية واضحة، إلا أن الهجرة اليهودية إلى فلسطين، وقد شجعها الحكم البريطاني طيلة ثلاثين عاماً (1918 ـ 1948) جعلت اليهود أكثرية، في معظم أنحاء فلسطين، وخصوصاً القدس، ذلك أن بريطانية، الدولة المنتدبة على فلسطين، أخذت على عاتقها إعداد البلد العربي الذي انتدبت نفسها لحكمه، لكي يكون وطناً قومياً لليهود، فشرعت في منح هذه الطائفة التسهيلات اللازمة لتحقيق هذا الهدف «سواء ببناء المزيد من الأحياء» اليهودية في مدينة القدس، أو عن طريق «التلاعب بحدود البلدية» بشكل يجعل الأحياء العربية فيها «كالطور وسلوان والعيسوية وشعفاط وبيت صفافا» خارج حدود المدينة، بينما يدخل في حدودها أحياء أخرى يهودية جديدة، مما يتيح لليهود «تحقيق أكثرية سكانية في المدينة والهيمنة على الحكم المحلي للبلدية». وقد أدى تكاثر الأحياء والمستعمرات اليهودية حول القدس إلى فقدان المدينة صفتها الأساسية وهي كونها «عاصمة فلسطين» وسهّل، بالتالي، إعلانها كعاصمة للدول العبرية[3].

---

(2) جريس، سمير، القدس، المخططات الصهيونية، الاحتلال، التهويد، ص 23. نقلاً عن: Henry Kendall, «Jerusalem; the City Plan», Preservation and developement during the British Mandate 1918-1948, p. 4.

(3) بحيري، المرجع السابق، ص 39، وجريس، سمير، المرجع السابق، ص 30.

وقد أخذت الهجرة اليهودية بالازدياد المطرد خلال الانتداب البريطاني، وعلى الشكل التالي:

- من عام 1919 حتى عام 1923 وصل إلى فلسطين 35 ألف مهاجر يهودي،
- ومن عام 1924 حتى عام 1931 وصل إليها 82 ألف مهاجر،
- ومن عام 1932 حتى عام 1938 وصل إليها 217 ألف مهاجر،
- ومن عام 1939 حتى عام 1945 وصل إليها 92 ألف مهاجر،
- ومن عام 1946 حتى عام 1948 وصل إليها 61 ألف مهاجر[4].

فيكون مجموع المهاجرين اليهود الذين وصلوا إلى فلسطين، خلال فترة الانتداب البريطاني عليها، نحو نصف مليون يهودي (487 ألفاً)، مما جعل عدد السكان اليهود في فلسطين، يرتفع من 84 ألفاً (عام 1922) إلى 650 ألفاً (عام 1948) مقابل ارتفاع عدد السكان العرب فيها من 668 ألفاً (عام 1922) إلى مليون و415 ألفاً (عام 1948)[5]. وفي تقديرات أخرى أن عدد اليهود ارتفع، في فلسطين خلال الفترة نفسها، (وحتى عام 1948) إلى نحو 717 ألفاً[6].

وقد تأثر تطور نمو السكان في مدينة القدس، بهذه الهجرة، تأثراً كبيراً، ويبين لنا الجدول التالي تطور سكان المدينة في الفترة ما بين 1922 و1946:

السنة	يهود	مسلمون	مسيحيون	آخرون	المجموع الكامل
1922	33971	13413	14699	495	62578
1931	51222	19894	19335	52	90503
1944	97000	30630	29350	100	157080
1946	99320	33680	31330	110	164440

---

(4) مؤسسة الدراسات الفلسطينية والجيش اللبناني، القضية الفلسطينية والخطر الصهيوني، ص 130.

(5) م. ن. ص 129 ـ 130، اقتباساً عن جداول أوردها الدكتور يوسف صايغ في كتابه «الاقتصاد الإسرائيلي».

(6) جريس سمير، المرجع السابق، ص 24.

مما جعل نسبة السكان اليهود فيها ترتفع إلى 40، 60٪ من مجموع السكان (والباقي، أي نحو 39,5٪ عرب مسلمون ومسيحيون)[7]، ذلك أن عدد السكان اليهود ارتفع، في هذه المدينة، من نحو 34 ألف نسمة عام 1922 إلى نحو ماية ألف نسمة عام 1946 مقابل ارتفاع عدد السكان العرب (مسلمين ومسيحيين) فيها من 28 ألف نسمة عام 1922 إلى 65 ألف نسمة عام 1946.

وفي توزيع لهذه الأعداد على أقسام القدس، نجد أنه، وفقاً لإحصاءات وردت في تقرير لمندوبي بريطانيا في هيئة الأمم المتحدة في تشرين الثاني/ نوفمبر، عام 1947، كان في القدس القديمة 36 ألف نسمة (33600 من العرب و2400 من اليهود)، وفي القسم العربي من القدس الجديدة 39 ألف نسمة (30 ألفاً من العرب و9 آلاف من اليهود)، وفي القسم اليهودي من القدس الجديدة 89500 نسمة (1500 من العرب، و88 ألفاً من اليهود)، فيكون مجموع سكان القدس في هذا التاريخ (1947)، أي في نهاية الحكم البريطاني لفلسطين: 164500 نسمة (منهم 65100 نسمة من العرب و99400 نسمة من اليهود)[8].

كان في القدس، إذن، عشية اندلاع الحرب العربية ـ الإسرائيلية الأولى (عام 1948) نحو ماية ألف يهودي مقابل خمسة وستين ألفاً من العرب، وكان في القدس الجديدة منهم، عشية اندلاع هذه الحرب، نحو 97 ألف يهودي مقابل نحو 31500 من العرب، إلا أن معظم هؤلاء العرب نزحوا عن القدس الجديدة إلى القدس القديمة، قبيل اندلاع القتال مباشرة، وفي أثناء القتال.

أما مساحة القدس فقد اتسعت كثيراً إبان الحكم البريطاني ووفقاً للتخطيط الذي وضعه «مكلين»، وبسبب التدفق الغزير للمهاجرين اليهود إلى فلسطين (بما فيها القدس)، إذ بلغت مساحتها، في أواخر عهد الانتداب، 19331 دونماً، منها 868 دونماً داخل أسوار المدينة القديمة، والباقي، أي 18463 دونماً خارج تلك الأسوار. وكان لليهود من هذه المساحة 4835 دونماً فقط، بينما كان للعرب 11191 دونماً، أما الباقي وهو 3305 دونمات فكان لطرقات المدينة وساحاتها العامة، وذلك بحسبما ورد في سجلات «مصلحة الأراضي والتسوية» التابعة

(7) م. ن. ص. ن.

(8) العارف، المفصل في تاريخ القدس، ص 430.

لحكومة فلسطين، عام 1947[9].

وفي نظرة إجمالية لخارطة القدس بقسميها: القديم والجديد وعشية حرب عام 1948، نجد مواقع ذات أهمية تاريخية واستراتيجية قصوى تكتنف المدينة القديمة وتحيط بأسوارها، ومن هذه المواقع:

أ ـ في الشمال الشرقي:

- جبل سكوبوس (أو المشارف) وعليه: الجامعة العبرية ومستشفى هداسا.
- جبل الزيتون (أو الطور) عند الزاوية الشمالية الشرقية من السور.

ب ـ وفي الشمال:

- حي الشيخ جراح، والمتحف الفلسطيني.

ج ـ وفي الشمال الغربي:

- حي المصرارة.

د ـ وفي الغرب:

- حصن داود، ومرتفع تقع عليه كنيسة «نوتردام دي فرانس».
- مستعمرة مونتيفيوري اليهودية (وتدعى أيضاً مستعمرة يمين موشه)، وفندق الملك داود.

هـ ـ وفي الجنوب:

- جبل صهيون وعليه مقام النبي داود وكنيسة نياحة العذراء.
- جبل المكبر وعليه: دار الحكومة والمدرسة الزراعية.
- وادي الربابة: جنوب جبل صهيون، بين جبل المكبر وجبل صهيون.
- حي الثوري: جنوب وادي الربابة.

و ـ وفي الشمال الشرقي:

- المقبرة الإسلامية[10].

---

(9) م. ن، ص. ن.

(10) انظر الخارطة في: التل، عبد الله، كارثة فلسطين، ج 1 بعد ص 112.

كما نجد في القدس الجديدة (خارج أسوار القدس القديمة) أحياء تسمى (قرى أو حارات)، ومنها:

للعرب: باب الساهرة، والشيخ جراح، وكولونية اليونان، ووادي الجوز، والمصرارة، والنبي داود، وماملا، ودير أبي ثور، وادي النياح، والبقعة الفوقا، والبقعة التحتا، والطالبية، والنمرية، والقطمون، والشيخ بدر، والراتزبون.

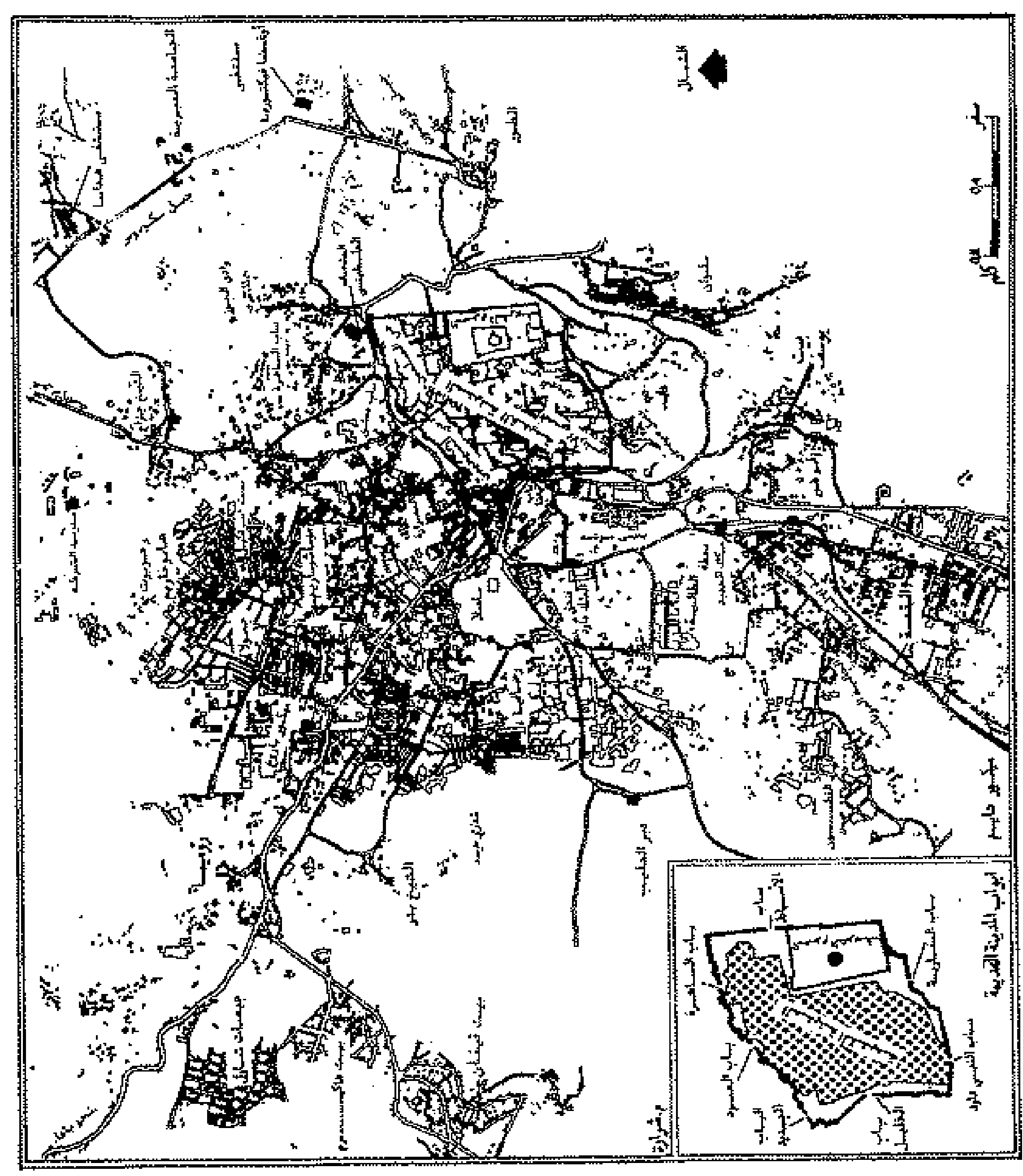
ولليهود: روميما، ورحافيا، ونحلات صادق، وتزكرت موشة، وتالبيوت، وسنها داريا، ونبي شعنان، ورحاما، وآرفونا، ويمين موشه (مونتيفيوري)، وجيعات شاول، وزكرون يوسف، وبيت اسرائيل، وكرم ابراهام، ونحلات صهيون، وميكور حاييم، وشخونات هابوعاليم، وبيت هاكيرم، وجعولا، وقريات شموئيل، وشعاري حيسد، وميشورم، وميكور باروخ[11]. (انظر المخطط رقم 10).

2 ـ مقدمات الاحتلال:

رضخت المنظمة الدولية المنشأة حديثاً (الأمم المتحدة) للضغوط الصهيونية والأميركية المتعاونة مع الدولة البريطانية المنتدبة على فلسطين يومذاك، فأقرت، في التاسع والعشرين من تشرين الثاني/ نوفمبر 1947، مشروعاً انتزعت بموجبه جزءاً من فلسطين العربية لتقيم عليه دولة يهودية، بينما أبقت الجزء الآخر للفلسطينيين يتدبرون فيه أمر دولة لهم، ووضعت القدس تحت إشراف دولي، فوافق اليهود على قرار التقسيم هذا ولكنهم رفضوا تدويل القدس. أما العرب، فرفضوا القرار الدولي كله جملة وتفصيلاً، وهكذا بدأ الفريقان العربي واليهودي يستعدان لحرب شرسة وطويلة الأمد. والقدس، بما يجاورها من مواقع، ذات موقع استراتيجي وحربي ممتاز، ذلك أنها محاطة بالتلال، فإذا أمكن الاحتفاظ بهذه التلال فإن القدس لا تسقط، وإذا سقطت فإن الضفة الغربية معرّضة كلها للسقوط بسهولة، فهي، في الواقع، رقبة الضفة الغربية وجسر العبور إليها، بل

(11) العارف، المرجع السابق، ص 431.

مخطط رقم (15)
مدينة القدس
عشية الحرب العربية ـ الصهيونية الأولى
ـ 1948 ـ



BAHAT, PP. 130, 132

«ومفتاح الوضع العسكري»[12]، فإذا استطاع اليهود تطويق تلك الرقبة أو الاستيلاء على ذلك المفتاح أو عبور ذلك الجسر، فباستطاعتهم عندئذٍ «أن يندفعوا نزولاً على الطريق الرئيسي إلى أريحا» حيث «ينقلب الموقف في فلسطين رأساً على عقب»[13]، ولا يبقى حائل يحول بينهم وبين الوصول إلى نهر الأردن. إضافة إلى أن كلاً من الفريقين اللذين يتنازعان فلسطين يعتبر المدينة المقدسة عاصمة أبدية لدولته، لذا، فهو مستعد لأن يقاتل بضراوة في سبيل امتلاكها. وعلى هذا، فقد بدأ الفريقان يحشدان قواتهما، منذ إعلان قرار التقسيم وبدء القتال، للسيطرة على المدينة.

3 ـ الاحتلال (19 أيار 1948):

سبقت المعركة الفاصلة في القدس الجديدة مناوشات حامية بين العرب واليهود في معظم أحياء هذه المدينة، وأهمها تلك التي جرت بعد هزيمة المناضلين العرب في معركة القسطل وسقوط قائدهم عبد القادر الحسيني شهيداً فيها بتاريخ 8 نيسان/ أبريل 1948، ونخص بالذكر من تلك المعارك: معركة النبي صموئيل بتاريخ 23/ 4/ 1948، ومعركة حي الشيخ جراح بتاريخ 26/ 4/ 48، ومعركة حي القطمون بتاريخ 29/ 4/ 1948.

ـ اليهود: أعد اليهود العدة لاحتلال القدس قبل جلاء الإنكليز منها، بادئين بالقدس الجديدة، ووضعوا، لذلك، خطة أطلقوا عليها اسم «عملية يبوسي» وكانت تقتضي:

- احتلال «النبي صموئيل» المشرف على المدينة من الجهة الشمالية.
- احتلال حي «الشيخ جراح» بغية فتح الطريق إلى جبل سكوبوس (أو المشارف).
- احتلال حي «القطمون» المشرف على القدس الغربية والجنوبية، وكان هذا الحي يفصل بين حي مكور حاييم، اليهودي، والقدس.

---

(12) Glubb, J. Bagot, A Soldier with the Arabs, p. 107.

(13) Ibid.

وقد كلف «يتسحاق ساديه» لقيادة هذه العملية، يعاونه «دايفيد شلتيئيل» كرئيس لهيئة الأركان، كما كلفت وحدات من «البالماخ» (الصاعقة) القيام بهذه المهمة[14].

ـ العرب: يذكر عارف العارف أن عدد المناضلين العرب الذين احتشدوا في القدس للدفاع عنها (في أواخر آذار عام 1948)، لم يتعد الـ 586 مقاتلاً، وربما زاد عددهم أحياناً حتى وصل إلى 750 مقاتلاً، إلا أن هؤلاء «لم يكونوا كلهم مسلحين» بل إنهم كانوا «يتناوبون العمل» لقلة في السلاح، وكان في القرى المجاورة للقدس نحو 304 مقاتلين (في بيت صفافا وصور باهر وسلوان وشعفاط) مع عدد من الرشاشات (19 رشاشاً منها ثمانية في القدس) ومدافع الهاون (8 مدافع) وعدد من رشاشات «البرن والهوتشكس والبراونتغ»[15]. وقد تسلم قيادة حامية القدس في 30 نيسان، بعد استشهاد عبد القادر الحسيني (في 8 نيسان)، الرئيس الأول عبد الحميد الراوي (عراقي) ومعه الرئيس فاضل عبد الله رشيد (عراقي، قائد سرية في الروضة وقائد حامية القدس قبل وصول الراوي)، وحددت مهمته بما يلي: «الدفاع عن الأحياء العربية (في القدس) واحتلال المراكز المهمة التي يحتلها الجيش البريطاني، وقطع طريق تل أبيب ـ القدس»، ثم زُوّد «ببعض العتاد، وبخمسين بندقية تشيكوسلوفاكية ورشاشة من طراز هوتشكس و3 آلاف طلقة و80 قنبلة هاون و100 رماية بنادق»[16]. وكان من هذه القوات في النبي صموئيل 40 مقاتلاً[17] وفي حي الشيخ جراح 40 مقاتلاً وفي حي القطمون 125 مقاتلاً[18]. وكانت حامية القدس هذه قد عززت في 12 نيسان بثلاثة فصائل من جيش القاوقجي (قائد الجبهة الشمالية)، وهذه الفصائل هي «فصيل حطين وفصيل الشراكسة وفصيل لبنان» فاحتلت هذه الفصائل مراكزها، في اليوم المذكور، في «النبي صموئيل وبدو والآكام المجاورة»

(14) قيادة الجيش الإسرائيلي، حرب فلسطين، 1947 ـ 1948، الرؤية الإسرائيلية الرسمية، ص 472، والعارف، عارف، النكبة، ج 1: 184.
(15) العارف، م. ن. ج 1: 149 ـ 150.
(16) م. ن. ص 182.
(17) م. ن. ص 183.
(18) م. ن. ص 149.

وسيطرت، بذلك، على «القطاع الشمالي من القدس، والطرق المؤدية إليها من الشمال والغرب»[19].

العمليات العسكرية:

أ ـ عملية يبوسي (اليهودية): (انظر الخارطة رقم 8)

(1) معركة النبي صموئيل (23/ 4/ 1948):

حاول اليهود البدء بتنفيذ عملية «يبوسي» فشنوا ليل 23/ 4 هجوماً على «النبي صموئيل» إلا أن هذا الهجوم فشل ومنيت القوات المهاجمة «بخسائر فادحة» مما اضطرها إلى الانسحاب «قبل طلوع النهار»[20]. وتعزو قيادة الجيش الإسرائيلي هذا الفشل إلى الأسباب التالية:

- تأخر وحدة «البالماح» في الانطلاق إلى الهدف.
- مجابهة القوات المهاجمة بنيران قوية من الحامية العربية.
- اصطدام التعزيزات (من المصفحات والأسلحة الثقيلة) التي خفت لنجدة القوات المهاجمة على طريق الرادار نحو بيت «اكسا» بكمين «وحواجز حجارة ضخمة»، مما أدى إلى قتال بين هذه التعزيزات والكمين.
- تدخل الجيش الانكليزي المتمركز في «الرادار» ضد نجدة من «البالماح» كانت قد أرسلت للتدخل وتعزيز القوات المشتبكة مع الكمين.

وتذكر المصادر اليهودية أن عدد القتلى اليهود في هذه المعركة بلغ 35 رجلاً على رأسهم قائد الوحدة المهاجمة «شموئيل بوزنسكي»[21].

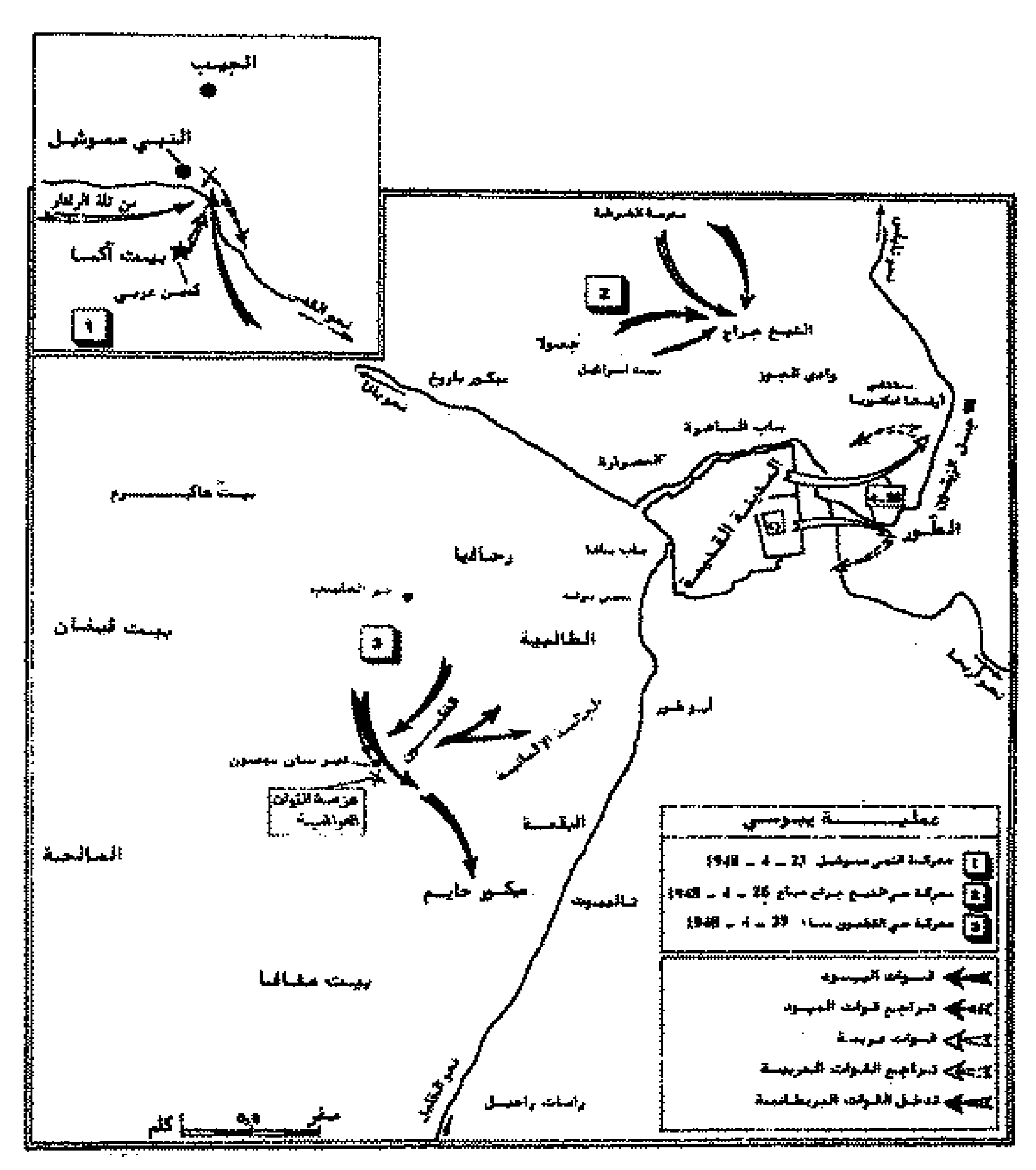
(2) معركة حي الشيخ جرّاح (صباح 26/ 4/ 48):

شنت وحدة من «البالماح» هجوماً على «حي الشيخ جرّاح» صباح 26/ 4/ 48 واستطاعت أن تحتل قسماً منه، بعد معركة عنيفة مع حامية الحي التي بلغ

---

(19) م. ن. ص 183.
(20) قيادة الجيش الإسرائيلي، المرجع السابق، ص 472.
(21) م. ن. ص 472 ـ 473.

خارطة رقم (8)
عملية يبوسي
(1948)



BAHAT , P .34

عديدها خمسين مقاتلاً من رجال «الجهاد المقدس» ومعهم 35 من جيش الإنقاذ بقيادة الملازم الأول موسى عبد الهادي من فوج اليرموك الثالث[22]، ولكن القوات الانكليزية التي كانت متمركزة في «كلية الشرطة» وفي موقع آخر في حي «بيت يسرائيل» أجبروا الوحدة اليهودية المهاجمة على أن تخلي المواقع التي احتلتها بحجة أن هذه المواقع تقع على طريق خروج تلك القوات من القدس، فتمّ الامتثال للضغوط البريطانية، إلا أن القوات اليهودية عادت فاحتلت تلك المواقع في الحي المذكور (الشيخ جرّاح) وفي «كلية الشرطة» (أو «مدرسة الشرطة»)، وفشلت المحاولات العربية لاحتلال مستشفى «أوغستا فيكتوريا» واحتلال قرية «الطور» لقطع الطريق بين البحر الميت والقدس[23]، وظلت القوات اليهودية في مراكزها في الحي المذكور (الشيخ جرّاح) إلى حين جلاء الانكليز عن فلسطين، حين جرى قتال عنيف بين القوات اليهودية المحتلة والمناضلين العرب (في 14 أيار) انتهى باحتلال اليهود «معظم منازل الحي، ومنها مدرسة البوليس» إلا أن الجيش العربي الأردني عاد فطرد اليهود من هذا الحي في 20 أيار[24].

(3) معركة حي القطمون (مساء 29/ 4/ 48):

شنّت «الكتيبة الرابعة التابعة للبالماح» هجوماً على حي القطمون مساء 29/ 4/ 48، وكانت حامية هذا الحي مؤلفة من «وحدة جنود عراقيين». وقد دارت بين الوحدة اليهودية والوحدة العراقية معركة قاسية حول دير يدعى «دير سان سيمون» كان يشكل الهدف الأول للهجوم اليهودي، واستطاعت الوحدة اليهودية احتلال هذا الدير خلال الليل (ليل 29 ـ 30/ 4) ولكن الوحدة العراقية شنّت «هجوماً مضاداً قوياً» على الوحدة اليهودية المحتلة، وجرت خلال ذلك معركة سقط فيها «مقاتلون كثيرون» داخل أسوار الدير، وكادت أن تنسحب الوحدة اليهودية من الدير «في لحظة معينة» نظراً لشدة الهجوم العربي عليها، لكن نبأ شاع «بأن العرب يهربون من الحي» أعطى اليهود شحنة من التفاؤل

(22) العارف، النكبة، ج 1: 190.
(23) قيادة الجيش الإسرائيلي، المرجع السابق، ص 473.
(24) العارف، النكبة، ج 1: 191 ـ 192.

فالصمود «فأوقف الانسحاب، واستمرت المعركة، وانطلق اليهود من الدير فاحتلوا البيوت بيتاً بيتاً والشوارع شارعاً شارعاً»[25]. وما أن حان مساء يوم 30/ 4 حتى كان «حي القطمون» قد سقط كله بأيدي «الكتيبة الرابعة التابعة للبالماح»، ومن هذا الحي، انطلقت تلك الوحدة، فيما بعد، لتحتل منازل «المستعمرة الألمانية»[26] (أو الجالية الألمانية).

ب ـ عملية «كلشون» أو «المذراة»:

لم يعد أمام اليهود سوى القدس نفسها، وكان عليهم (وعلى قوات الهاغاناه خصوصاً) انتظار خروج البريطانيين من المدينة في 14 أيار 1948. وبانتظار حلول ساعة الصفر هذه وضع اليهود، لاحتلال القدس، خطة دعوها «عملية كلشون أو المذراة» وتتلخص بما يلي:

تتحرك القوات اليهودية باتجاهات ثلاثة، بشكل «مذراة» بثلاثة رؤوس:

- الرأس الأول، ويشتمل على: سريتي حراسة، وفصيلة ميدان، ومفارز من رماة مدافع الهاون ووحدات «الايتسل»، ومهمته: الاندفاع شرقاً للاستيلاء على «منطقة الشيخ جراح وكلية الشرطة» وكانت لا تزال بيد الجيش البريطاني.
- الرأس الثاني، ومهمته: الاندفاع في الوسط للاستيلاء على «المنطقة الأمنية» التي لا تزال بيد الجيش البريطاني، حتى الوصول إلى «سور البلدة القديمة».
- الرأس الثالث، ويشتمل على: سريتي حراسة و4 فصائل ميدان، ومهمته: الاندفاع جنوباً للاستيلاء على المعسكرات الجنوبية للجيش البريطاني «وحي البقعة، ومحطة القطار» حتى الوصول إلى «حي أبو طور»[27].

لقد «حل مساء 14 أيار/ مايو من دون أن يكون العرب مستعدين له»[28] هذا

---

(25) قيادة الجيش الإسرائيلي، المرجع السابق، ص 473.

(26) م. ن. ص. ن.

(27) م. ن. ص 474، ولم يذكر المصدر الإسرائيلي تشكيل قوة الرأس الثاني.

(28) م. ن. ص. ن.

ما يقوله تقرير داخلي لمنظمة «الهاغاناه» الصهيونية في القدس عن «ساعة الصفر» التي حلّت فعلاً ولم يكن العرب مستعدين لها، فكانت الكارثة.

ففي الدقيقة الأولى من صباح 15 أيار 1948، أعلنت بريطانيا إنهاء انسحاب قواتها من فلسطين وانتهاء مهمتها كدولة منتدبة على هذا القطر العربي، ملتزمة، في الظاهر، بقرار التقسيم الذي صدر عن الأمم المتحدة، إلا أنها، في الواقع، كانت قد أعدّت اليهود وأهلتهم، خلال ثلاثين عاماً من الانتداب، لحكمه وإنشاء دولتهم فيه. وعلى هذا، ففي الدقيقة الأولى من صباح اليوم نفسه، أعلن قيام الدولة الإسرائيلية، وكانت المناوشات بين العرب واليهود، في فلسطين، قد بدأت منذ زمن بعيد، إلا أنها أخذت تتطور وتتسع حتى أصبحت تتخذ شكل القتال الفعلي كلما اقترب موعد جلاء البريطانيين عن هذا البلد.

وكانت بريطانيا، متذرعة بقرار التقسيم، قد أصرّت على أن لا يبقى جندي أردني في فلسطين، العربية منها أو اليهودية (وفقاً لقرار التقسيم)، فانسحب الجيش الأردني، بكامله، إلى الضفة الشرقية من نهر الأردن قبل 14 أيار 1948. وهكذا، ما أن حل منتصف ليل 15 أيار، موعد جلاء الجيش البريطاني وانتهاء الانتداب على فلسطين، حتى كانت القدس، كلها، خالية من المقاتلين العرب، سوى قلة من قوات «الجهاد المقدس» الذين كانوا يفتقرون إلى كل شيء، إلى الذخيرة والعتاد والسلاح، بالإضافة إلى الخبرة القتالية.

ويستطرد تقرير «الهاغانا»، المشار إليه أعلاه، في وصف حالة المناضلين العرب المدافعين عن مدينة القدس فيقول:

«كان قسم من قواتهم في القدس قد أرسل إلى غوش عتسيون للحلول محل جنود «الفيلق العربي»، واحتلالاتهم الصغيرة هنا وهناك تمت، أحياناً كثيرة، بمبادرة فردية من القادة المحليين. ولم يكن فاضل بك، قائد القوات العربية في القدس، مسيطراً، على رجاله، وكان العرب، في المدينة، عملياً، ينتظرون أن يقوم جنود «الفيلق العربي» باحتلال المدينة وانتزاعها من يد اليهود»[29].

وهكذا، فقد احتل اليهود المناطق التي كانت بيد الجيش البريطاني «من دون

---

(29) م. ن. ص. ن.

أية مقاومة تذكر من جانب العرب» باستثناء «معسكر العلمين» (شمال تالبيوت) الذي تمركزت فيه قوة عراقية مؤلفة من 300 جندي، فقد دافعت هذه القوة عن مراكزها «بعناد» واستطاعت الاحتفاظ بالمعسكر رغم الهجمات التي شنّها اليهود عليه «بنيران قوية» ولم ينسحبوا منه إلا بعد أن قصف «بالدافيدكا، ومدافع الهاون من عيار 3 بوصات»، وكذلك مبنى «نوتردام» الذي تمركز فيه متطوعون عراقيون استطاعوا بنيرانهم أن يوقفوا تقدم «وحدة من وحدات الايتسل»، ولم تنجح هذه الوحدة في احتلال المبنى إلا بعد أن عززت بفصيلتين ميدانيتين دفعتا لمساندتها واحتلال المبنى[30].

وانتهت «عملية كلشون أو المذراة» باحتلال اليهود للقدس الجديدة خلال ستة أيام فقط، إذ إنه لم يبزغ فجر يوم 4/19 حتى كان اليهود قد احتلوا أهم المناطق الواقعة خارج سور المدينة القديمة وهي: «معسكر اللنبي، معسكر العلمين، دير أبوطور، النبي داود، المسكوبية، المستشفى الإيطالي، نوتردام، المصرارة، سعد وسعيد، الشيخ جرّاح، ولم يبق للعرب من الأحياء، خارج السور، إلا باب الساهرة ووادي الجوز»[31].

وفي التاريخ نفسه (4/19)، وجه «دايفيد شلتيئيل، قائد الجيش العبري في القدس» إلى «جميع قوات الهاغاناه المقاتلة» أمراً يومياً خاصاً يهنئهم فيه بالنصر، ويدعوهم للصمود والاستبسال أمام المدرعات العربية القادمة لقتالهم في القدس «عاصمتنا الأبدية»[32]. (انظر الخارطة رقم 9).

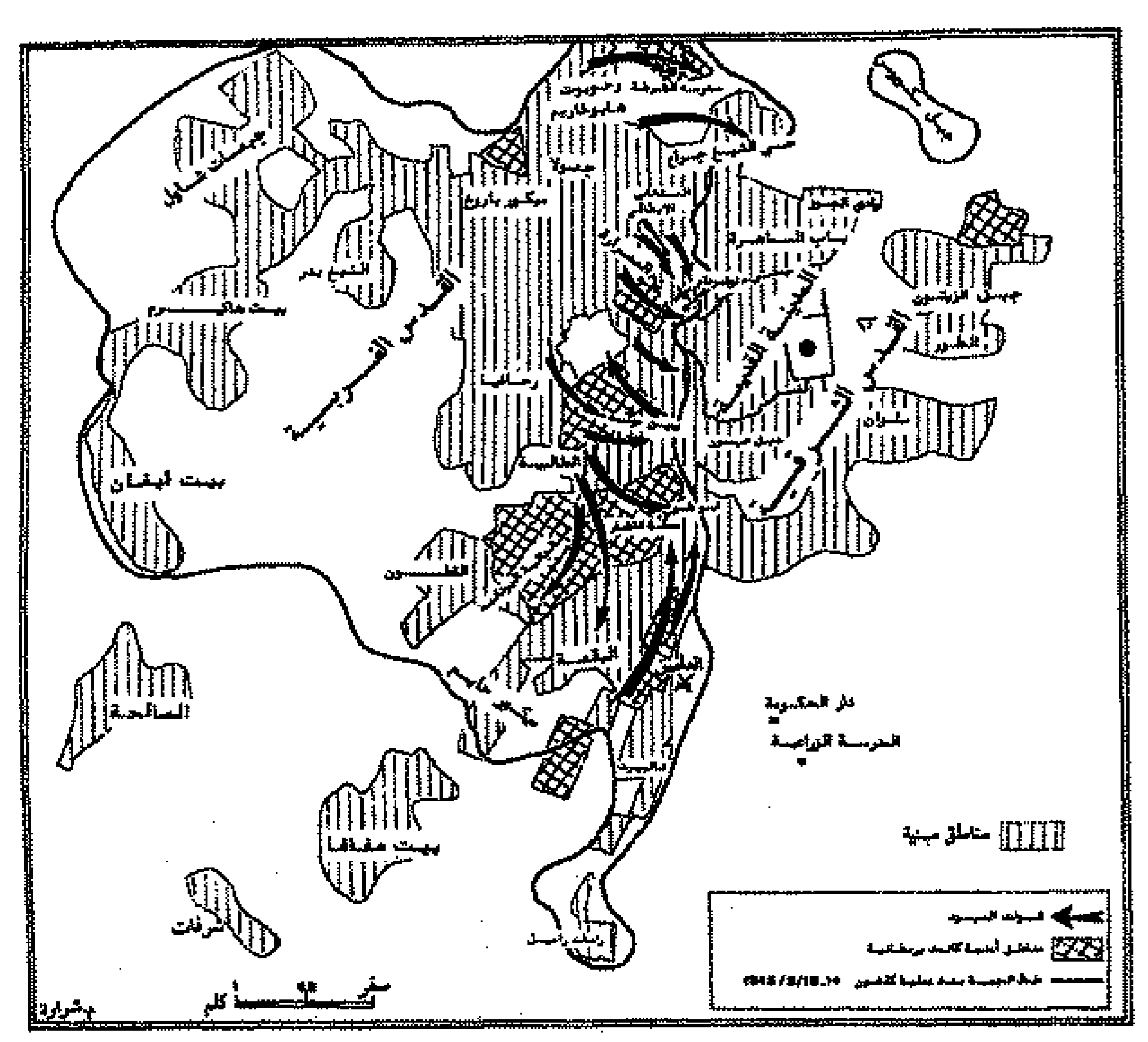
---

(30) م. ن. ص 475.

(31) التل، عبد الله، كارثة فلسطين، ج 1: 99، وقيادة الجيش الإسرائيلي، المرجع السابق، ص 475.

(32) قيادة الجيش الإسرائيلي، م. ن. ص. ن.

خارطة (9)
عملية كلشون (او المذراة)
ـ 1948 ـ



BAHAT , P . 134

الفصل الثاني

الاحتلال العربي للقدس الشرقية

الاحتلال العربي للقدس الشرقية (1948م = 1368هـ)

تضم القدس الشرقية مدينة القدس القديمة مع ما يحيط بها من أحياء القدس الجديدة من الجهات الشمالية والشرقية والجنوبية، تلك التي بقيت بأيدي العرب بعد حرب عام 1948.

1 ـ القدس الشرقية عشية الاحتلال العربي:

القدس القديمة:

يحيط بالقدس القديمة، حالياً، سور قديم رافق المدينة منذ إنشائها وكان يهدم في الحروب المتتالية ثم يعاد بناؤه، وقد أعيد بناؤه للمرة الأخيرة في عهد السلطان سليمان القانوني عام 1542م[1]، وتقع ضمن هذا السور الأماكن المقدسة للديانات الإسلامية والمسيحية واليهودية. معظم سكان القدس القديمة من العرب الفلسطينيين، وقد بلغ عددهم، بعد نشوب الحرب العربية ـ الصهيونية عام 1948 ونزوح عدد كبير من السكان العرب عن القدس الجديدة إلى القدس القديمة، نحو خمسة وستين ألفاً. وكان في القدس القديمة حي لليهود تبلغ

(1) الموسوعة الفلسطينية، ج 3: 509.

مساحته ربع مساحتها إلا أن عدد سكانه كان «أقل من 2000 نسمة»[2] بينهم كثير من مقاتلي البالماح والهاغاناه، والأرغون وشترن[3] الذين دخلوا ذلك الحي سواء قبل جلاء البريطانيين عن فلسطين أو بعده. وللقدس القديمة أحد عشر باباً موزعة كما يلي:

- من الشمال: باب الساهرة (ويعرف عند الغربيين باسم: باب هيرودوس)، ويقع شرق باب العمود.

  وباب العمود (ويعرف عند الغربيين باسم: باب دمشق)، وقد أقيم على أنقاض باب صليبي سابق.

  والباب الجديد: وهو حديث العهد يعود إلى العام 1898، ويسمى أيضاً «باب عبد الحميد»، باسم السلطان عبد الحميد الثاني الذي أقامه بمناسبة زيارة الأمبراطور الألماني، غليوم الثاني، للقدس.

- من الغرب: باب الخليل (ويعرف عند الغربيين باسم: باب يافا).

- من الجنوب: باب النبي داود (ويعرف عند الغربيين باسم: باب صهيون) وباب المغاربة، وهو أصغر أبواب القدس.

- من الشرق: باب الأسباط (ويعرف عند الغربيين باسم: باب القديس اسطفان).

  وباب الرحمة (أو الباب الذهبي) وهو مقفل. كما أن هناك ثلاثة أبواب أخرى مقفلة، وتقع جميعها في الحائط الشرقي للسور، وقد أنشئت في عهد الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان الذي بنى قبة الصخرة[4].

---

(2) قيادة الجيش الإسرائيلي، حرب فلسطين 1947 ـ 1948، ص 122.

(3) العارف، عبدالله، كارثة فلسطين، ج 1: 110.

(4) الموسوعة الفلسطينية، ج 3: 517 ـ 519. ويبدو أن الحفريات التي أجريت في أسوار المدينة دلت على أن تحت الأبواب الحالية أبواب أخرى قديمة «ترقى إلى عهود سابقة» (م. ن. ص 519). إذ دلت الحفريات التي أجريت بين عامي 1936 و1966 على وجود بقايا لبابين: واحد يعود إلى زمن الامبراطور هادريانوس (133 ـ 137 ق. م)، وآخر يعود إلى زمن الامبراطور هيرودوس اغريباس (منتصف القرن الميلادي الأول)، (م. ن. ص 517).

وتقسم المدينة القديمة، داخل السور، إلى عدة أحياء هي:

- الحي الإسلامي، ويقع في الجهة الشمالية الشرقية، وفيه: باب حطة، وباب السلسلة، وباب العمود، وحارة الشرف، وحارة الواد، وحارة السعدية، وكلها حارات إسلامية[5].
- والحي المسيحي، ويقع في الجهة الشمالية الغربية.
- والحي اليهودي، ويقع في الجهة الجنوبية.
- والحي الأرمني، ويقع في الجهة الجنوبية الغربية.

وتقع الأماكن المقدسة الإسلامية (قبة الصخرة والمسجد الأقصى) في الجهة الجنوبية الشرقية، حيث يحدها:

- من الغرب: حائط المبكى.
- ومن الشرق والجنوب: سور المدينة، ويقع فيه (باب الرحمة أو الباب الذهبي) ومن الشمال: طريق الآلام.

وتسمى القدس القديمة، مع ما لحق بها من بناء وعمران خارج أسوارها، وظل بأيدي العرب، بعد حرب عام 1948، بالقدس الشرقية، كما تسمى القدس الجديدة التي وقعت تحت الحكم اليهودي، بعد هذه الحرب، بالقدس الغربية. (انظر المخطط رقم 10).

2 ـ مقدمات الاحتلال:

ما أن احتل اليهود القدس الجديدة حتى بدأوا يطرقون أبواب القدس القديمة محاولين التسلل من خلالها إلى «الحي اليهودي» في المدينة القديمة، وهكذا بدأوا يهاجمون أبوابها الرئيسية مثل «باب العمود، وباب الخليل، والباب الجديد، وباب النبي داود» محاولين اقتحامها. وكان يوجد في المدينة القديمة أكثر من 60 ألف عربي كان معظمهم قد نزح إليها من القدس الجديدة هرباً من بطش اليهود

---

(5) العارف، المفصل في تاريخ القدس، ص 431.

وفتكهم[6]. وبالفعل استطاع العديد من اليهود التسلل إلى القدس القديمة والاحتشاد في الحي اليهودي.

وما أن مضت ساعات على احتلال اليهود للقدس الجديدة حتى بدأت صرخات الاستغاثة تتوالى من العرب المقيمين في القدس القديمة، وكان الهاتف يرن دوماً في عمان ناقلاً هذه الصرخات:

«اليهود يتقدمون في كل مكان، المدينة في فوضى... جميع العرب معرضون للذبح، إكراماً لله تعالوا وانقذونا، تعالوا، تعالوا، أسرعوا»[7]. و «يهاجم اليهود المدينة القديمة، إنهم يتسلقون الجدران إلى جبل صهيون، لقد أصبحوا عند الباب الجديد» و «انقذونا، نفدت ذخيرتنا، لن نستطيع الصمود طويلاً، أين الفيلق العربي؟ من شان الله، إكراماً لله، أنقذونا»[8] و «أنقذونا، ساعدونا، إنهم عند باب يافا، لقد احتلوا الشيخ جرّاح، إنهم يتسلقون أبواب المدينة القديمة... أنقذونا، ساعدونا»[9]. وكان ضباط الهاغاناه يطوفون في شوارع القدس بمكبرات الصوت يخاطبون أهلها بالعربية قائلين: «طريق أريحا لا تزال مفتوحة، طيروا من القدس قبل أن تقتلوا»[10].

«وفعلاً، وصلت طلائع الفيلق العربي إلى حدود المدينة (القديمة)، وبدأت معركة طاحنة على القدس، كانت نتيجتها تقسيم المدينة بين دولة اسرائيل ودولة الأردن حتى حرب الأيام الستة (حزيران/ يونيو 1967)»[11].

لم يكن ممكناً أن تدخل الجيوش العربية فلسطين قبل الخامس عشر من شهر أيار/ مايو بسبب استمرار الانتداب الانكليزي عليها، إلا أنه، ما أن أنهت بريطانيا انتدابها على فلسطين بتاريخ 14 أيار/ مايو 1948، تنفيذاً لقرار التقسيم الذي صدر عن الجمعية العامة للأمم المتحدة بتاريخ 29 تشرين الثاني/ نوفمبر

---

(6) التل، المصدر السابق، ج 1: 100.
(7) Glubb, Op. Cit., pp. 100-101.
(8) Ibid., p. 109.
(9) Ibid., p. 108.
(10) Ibid., p. 99.
(11) قيادة الجيش الإسرائيلي، المصدر السابق، ص 475.

1947، وما أن أعلنت المنظمة الصهيونية العالمية، بقيادة دافيد بن غوريون، قيام دولة اليهود في فلسطين في الساعة الصفر من يوم 15 أيار/ مايو 1948، حتى زحفت الجيوش العربية نحو فلسطين تلبيةً لاستغاثات أهلها العرب، وكان القادة العرب قد كلّفوا الملك عبد الله، ملك الأردن، قيادة هذه الجيوش، إلا أن القائد الميداني للجيش العربي الأردني كان الجنرال البريطاني «جون باغوت غلوب» أو «غلوب باشا»، وكانت غالبية الضباط القادة في هذا الجيش من الانكليز، مع قلةٍ من الضباط العرب الأردنيين(12).

زحف الجيش العربي الأردني إلى فلسطين ليل 14 ـ 15 أيار/ مايو، وكانت القوة التي أرسلت من هذا الجيش إلى فلسطين تقدر بنحو تسعة آلاف رجل موزعين على ثلاثة ألوية (الأول والثالث والرابع) مع كتيبة مدفعية ومجموعة من المجاهدين الأردنيين تقدر بنحو 1200 رجل. وكُلّفت الكتيبة السادسة من اللواء الرابع (بقيادة وكيل القائد عبد الله التل) مهمة تحرير القدس القديمة التي يهددها الصهاينة ولا يفتأ أهلها العرب يستغيثون. وزحفت هذه الكتيبة نحو القدس بتاريخ 5/17، فوصلت إلى حدود المدينة المقدسة في اليوم التالي (5/18)، وانضمت إليها فيما بعد (بتاريخ 19 و5/22) قوات أخرى شكّلت، جميعها، مجموعة قتالية بقيادة التل نفسه، وقد بلغت هذه المجموعة نحو لواءين (كما سنرى لاحقاً).

بدأ القائد التل يعدّ العدّة لاحتلال القدس القديمة منذ وصوله إلى جوارها بتاريخ 5/18، وذلك بعد أن تلقى الأوامر، هاتفياً، من الملك عبد الله نفسه بأن

---

(12) يروي «دومينيك لابيير، ولاري كوللينز» في كتابهما (يا قدس) أن «غلوب باشا» أوفد، خلال هذه الحرب، ضابطاً من ضباطه الانكليز (الكولونيل ديسموند غورنداي) إلى مستعمرة «نهارايم Naharaym» على الضفة الغربية للأردن، للتفاوض مع ممثل «الهاغاناه»، وقد عرض الضابط الانكليزي على هذا الأخير ما يلي: «يضمن غلوب باشا، من جانبه، أن لا يدع قواته تجاوز حدود التقسيم... ولكن يريد أن يعرف نوايا الهاغاناه، وهل أنها سوف تحترم، بدورها، الحدود المرسومة للدولة اليهودية وفقاً لقرار التقسيم، أم أنها سوف تجاوزها وتحتل أراضي جديدة؟» وكان جواب ممثل «الهاغاناه» غامضاً، إذ أجاب محدثه: «إن الحدود قضية تخص السياسيين ولا تخص الجند». وبالطبع، لم تتقيد «الهاغاناه» بتلك الحدود.

(Lapierre, Dominique et Collins, Larry, Ô, Jérusalem, pp. 329-230).

يحمي «القدس القديمة وما بها من مقدسات»، فوزع المهمات على وحدات المجموعة، وما أن تيقن من أنه حاصر الحي اليهودي حصاراً منيعاً، أنذر المدافعين عنه من اليهود بالاستسلام، فرفضوا، وعندها، لم يعد أمامه إلا الاقتحام(13).

3 ـ الاحتلال (28 أيار 1948)، معركة القدس القديمة (18 ـ 28/5/48):

ـ القوى المتجابهة:

أ ـ اليهود:

لا يمكننا أن نحدد، تحديداً دقيقاً، عديد القوات اليهودية التي أسهمت في معركة القدس عام 1948، نظراً لما طرأ على هذه القوات من تغيير بسبب ما تلقته من تعزيزات، من مختلف القطاعات، قبل القتال، وفي أثنائه، إلا أنه يمكننا أن نستنتج، على وجه التقريب، أرقاماً قريبة من الحقيقة وفقاً للمعطيات التي بين أيدينا.

لقد كان عدد اليهود في مدينة القدس، عند قيام الدولة اليهودية، مئة ألف نسمة كما قدمنا، ووفقاً للمفهوم المتعارف عليه عسكرياً، يمكن أن يعبأ للقتال، نسبة 10٪ من هذا العديد، أي ما يعادل 10 آلاف مقاتل (وهو ما سبق أن قدره القائد التل)(14).

وكان هؤلاء المقاتلون موزعين بين تنظيمات عسكرية مختلفة أهمها: الهاغاناه، والبالماح، والأرغون، والشتيرن، وغيرها من تنظيمات شبه عسكرية، مثل:

- هغام، وهو تنظيم للتربية المدنية الموسعة، يشكل قوة احتياط للهاغاناه، وكان عديده في حامية القدس وفي 1/11/1947: 300 شاب، دون الإناث (350 أنثى).

---

(13) راجع، لمعركة القدس، التل، المصدر السابق، ص 97 ـ 141 (الفصل الرابع: معركة القدس).
(14) التل، المصدر السابق، ص 104.

- الغدناع، أي كتائب الشباب، وهو تنظيم شبه عسكري، إلا أنه أصبح، بعد إنشاء الجيش الإسرائيلي، تنظيماً عسكرياً وظيفياً تابعاً للجيش، ويمارس الشبان اليهود، في إطاره، التدريب العسكري في مدارسهم، وقبل التحاقهم بالخدمة العسكرية الإلزامية في الجيش، وكان عديد هذا التنظيم، في حامية القدس وفي 1/ 11/ 47: 750 شاباً (منهم 100 قائد) دون الإناث (650 أنثى) وهو يشكل، كذلك، قوة احتياط للهاغاناه.

يضاف إلى هذه القوات:

- قوة الحراسة، وكان عديدها، في حامية القدس، وفي 1/ 11/ 1947: 1500 رجل (منهم 200 قائد)، دون الإناث (175 أنثى).

- وقوة الميدان، وكان عديدها، في الحامية نفسها، وفي التاريخ نفسه: 1030 رجلاً (منهم 80 قائداً) دون الإناث (50 أنثى). وفي 15/ 12/ 1947 بوشر بإنشاء كتيبتين من هذه القوة، شُكلت الأولى من 3 سرايا، وتمركزت شمال مدينة القدس وغربها، وبلغ عديدها في منتصف شباط 1948: 565 رجلاً، وشُكلت الثانية من سرية واحدة، ومن الجنود المسرحين من الفرق اليهودية ووحدات مقاتلة أخرى، وبلغ عديدها حتى منتصف شباط 1948: 624 رجلاً.

- الاحتياط، وكان عديده، في الحامية نفسها، وفي التاريخ نفسه: 480 رجلاً (منهم 80 قائداً) دون الإناث (50 أنثى). وتشكل هذه التنظيمات كلها قوات احتياط للهاغاناه.

فإذا أضفنا هذه القوى جميعها، وهي قوى عسكرية بالتالي، إلى عديد «لواء القدس» المسمى «عتسيوني» والذي كان عديده، في شباط/ فبراير 1948: 2633 رجلاً. فيكون مجموع القوات التي شكلتها الهاغاناه في القدس، في حرب 1948، وعلى أقل تقدير:

- مجموع التنظيمات شبه العسكرية وقوات الحراسة والميدان والاحتياط (دون الإناث):

300 + 750 + 1500 + 1030 + 480 = 4060 رجلاً.

- لواء «عتسيوني» أو لواء القدس: 2633 رجلاً.

فيكون مجموع قوات الهاغاناه = 6693 رجلاً[15] أي نحو: 7 آلاف رجل.

يضاف إلى هذه القوة:

- ألف مقاتل من الأرغون[16].
- ألفا مقاتل من باقي المنظمات العسكرية (البالماح والشتيرن)[17].

فيكون مجموع القوة التي أسهمت في معركة القدس من اليهود: عشرة آلاف مقاتل[18]، على أقل تقدير، ودون حساب التعزيزات التي وردت إلى المدينة من خارجها، قبل المعركة وفي أثنائها.

أما فيما يختص بالسلاح والتدريب، فقد كان اليهود أكثر من عرب فلسطين أسلحة وتدريباً. يذكر (ي. رعنان) قائد قطاع القدس في منظمة الأرغون، ان هذه المنظمة كانت تملك «3 مدافع برن، و32 مدفعاً رشاشاً، و39 بندقية اعتيادية، و80 مسدساً، ومقداراً هائلاً من القنابل والمواد المتفجرة» وأنه كان لدى الهاغاناه «مقادير هائلة من الأسلحة والعتاد الحربي والمواد المتفجرة»[19].

هذا في القدس وحدها، أما في فلسطين كلها، فقد ذكرت أرقام عثرت عليها سلطات الانتداب البريطاني في دار «الوكالة اليهودية» بالقدس في أثناء مداهمتها

---

(15) انظر هذه المعلومات في: قيادة الجيش الإسرائيلي، المصدر السابق، ص XIII، وص 126، و250. ويتطابق هذا الحساب مع ما ورد عند: العارف، النكبة، ج 1: 331.

(16) العارف، م. ن. ج 1: 330 و331.

(17) يذكر العارف أن عدد أفراد البالماح وحده كان، في فلسطين كلها، 3 آلاف (م. ن. ص 331).

(18) يؤكد الرئيس فاضل عبد الله العراقي هذا الرقم «عشرة آلاف مقاتل» في تقريره إلى القيادة العربية العليا. وقد ذكر العميد طه باشا الهاشمي هذا التقرير في مذكراته المنشورة في جريدة «الحارس» العراقية بتاريخ 28 أيار 1953. لكن الرئيس فاضل عبد الله العراقي، ينسب هذه الآلاف العشرة إلى الهاغاناه، دون سواها، بقيادة جنرال برلوتي (العارف، م. ن. ج 1: 333، حاشية 2).

إلا أن المؤرخ اليهودي «جون كمشة» يذكر في كتابه «الأعمدة السبعة المتساقطة Seven Fallen Pillars» أن عدد القادرين على القتال بالفعل لم يكن ليزيد على ستة آلاف مقاتل (العارف، م. ن. ج 1: 331).

(19) العارف، م. ن. ج 1: 330.

لهذه الدار في أواخر عهد الانتداب، أن مجموع القوات التي كان بإمكان اليهود أن يعبئوها قبل بدء قتالهم مع العرب عام 1948 هو 67 ألف مقاتل، موزعين كما يلي:

الهاغاناه:

- 20 ألف مقاتل مدربين تدريباً كاملاً ومزودين بالسلاح الكامل.
- 10 آلاف مقاتل مدربين تدريباً كاملاً وغير مزودين بالسلاح الكامل.
- 30 ألف مقاتل مدربين تدريباً جزئياً وغير مزودين بالسلاح.

60 ألف مقاتل، مجموع ما يمكن للهاغاناه أن تحشده.

يضاف إلى ذلك:

الأرغون:

- 6 آلاف مقاتل، مسلحين.

والشتيرن:

- 1 ألف مقاتل، يعهد إليهم بأعمال التخريب.

7 فيكون المجموع الوارد في ملفات الوكالة هو 67 ألف مقاتل[20].

إلا أن هذه الأرقام لم تأت على ذكر عديد «البالماح» وهو 3 آلاف مقاتل «في فلسطين كلها»[21]، فيكون مجموع ما كان يمكن لليهود أن يجندوه، في حربهم

(20) م. ن. ج 1: 331 ـ 332، نقلاً عن مقالة لمنير أبو فاضل نشرها في جريدة «النهار» البيروتية عدد 4532 تاريخ 16/6/1950. وكان أبو فاضل من كبار ضباط الأمن في فلسطين في عهد الانتداب، كما كان مفتشاً عاماً لقوات الجهاد المقدس في أثناء القتال عام 1948، (م. ن. ج 1: 331، حاشية 2).

(21) م. ن، ص. ن. مقابل ذلك، دخل فلسطين يوم 15/5 من الجيوش العربية نحو 15 ألف جندي موزعين كما يلي: مصر 5 آلاف جندي، والأردن 4550 جندياً، والعراق 2500 جندي، وسوريا 1876 جندياً، ولبنان ألف جندي، فيكون عديد الجيوش النظامية التي دخلت فلسطين بذلك التاريخ 14926 جندياً (الموسوعة الفلسطينية، ج 2: 152)، يضاف إلى ذلك نحو 14 ألف مقاتل من الجهاد المقدس وجيش الإنقاذ (م. ن. ص 150)، فيكون مجموع المقاتلين النظاميين وغير النظاميين الذين وجدوا في فلسطين لتحريرها لا يتعدى الثلاثين ألف مقاتل، أي أقل من نصف عدد المقاتلين اليهود فيها.

ضد العرب عام 1948، سبعين ألف مقاتل.

أما الأسلحة والمعدات العسكرية التي كان اليهود يملكونها، على صعيد فلسطين كلها، فهي:

- مئات المحركات للدبابات الثقيلة والخفيفة.
- كميات وافرة من المدافع الكبيرة وغير المستعملة.
- معمل كبير للمصفحات التي لا يخترقها رصاص البنادق، وقد أخذه اليهود من السلطات البريطانية المنتدبة.
- عدد وافر من الطائرات المقاتلة وقاذفات القنابل، مع بعض المطارات[22].

ب ـ العرب: عندما أعلن قيام الدولة الإسرائيلية في الدقيقة الأولى من يوم 15/5/1948 وأعلنت الدول العربية الحرب على الدولة الوليدة، كانت الجيوش العربية، جميعها، خارج حدود فلسطين، وكان قد مضى 24 ساعة على رحيل آخر جندي من جنود الانتداب البريطاني عن أرض فلسطين (في 14/5)، ولم يبق فيها إلا المتطوعون العرب والفلسطينيون، وخاصة ما سمي «بجيش الإنقاذ» وقوات «الجهاد المقدس» مقابل التنظيمات اليهودية العسكرية وشبه العسكرية. وكان، في القدس، من المتطوعين والمجاهدين العرب، ما يلي:

ـ قوات «الجهاد المقدس»: بقيادة خالد الحسيني، وعديدها 700 مقاتل، موزعين في مختلف أنحاء المدينة المقدسة. وكان لدى هذه القوات، من الأسلحة: «500 بندقية، و100 رشاش من طراز ستن، و70 من طراز برن، و15 بندقية مضادة للدبابات، ومثل هذا العدد من البنادق المضادة للطائرات، وعدد قليل من مدافع الميدان (بريدا) والهاون من عيار بوصتين وثلاث بوصات»، كما كان لديها «سبع مصفحات» و «مقادير لا بأس بها من

---

(22) م. ن. ج 1: 332، نقلاً عن «المستر ريفس» حاكم لواء السامرة، في حديث له مع رئيس بلدية جنين «حلمي العورشي» يوم السبت في 27 آذار 1948، وهي معلومات «مكنت دوائر الاستخبارات البريطانية من جمعها» (م. ن. ص. ن).

الألغام»، إلا أن ذخائر هذه الأسلحة «لم تكن متوافرة»، وكانت البنادق، في مجملها، ايطالية وألمانية وفرنسية وإنكليزية[23]. وكانت هذه القوات موزعة بين عدة قيادات بحيث كانت تقاتل «مستقلة بدون تنسيق أو تساند يذكر، وبمبادرات واجتهادات من قائدها»، ولم يكن بين هذه المجموعات وبين قائد قوات الجهاد المقدس، خالد الحسيني، صلة إلا في «النواحي الإدارية، والتزود بالذخيرة، إذا توافرت»[24].

ـ قوات «جيش الإنقاذ»: وعديدها 500 مقاتل (من الأكراد والجراكسة والعراقيين والسوريين واللبنانيين والفلسطينيين)، ويشكلون «فوج اليرموك الثالث» بقيادة الرئيس فاضل عبد الله رشيد العراقي.

ـ سرية من «الإخوان المسلمين»: السوريين: وعديدها 85 مقاتلاً[25].

ـ سرية «منكو»: من المتطوعين الأردنيين: وعديدها 150 مقاتلاً، وقد سميت باسم «ابراهيم منكو» أحد كبار التجار الأردنيين «الذي تبرع بجميع نفقات هذه السرية طيلة وجودها في ميادين القتال بفلسطين»[26].

ـ المناضلون الفلسطينيون التابعون للجيش العربي الأردني: وعديدهم 520 مقاتلاً موزعين في مختلف أنحاء المدينة، وهم غير منخرطين في صفوف الجهاد المقدس ولا في صفوف جيش الإنقاذ[27].

ـ البوليس البلدي: وعديده 300 رجل، ومهمتهم حراسة الطرق والشوارع، وقد اشتركوا في القتال.

---

(23) العارف، م. ن. ج 1: 325 ـ 326، وانظر معلومات مشابهة عن قوات الجهاد المقدس عند أبو غربية، بهجت، في خضم النضال العربي الفلسطيني، ص 265 ـ 266، إلا أن العدد يصل، عند أبو غربية إلى 740 مقاتلاً (بزيادة 40 مقاتلاً في صور باهر)، (م. ن. ص. ن).

(24) أبو غربية، م. ن. ص 266.

(25) العارف، المصدر السابق، ج 1: 326، ويذكر أبو غربية أن عديد هذه السرية كان 70 مقاتلاً بقيادة الشيخ مصطفى السباعي، كما يذكر أن عديد قوات جيش الإنقاذ لم يكن ثابتاً إذ إنه كان يراوح بين 200 و500 مقاتل (م. ن. ص. ن).

(26) العارف، م. ن. ج 1: 327 وج 2: 453 حاشية (2).

(27) م. ن. ج 1: 327.

ـ حرّاس الحرم: وعديدهم عشرون رجلاً مزوّدون ببنادق إنكليزية ورشاشات من طراز «ستن»، وكانت مهمتهم حراسة الحرم الشريف، ويضاف إلى هؤلاء خمسة من الشرطة النظامية التابعة للبوليس الحكومي[28].

فيكون مجموع هذه القوات بكاملها:

700 + 500 + 85 + 150 + 520 + 300 + 25 = 2280 مقاتلاً.

وتجدر الإشارة إلى أن عدد العرب الفلسطينيين في القدس، والذي بلغ ستين ألف نسمة، غير خاضع للنسبة التعبوية التي سبق أن ذكرناها للمجتمع اليهودي، (وهي 10٪) إذ إن العرب الفلسطينيين لم يقيّض لهم أن يخضعوا لخدمة عسكرية إلزامية كتلك التي خضع اليهود لها، لذا، لم يكن لديهم، من العناصر المدربة على القتال، في القدس، غير تلك التي ذكرنا.

وتجدر الإشارة إلى أن عدد المقاتلين العرب في القدس لم يكن ثابتاً، إذ إنه كان يزيد وينقص وفقاً للظروف.

إلا أنه، بتاريخ 18/ 5/ 48 دخل الجيش العربي الأردني حلبة الصراع على بيت المقدس، وقد وصل منه إلى القدس بهذا التاريخ وبتاريخ 19/ 5 وتاريخ 22/ 5 الوحدات التالية:

ففي 18 أيار:

وصلت: الكتيبة السادسة من اللواء الرابع، بقيادة وكيل القائد عبد الله التل، وعديدها: 711 رتيباً وجندياً (منهم 85 غير مقاتلين) و15 ضابطاً، موزعين على 4 سرايا (3 سرايا مشاة هي: الأولى والسادسة والثامنة، وسرية مساندة)، وبقيت سرية من هذه الكتيبة (السرية الثانية) في منطقة الغور بالأردن[29].
وكان مع هذه الكتيبة: مدافع من عيار 6 أرطال، ومدفعا هاوزر عيار 3,7 بوصة، وحضيرة هاون، وحضيرة مدرعات (وكانت هذه الأسلحة الثقيلة تعمل في إطار سرية المساندة)[30].

---

(28) م. ن. ج 1: 328.
(29) التل، المصدر السابق، ج 1: 104.
(30) م. ن. ص 103، والعارف، المصدر السابق، ج 2: 455.

وفي 19 أيار:

وصلت:

- سريتان من الكتيبة الثانية، بقيادة الضابط البريطاني الكولونيل سلايد (Col. Slade).

- سريتان من الكتيبة الخامسة: بقيادة كل من الرئيس سليمان مسعود والرئيس محمد خلف العمري (وكانتا موضوعتين بتصرف الكتيبة الثانية).

- سريتان من الكتيبة الثالثة: بقيادة الرئيس صادق الشرع.

- سرية مدرعات، وعدد من مدافع الميدان، من عيار 6 أرطال، ومدافع الهاون من عيار 3 بوصات، بقيادة الضابط البريطاني الكولونيل هرست، يساعده وكيل القائد محمد المعايطة.

وقد وضعت هذه القوة جميعها بقيادة الكولونيل سلايد[31].

وفي 22 أيار:

وصلت: الكتيبة الثالثة من اللواء الأول، بقيادة الضابط البريطاني الكولونيل نيومن (Newman)، ويساعده الضابط البريطاني الميجر هنكن تورفن (Hankin Turvin) والرئيس خالد المجلي، وعديدها 750 جندياً[32]، ومن عداد هذه الكتيبة:

- السرية الثانية: بقيادة الملازم الأول عبد أديلم.

- السرية الرابعة: بقيادة الملازم الأول غازي حربي[33].

---

(31) العارف، م. ن. ج 2: 457. وفي بعض المراجع: الميجور سلايد، والميجور هرست.
(32) م. ن. ص 469.
(33) م. ن. ص 470.

وكان مع هذه الكتيبة:

- سرية من المدرعات الثقيلة مؤلفة من 18 مدرعة.
- سرية إسناد مؤلفة من عشرة مدافع هاون (4 من عيار 3 بوصات و6 من عيار 6 أرطال) وأربعة رشاشات ثقيلة من طراز فيكرز، ومدافع مضادة للدبابات[34].

وتذكر قيادة الجيش الإسرائيلي أن «الفيلق العربي» الأردني أرسل «لاحتلال المدينة (القدس) والمنطقة المحيطة بها» قوة اشتملت على «ثلاثة ألوية مشاة وكتيبة مدفعية ووحدات متطوعين غير نظامية، جميعها مزوّدة بأسلحة بريطانية جيدة، بما في ذلك مدافع ومصفحات كثيرة»[35].

الخطة اليهودية لاحتلال القدس وتهويدها والاحتفاظ بها (خطة دافيد شلتيئيل):

في 14 شباط/ فبراير 1948 عين بن غوريون، قائد الهاغاناه «دافيد شلتيئيل»، قائداً لمنطقة «عتسيوني» أو «القدس» بكاملها، وزوّده بالتوجيهات التالية:

أ ـ من شباط حتى 15 أيار، موعد خروج البريطانيين من فلسطين: يطلب إليه:

- تحصين المدينة وإعدادها للدفاع.
- منع هجرة الأحياء اليهودية، ولا سيما الحي اليهودي في القدس القديمة.
- تحقيق وحدات «هاغاناه» مجندة.
- تأمين الاتصال والمواصلات بين الأحياء اليهودية المحاطة بأحياء عربية في المدينة، وكذلك بين المناطق والمستعمرات اليهودية المحاطة بمناطق عربية في

---

(34) م. ن. ص. ن.

(35) قيادة الجيش الإسرائيلي، المصدر السابق، ص 490. إلا أن في هذا التقرير، كما رأينا، الكثير من المبالغة (المتعمّدة).

قطاع القدس كله، بغية «تأمين تواصل المنطقة اليهودية في المدينة».

- إشغال المناطق والأحياء العربية التي يتخلّ أصحابها عنها بسكان يهود.
- السيطرة على حي «الشيخ جرّاح».
- تعزيز قوات الهاغاناه في المواقع المسيطرة على محور القدس ـ باب الواد، لتأمين الطريق إلى الشفيلا[36]. وكانت هذه مركزاً لتموين اليهود من سكان القدس بجميع حاجاتهم وخصوصاً بمياه الشفة.
- إعداد الخطط لإجلاء النساء والأطفال، عند الضرورة، عن المستعمرات المحاصَرة.

ب ـ بعد الجلاء البريطاني:

- تحرير كامل القدس (بقسميها: الجديد والقديم) وفرض «حقيقة قائمة متمثلة بحكم يهودي في المدينة»[37].

وقد نفذ «شلتيئيل» هذه التوجيهات بأن وضع الخطتين التاليتين:

أ ـ الخطة الأولى: حتى 5/15،

- تأمين «تواصل المنطقة اليهودية في القدس».
- تأمين صمود هذه المنطقة «من الناحية التكتيكية وبالوسائل المتوافرة».
- تعزيز المستعمرات الواقعة خارج المدينة وتحصينها لكي تستخدم «كمواقع دفاعية» من جهة، ومن جهة أخرى، كقواعد لهجوم مرتقب، بهدف السيطرة على منطقة القدس «الممتدة من البحر الميت حتى باب الواد، ومن غوش عتسيون حتى عطروت»[38].

ولتنفيذ هذه الخطة يجب أن يتم ما يلي:

---

(36) م. ن. ص 255 و259.
(37) م. ن. ص 255.

- تخزين أغذية وأدوية في المدينة، لحالات الطوارىء.

- تشكيل قوة عسكرية مدربة وجاهزة للعمل.

- إنشاء خط دفاعي يمتد من رامات راحيل حتى الشيخ جراح، ومن الشيخ جراح إلى جبل سكوپوس (المشارف).

ب ـ الخطة الثانية: بعد 5/15

- السيطرة فور جلاء البريطانيين، وبواسطة قوات «الهاغاناه»، على المناطق التي يجلو البريطانيون عنها.

- شن هجوم مزدوج:

ـ الأول: ينطلق من جهة الجامعة العبرية على جبل سكوپوس باتجاه الطور على جبل الزيتون.

ـ والثاني: ينطلق من جهة دير «أبو طور» إلى قرية «هشيلواح».

- تلتقي القوات المهاجمة على هذين المحورين شرق القدس القديمة «التي تصبح مطوقة بكاملها وتسقط، بسهولة، بيد قوات الهاغاناه»[39].

ج ـ إجراءات التنفيذ:

شرع «شلتيئيل»، فور وصوله إلى القدس، بالإعداد لتنفيذ هاتين الخطتين، متخذاً الإجراءات التالية:

- نظم هيئة أركانه من قادة الكتائب.

- أنشأ كتيبة ثالثة وجعلها تابعة لقوة الميدان، وكلفها مهمة «السيطرة على الجزء الشرقي من ممر القدس ـ تل أبيب، من القدس حتى اللطرون، وذلك لحماية المستعمرات الواقعة في المنطقة، وللسيطرة على شريان المواصلات الرئيسي وخط المياه الموازي له»[40].

---

(38) قيادة الجيش الإسرائيلي، المصدر السابق، ص 255 ـ 256.

(39) م. ن. ص 256.

(40) أمر قيادة اللواء الصادر بتاريخ 26/4/48 (م. ن. ص. ن).

- كلف الكتيبة 15 (أو كتيبة مخمش) مهمة تشكيل «الطوق الفولاذي المحيط بالقدس من الشمال والشرق والجنوب. وهو مثبت في عطروت والنبي يعقوب في الشمال، وفي مشروع البوتاس وبيت هعفراه في الشرق، وفي غوش عتسيون في الجنوب»[41].

- كلف الكتيبة الثانية (موريا) مهمة «حراسة القدس العبرية وإحاطتها بحلقتين فولاذيتين في الداخل ومن الخارج»، كما كلّف إمداد القيادة بجنود احتياط عند الضرورة[42] إلا أن هذه المهمة لم تنفذ بحذافيرها لتعذر إمكان تحرك الكتيبة من مواقعها في المدينة عند بدء القتال، وبالتالي، فإنها لم تتمكن من تزويد القيادة المركزية بالعناصر اللازمة دون أن يؤدي ذلك إلى «كشف قطاعات دفاع حيوية» من القطاعات الموكلة بالدفاع عنها[43]. وبحسب تقرير أعده «شلتيئيل» فور تسلمه قيادة المدينة، فإن ما كان متوافراً من الأسلحة لدى الهاغاناه في مدينة القدس، بتاريخ تسلمه مهام قيادتها، هو ما يلي:

«440 ستن، و253 بندقية و4 رشاشات برن وبندقية واحدة مضادة للدبابات، وكميات صغيرة من القنابل اليدوية والمتفجرات المصنعة محلياً»[44].

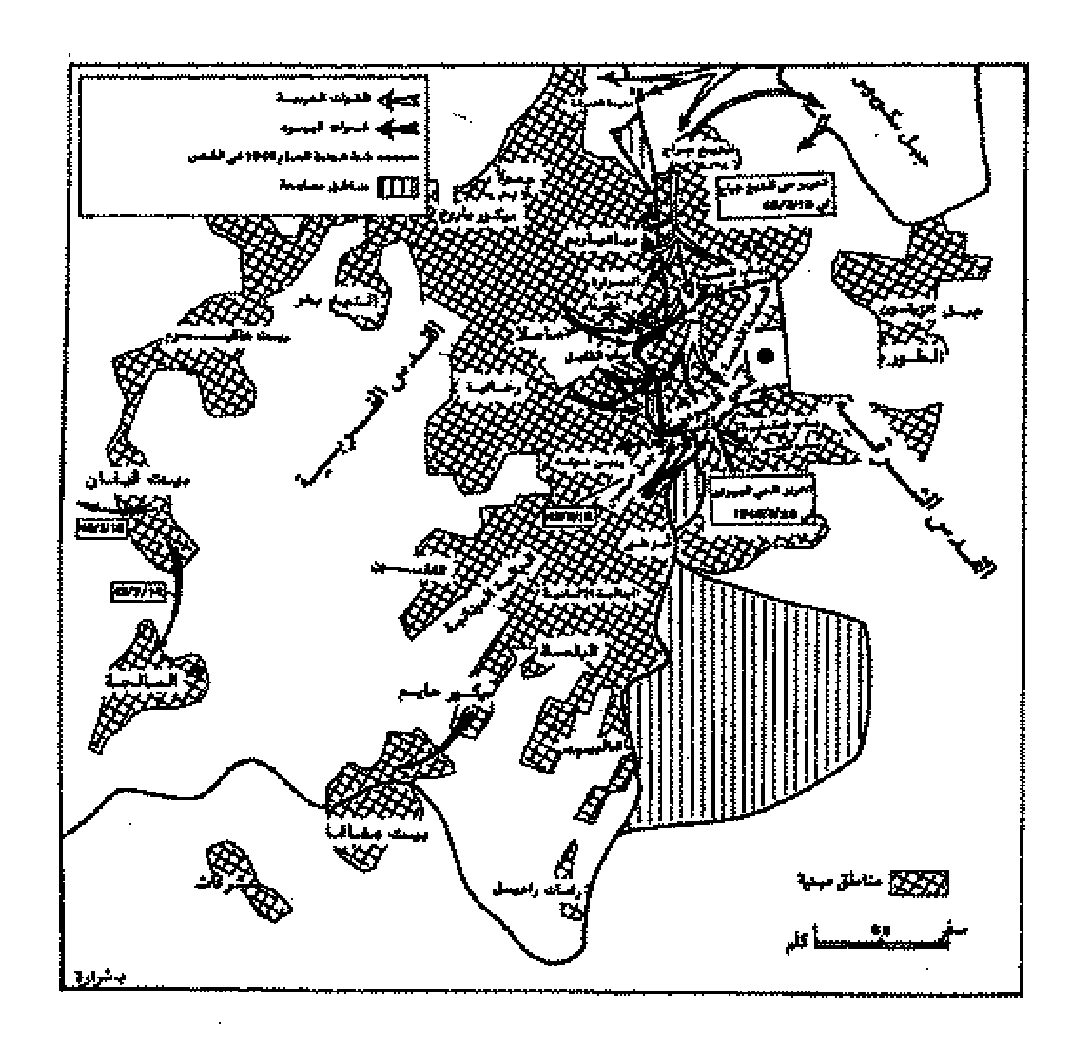
ثم باشر «شلتيئيل» بتنظيم المدينة استعداداً للحصار المحتمل، فأنشأ لجاناً خاصة لهذا الغرض، فكان هناك «لجنة الطائفة» و «لجنة الطوارىء» و «لجنة القدس»، وكانت المهمات التي أنيطت بهذه اللجان تنظيم تأمين كل ما تحتاجه مدينة القدس (فيما يختص بسكانها اليهود) للصمود ضد حصار طويل[45].

العمليات العسكرية: (انظر الخارطة رقم 10).

تذكر قيادة الجيش الإسرائيلي أنه بتاريخ 13/5/48 غادر الجنود البريطانيون مدينة القدس القديمة تاركين فيها «150 مقاتلاً يهودياً، خلفهم 1700 نسمة،

(41) الأمر الصادر عن قائد القوة بتاريخ 9/3/48 (م. ن. ص. ن).
(42) تعليمات بوشر بتنفيذها في 3/3/48 (م. ن. ص 256 ـ 257).
(43) م. ن. ص 257.
(44) م. ن. ص. ن.
(45) انظر، عن هذه اللجان، م. ن. ص 258 ـ 260.

خارطة رقم (10)
الإحتلال العربي للقدس الشرقية
(1948)



وجهاً لوجه أمام نحو 20 ألف عربي، تآمروا على إبادتهم، وكان مصيرهم رهناً بمجرى المعركة بين اليهود والعرب في نطاق المدينة الجديدة»[46].

إلا أننا لا نستطيع تصديق الرواية الإسرائيلية هذه، خصوصاً وأن قيادة الهاغاناه كانت تعرف جيداً الفارق العددي بين السكان العرب واليهود في القدس القديمة، كما أنها لم تكن تجهل، اطلاقاً، الموقع الجغرافي الحساس والمحاط بالأخطار، للحي اليهودي في هذه المدينة، فأقدمت على إدخال أعداد كبيرة من المقاتلين اليهود إلى هذا الحي قبل انسحاب البريطانيين من فلسطين، كما سبق أن بيّنا.

ونسرد، فيما يلي، تسلسل العمليات العسكرية التي جرت في قطاع القدس، منذ 15 أيار 1948 وحتى 28 منه، تاريخ تحرير القدس القديمة على يد العرب:

أ ـ اليهود:

كان الاتفاق قد تم، في شهر نيسان 1948، بين كل من الهاغاناه والأرغون، على تقسيم القدس إلى أربع مناطق للعمليات العسكرية، على الشكل التالي:

(1) ـ مناطق عمل الهاغاناه: ثلاث:

- **المنطقة الأولى:** جنوب القدس (أحياء الجالية (الكولونية) الألمانية والإيطالية).
- **المنطقة الثانية:** قسم من غرب القدس (أحياء فندق الملك داود وجمعية الشبان المسيحيين وعمارة داود اخوان وكلية الأرض المقدسة ـ لاتيرسانت ـ ورحافيا).
- **المنطقة الثالثة:** القسم الآخر من غرب القدس (مقبرة ماملا وطريق باب الخليل والمسكوبية ونوتردام دي فرانس).

(2) منطقة عمليات الأرغون:

- **المنطقة الرابعة:** شمال القدس وشمالها الغربي (الأحياء الممتدة من المستشفى الإيطالي حتى الشيخ جرّاح ومدرسة البوليس ـ أو كلية الشرطة ـ على طريق

(46) م. ن. ص 269.

القدس ـ نابلس)[47].

وكان يوجد، في المدينة كلها، نحو عشرة آلاف مقاتل، كما سبق أن قدمنا.

ومنذ بداية المعركة، تمكن المجاهدون العرب من عزل الحي اليهودي في المدينة القديمة، وأخذوا يضيقون الحصار على هذا الحي، حتى تقلصت سيطرة اليهود فيه على مساحة قدرها (100م طولاً × 100م عرضاً) وذلك بحسبما أعلنه المدافعون اليهود عن الحي، لاسلكياً، في 17/5/48، وأصبح العرب على مسافة قصيرة من مقر قيادة القوات اليهودية في مستشفى «مسعاف ليدخ»[48]. وحاول اليهود التسلل إلى الحي المحاصَر عبر «باب الخليل» إلا أنهم فشلوا بسبب تمركز قوات جيش الإنقاذ (فوج اليرموك الثالث) ما بين باب الخليل وباب النبي داود وحي الثوري[49]، حيث سدت كل ثغرة يمكن أن يتسلل اليهود منها، في هذا القطاع. إلا أن قوات «هارئيل» استطاعت احتلال جبل صهيون ليل 17 ـ 18/5. واقتحمت، صباح اليوم التالي (18/5) باب النبي داود فاخترقت دفاعه وتمكّنت من الاتصال بالحي اليهودي لفترة وجيزة أتاحت لها تعزيز مقاتليه بالرجال والأسلحة[50]، ثم عاد المقاتلون العرب فتمكنوا من سد الثغرة وإقفال بوابة العبور في وجه المقاتلين اليهود.

وكان قد سبق لليهود أن بدأوا يحتلون الأماكن التي أخذ الجنود البريطانيون يخلونها، في 14/5، وربما بتواطؤ من الجنود البريطانيين أنفسهم[51]، فاحتلوا المباني ذات المواقع الاستراتيجية مثل عمارة المسكوبية وعمارة جنرالي ودار البرق والبريد وبنك أنجلو ـ بالستاين (البنك الانكليزي ـ الفلسطيني) ومقر البوليس العام والسجن المركزي[52]، كما احتلوا، في اليوم نفسه، الأحياء التي تقع فيها القنصلية الفرنسية «مجتازين شارع الملك جورج، وواكوب، وسان جوليان»،

---

(47) العارف، المصدر السابق، ج 1: 331.
(48) قيادة الجيش الإسرائيلي، المصدر السابق، ص 491.
(49) العارف، المصدر السابق، ج 1: 326.
(50) قيادة الجيش الإسرائيلي، المصدر السابق، ص 491.
(51) انظر: العارف، المصدر السابق، ج 1: 334 حاشية(2) وص 335
(52) م. ن. ص 334.

وفندق الملك داود وشارع الأميرة (ماري)[53]، واحتلوا جانباً من فندق داروق وكنيسة الخضر الأرثوذكسية وفندق الأوقاف والمستشفى الايطالي وكلية «لاتير سانت» والطالبية وعمارة داود ودار الإذاعة الفلسطينية ومدرسة البوليس في حي الشيخ جرّاح[54]، واستطاعوا أن يحتلوا، ليل 14 ـ 5/15، بنك باركليس «ومعظم المباني والمرتفعات المطلة على الأحياء العربية»[55].

في هذه الأثناء، كان المناضلون العرب يرابطون على أسوار المدينة القديمة ويحاصرون الحي اليهودي فيها[56]، وكانوا قد بدأوا يعانون من «فقدان الارتباط بين رجال الحامية، وضعف القيادة، وعدم تحصين المواقع، حتى أن اليهود ردوهم إلى الأسوار». وطال انتظارهم للجيوش العربية التي كان قد أعلن عن دخولها قبل ذلك الحين، فأصدر القائد فاضل عبد الله العراقي، قائد تلك الحامية، أمراً بالانسحاب إلى المدينة القديمة، داخل السور، تاركاً الأحياء الكائنة خارج السور، من القدس الجديدة، لليهود[57]، وهكذا سقطت القدس الجديدة، بكاملها، بين أيدي اليهود، وأصبح الوضع العسكري في القدس على الشكل التالي:

- يحاصر اليهود العربَ في القدس القديمة، داخل أسوارها، ومن جميع الجهات.

- يحاصر العرب اليهودَ في الحي اليهودي من القدس القديمة، ومن جميع الجهات.

- يسعى اليهود، جاهدين، لفك الحصار المضروب على هذا الحي، بمختلف الوسائل، وباقتحامات مستمرة لمواقع المناضلين العرب، على السور، ولكن بلا جدوى.

---

(53) م. ن. ص 335.
(54) م. ن. ص 336.
(55) م. ن. ص 336 ـ 337.
(56) م. ن. ص 336. وفاضل عبد الله العراقي هو فاضل رشيد العراقي نفسه (فاضل رشيد عبد الله).
(57) م. ن. ص 337.

ب ـ العرب:

ليل 17 ـ 18/5، انتقلت الكتيبة السادسة من اللواء الرابع (من الفيلق العربي الأردني) من أريحا إلى القدس، بقيادة وكيل القائد عبد الله التل (انتقل منها 3 سرايا مشاة وسرية مساندة، أما السرية الرابعة فبقيت في داميا بغور الأردن)، وقد تم الانتقال بناء لأمر هاتفي مباشر من الملك عبد الله، ملك الأردن، إلى قائد الكتيبة «شريطة أن لا تتعدى الأحياء العربية، وأن تنتظر ورود أوامر أخرى، عندما تصل إلى حدود الأحياء اليهودية»[58]. وقد حدّد الملك، بأمره الهاتفي المباشر هذا، مهمة الكتيبة بحماية القدس القديمة[59].

ظهرت قوات الكتيبة في المدينة القديمة صباح 18/5[60]، وفور وصولها، وضعت قوات جيش الانقاذ والجهاد المقدس بإمرة قائدها الذي أنيطت به مهمة الدفاع عن المدينة بكاملها، وكانت هذه القوات مؤلفة من:

- فوج الحسين من جيش الانقاذ، وسرية المجاهدين من سوريا، بقيادة الرئيس فاضل عبد الله رشيد العراقي.
- فوج من الجهاد المقدس بقيادة القائد خالد الحسيني.
- قوة الشرطة، بقيادة القائد منير أبو فاضل[61].

وقد زعت هذه القوات إلى مفارز ألحقت بمراكز الكتيبة لمساعدتها في تحديد الأهداف العدوة[62].

تمركزت قيادة هذه المجموعة في «الروضة» داخل سور المدينة القديمة[63]،

---

(58) م. ن. ج 2: 452 ـ 453. وانظر: التل، المصدر السابق، ج 1: 101 ـ 102، ويظهر أن الملك قد تجاوز بأمره هذا الجنرال غلوب قائد الجيش الذي لم يكن موافقاً، على ما يبدو، على هذا التحرك للكتيبة، كما يبين لنا قائدها عبد الله التل (التل، م. ن. ج1: 102).

(59) التل، م. ن. ص 102.

(60) قيادة الجيش الإسرائيلي، المصدر السابق، ص 490.

(61) التل، المصدر السابق، ج 1: 107.

(62) م. ن. ص. ن.

(63) م. ن. ص 103.

وتسلمت جبهة القتال الممتدة «من البلدة حتى جبل المكبر»[64]، وتمركزت وحداتها ثم وزعت عليها المهمات، كما يلي:

- السريتان: الأولى (سرية الأمن) والسادسة (بقيادة موحدة):

تمركزتا على السفح الجنوبي لجبل الطور (الزيتون)، ومهمتهما حماية باب النبي داود (وهو أهم الأبواب وأخطرها، لأنه يصل القدس الجديدة بالحي اليهودي في القدس القديمة).

- السرية الثامنة: ومهمتها حماية الباب الجديد وباب الخليل.

- السرية المساندة: (مدافع هاون ومدافع عيار 6 أرطال ومدفعا هاوزر عيار 3,7 وحضيرة مدرعات): تمركزت في رأس العمود وجبل الطور[65]، ومهمتها قصف المواقع اليهودية في الحي اليهودي بالقدس القديمة، ومواقع اليهود في القدس الجديدة.

عند ظهر 5/18 بدأت مدفعية الكتيبة ودباباتها بقصف الحي اليهودي قصفاً مباشراً ومكثفاً، في وقت كان اليهود لا يزالون يكثفون هجماتهم على أبواب المدينة القديمة محاولين اختراقها للوصول إلى الحي اليهودي وإنقاذ أهله، وقد شهدت أبواب هذه المدينة، وخاصة باب النبي داود «محاولات جنونية يائسة» و «معارك طاحنة» حيث كانت المسافة التي تفصل اليهود في «نوتردام» عن القوات العربية في الباب الجديد «لا تزيد على خمسين متراً»[66]. ولم يستطع اليهود، رغم كل المحاولات التي بذلوها، اختراق الجهاز الدفاعي لهذه القوات.

كان عرب القدس القديمة لا يزالون يعانون من الضغط اليهودي عليهم من جهة حي الشيخ جراح، خصوصاً وأن الكتيبتين الأولى والسادسة كانتا لا تزالان على جبل الطور، شمال شرقي القدس. وقد ظهر واضحاً أن العرب المحصورين في القدس القديمة والمدافعين عنها لن يستطيعوا الصمود لفترة طويلة من الزمن،

(64) العارف، المصدر السابق، ج 2: 455.
(65) التل، المصدر السابق، ج 1: 103.
(66) م. ن. ص 106.

وربما لأربع وعشرين ساعة أخرى[67]. وكان سيل البرقيات لا يزال يتوالى من عمان بوجوب التقدم نحو القدس من رام الله، بغية «تخويف اليهود لعلهم يقبلون بهدنة في القدس»[68]، كما يصرّ الملك على أن «ترسل قوة من رام الله، مع مدفعية، لمهاجمة الأحياء اليهودية في القدس. . . فالهجوم على اليهود سوف يخفف الضغط عن العرب، ويحمل اليهود على قبول الهدنة في القدس» و «جلالته بانتظار عمل سريع. أفيدونا سريعاً عن بدء العملية». هكذا ختم وزير الدفاع الأردني برقيته إلى قائد الفيلق العربي غلوب باشا ظهر 17/5[69]، فكان القرار الحاسم يوم 18/5: وجوب تحرير حي الشيخ جراح، واتخذ القرار بأن يبدأ الهجوم فجر 19/5[70].

تحرير حي الشيخ جرّاح:

كان عدد جنود الكتيبة السادسة الذين وصلوا إلى جدران المدينة وأخذوا مهمة الدفاع عن أبوابها لا يتعدى المائة، وكان اليهود، من البالماخ، قد تراجعوا قليلاً أمام صمود الجنود العرب، إلا أنهم استطاعوا أن يخترقوا دفاعهم عند باب «النبي داود» لفترة وجيزة من الزمن، ثم عاد الجنود العرب فسدوا البوابة «بأكوام الحجارة والأسلاك».

وكانت خطة اليهود تقضي، بعد احتلالهم للشيخ جراح، أن يهاجموا جبل الزيتون، فيعزلوا عندها المدينة القديمة من الشرق ويطوقوها من جميع الجهات.

لم يكن بدّ، إذن، من أن يحتل العرب القدس، وكانت خطتهم تقضي بأن يهاجموها من الشمال، فيحتلوا، الشيخ جرّاح، ثم يقيموا اتصالاً مع القدس القديمة وينشئوا خطاً دفاعياً متواصلاً، عبر المدينة، يوقفون بواسطته تقدم العدو نحوها[71].

---

(67) Glubb, Op. Cit., p. 110.

(68) Ibid.

(69) Ibid.

(70) Ibid., p. 113.

(71) Ibid.

وعهد بالمهمة إلى قوة مؤلفة من سرية مشاة وسرية مصفحات، و4 مدافع مضادة للدبابات عيار 6 أرطال، و4 مدافع هاون عيار 3 بوصات، وتساند هذه القوة مدفعية مؤلفة من: 4 مدافع 25 رطلاً، وقد شكلت هذه القوة، بمجموعها، ما يعادل «لواء مشاة»[72] بقيادة الكولونيل سلايد».

وفي الساعة 3,35 من صباح 5/19 انطلقت هذه القوة في هجومها على حي الشيخ جرّاح من الشمال باتجاه الجنوب، تتقدمها سرية المصفحات، مجتازة خط الانطلاق عند «رام الله»، وتقدمت على محور رام الله ـ القدس، فدخلت حي «الشيخ جرّاح»، ثم «حي مصرارة» بعده، إلا أنها تعرضت عندئذ لنيران كثيفة من يهود «مياشياريم Mea Shearim» الذين كانوا يتمترسون في كنيسة «نوتردام» الواقعة على مرتفع في الطرف الشرقي للحي اليهودي في القدس الجديدة، والمشرفة على حي مصرارة، مما جعل هذه القوة تتخلى عن حي مصرارة وتتابع تقدمها نحو الجنوب. وبعد بضع ساعات من المناوشات، تمكّنت القوة من الوصول إلى «باب العمود» (أو باب دمشق) حوالى الساعة الثانية بعد الظهر، وأتمت اتصالها بالمدينة القديمة، وسيطرت على حي الشيخ جرّاح، وصمدت في وجه الهجمات اليهودية المتكررة التي حاولت اقتلاعها من مراكزها في هذا الحي. وقد تلقت هذه القوة، في اليوم التالي (5/20)، إمدادات رفعت عديدها إلى نحو 500 جندي، إذ وصلت سرية (من السامرية) إلى الشيخ جرّاح في صباح اليوم نفسه، تلاها وصول سرية أخرى في أثناء النهار، مما عزز الوضع العسكري للقوة في هذا الحي الذي جرى تطهيره من فلول اليهود تطهيراً تاماً[73]، ورغم ذلك، فقد ظلت هذه القوة منفصلة عن تلك المتمركزة في المدينة القديمة والتي تقدر بمايتي جندي، وذلك بسبب انسحابها من «حي مصرارة»[74]، إلا أنه، باحتلال «الفيلق العربي» لحي الشيخ جرّاح، عُزل جبل سكوبوس وهُددت الأحياء الشمالية من القدس الغربية[75].

---

(72) Ibid., p. 114.

(73) Ibid., p. 115.

(74) Ibid.

(75) قيادة الجيش الإسرائيلي، المصدر السابق، ص 590.

محاولة احتلال كنيسة «نوتردام دي فرانس»:

كان لا بد من تعزيز القوى للقيام بمهمة تحرير القدس القديمة، وكانت الكتيبة الثالثة متمركزة في إحدى غابات الزيتون خلف نابلس، فتلقت أمراً بالانتقال إلى القدس. وفي 5/21 تحركت الكتيبة من نابلس باتجاه القدس، بقيادة قائدها الضابط الإنكليزي «بيل نيومن Bill Newman» فوصلت إلى حي الشيخ جزاح في 5/22، إلا أنها لم تتمكن من اجتياز المنطقة المكشوفة بين الشيخ جزاح والقدس القديمة، عند حي مصرارة، وذلك بسبب كثافة النيران التي أطلقها يهود «مياشيريم» على الممر الإجباري الواقع في تلك المنطقة المكشوفة، فقررت الكتيبة احتلال «نوتردام».

وفي 5/23 بدأت الكتيبة هجومها، عند الساعة الثانية عشرة ظهراً، بعد أن مهّدت له بنيران كثيفة من «مدفعين مضادين للدبابات عيار 6 أرطال، وأربعة مدافع هاون عيار 3 بوصة»[76]، ولكن القنابل، رغم ما كان لها من دوي، لم تكن لتؤثر على جدران الكنيسة القوية والمتينة. وأخذ المشاة يتقدمون «خلال الشوارع الضيقة والمنازل، باتجاه جدران الكنيسة الشاهقة»[77]، وكانت نيران اليهود تنهال على المهاجمين بغزارة منقطعة النظير، إلا أن القتال استمر طيلة بعد ظهر ذلك اليوم وطيلة الليل، بلا توقف. وفي صباح 5/24، أُبلغت قيادة الكتيبة أن السرية الرابعة منها دخلت أرض الكنيسة إلا أنها تعرضت لوابل من الرصاص من كل جهة، من النوافذ ومن كل أجنحة المبنى، مما جعلها تفقد، حتى الساعة الخامسة من بعد ظهر اليوم نفسه، أكثر من نصف عديدها (وكان مايتين) بين قتيل وجريح، كما فقدت هذه السرية جميع ضباطها، فتوقف الهجوم عند الساعة الخامسة، وعاد الباقون من جند السرية إلى مراكزهم[78]. وتذكر قيادة الجيش الإسرائيلي هذه المعركة، في كتابها، باقتضاب، إذ تقول: إن محاولة قد صدت في 5/23 «لاقتحام المدينة من جهة شارع سليمان في منطقة نوتردام، عندما أحرق المدافعون بزجاجات مولوتوف المصفحة الأولى من الطابور، كما

---

(76) Glubb, Op. Cit., p. 124.

(77) Ibid.

(78) Ibid., pp. 124-125. وقد عرف هذا اليوم عند اليهود باسم «يوم المذبحة الدامية» (p. 125).

صُد أيضاً، في هذا المكان، هجوم قامت به قوات المشاة»[79].

في هذا الوقت (5/24) كان القتال مستمراً في المدينة القديمة، حيث يوجد سريتان من الفيلق العربي تقاتلان «في معركة مزدوجة». فبينما كان قسم يقاتل باتجاه الغرب من باب داود إلى القلعة «المبنية عند أبراج هيرودوس العظيمة» أي حتى باب يافا، كان قسم آخر يقاتل باتجاه الشمال الغربي مقابل كنيسة «نوتردام» وحتى باب دمشق[80]. وبالفعل، لم ينقطع اليهود عن مهاجمة أبواب المدينة القديمة ليلة واحدة، وكانت أعنف هجماتهم على هذه الأبواب تلك التي قاموا بها على باب النبي داود مساء 5/24 لعلهم يتوصلون إلى اختراق الدفاع العربي من تلك الناحية للوصول إلى رفاقهم المحاصَرين في الداخل، فقد دفعوا في ذلك المساء «بخيرة جنودهم من البالماح» إلى باب النبي داود، ممهدين للهجوم بقصف من مدافع الهاون و «راجمات الألغام». وانتظر جنود «الفيلق العربي» المقاتلين اليهود حتى اقتربوا «كثيراً، وصارت الإصابات مؤكدة» وكان هؤلاء المقاتلون يقتربون من السور وهم يحملون لغماً كبيراً يريدون تفجيره فيه لفتح ثغرة تتيح لهم المرور، وما أن اقتربوا إلى مسافة الرمي المطلوبة حتى فتح العرب عليهم نيران رشاشاتهم وأمطروهم بالقنابل اليدوية، فحصدوا منهم ستين مقاتلاً «نقلوا جثثهم من النبي داود إلى الأحياء اليهودية»[81].

تحرير المدينة القديمة واستسلام الحامية اليهودية في الحي اليهودي:

قبل أن يدخل «الفيلق العربي» إلى القدس القديمة كان اليهود قد تمكّنوا من

---

(79) قيادة الجيش الإسرائيلي، المصدر السابق، ص 491، وانظر، عن هذا الهجوم، ما كتبه الضابط اليهودي «عوزي ناركيس» وكان من عداد «البالماح» في ذلك الحين، في كتابه «معركة القدس»، وقد شهد المعركة بنفسه، ثم عاد فقاد القوات الإسرائيلية التي احتلت القدس القديمة عام 1967، (وكان قائداً للمنطقة الوسطى). (Narkiss, Uzi, La Bataille pour Jérusalem, pp. 49-50).

(80) Glubb, Op. Cit., p. 126.

(81) التل، المصدر السابق، ج 1: 109 ـ 110، وراجمات الألغام: سلاح محلي استخدمه اليهود، وهو عبارة عن ماسورة من الحديد السميك قطرها 20 سم تقريباً وطولها 125 سم تقريباً، محملاً بالمواد المتفجرة وتقذف من قاعدة رفاصية باتجاه العدو (كما تقذف قنابل الهاون)، وتصل إلى نحو ألف ياردة فقط، وحين تصطدم بالأرض تنفجر الكبسولة فتسبب انفجار اللغم (م. ن. ص 126).

التسلل إليها من باب النبي داود وأوصلوا إلى مقاتليهم فيها تعزيزات بالرجال (ثمانين مقاتلا) والسلاح والمؤن، إلا أن الجنود العرب استطاعوا، بعد ذلك، محاصرة الباب مرة ثانية، وبقي اليهود خارج المدينة القديمة، على جبل صهيون[82].

نظم يهود المدينة القديمة دفاعهم داخل حيّهم، فسدوا شوارع الحي ومنافذه بالاستحكامات، وجعلوا من كل بيت متراساً، وحفروا الخنادق والممرات والمعابر التي تتيح لهم التحرك والتجوّل الحذر للقتال والاتصال والتموين بين المراكز، وكان دفاعهم بالعمق، خطوطاً دفاعية متتالية، بحيث لا يكاد المهاجم يتغلب على واحد منها حتى يصطدم بالآخر. وكان اللاسلكي هو الوسيلة الوحيدة للاتصال بين يهود المدينة القديمة وبين الخارج. أما السلاح والذخيرة والمؤونة فكانت متوافرة بكثرة لأنهم استدركوا هذه الأمور كلها، قبل القتال، فاستعدوا له، وخزّنوا الكثير من حاجاتهم تلك[83].

وفي المقابل، كان بداخل السور، من المقاتلين والجنود العرب «من كل الرتب» نحو أربعماية فقط[84]: سريتان من الفيلق العربي (نحو 200 مقاتل) والباقون من المناضلين والمجاهدين العرب. فبينما كان قسم من هؤلاء الجنود والمقاتلين يصدون اليهود عن أبواب المدينة، كان القسم الآخر يحاصر الحي اليهودي فيها. وبينما كان معظم الجنود يسهرون على السور وعيونهم إلى الخارج يرقبون تحركات العدو الذي يمطرهم بالقنابل ويكثف هجماته عليهم، كان الباقون، وهم ليسوا أكثر من مايتي جندي، مدعومين ببعض المناضلين غير النظاميين والشرطة المدنية، يحاصرون اليهود في حيهم، ويرقبون تحركاتهم وهجماتهم المتكررة والمتواصلة[85]. وكانت الهاغاناه قد تمكنت من تسريب عدد كبير من مقاتليها إلى المدينة القديمة قبل انتهاء الانتداب ورحيل الإنكليز، وعلى هذا، فقد أضحى القتال «أمراً لا مفر منه»[86].

---

(82) Glugg, Op. Cit., p. 127.

(83) التل، المصدر السابق، ج 1: 111.

(84) Glubb, Op. Cit., p. 123.

(85) Ibid., pp. 128-129.

(86) Ibid., p. 128.

كان قد مضى على حصار المدينة القديمة نحو أسبوع (منذ 5/18)، فكان لا بد من مهاجمتها، وقد اتخذ القرار، وكلفت الكتيبة السادسة (بقيادة عبد الله التل) تنفيذ المهمة.

وبدأت الكتيبة بالإعداد للهجوم، فدكت معاقل اليهود في الحي اليهودي داخل الأسوار، ودمرت جميع المنازل التي اتخذت «أبراجاً واستحكامات» تمهيداً لعملية الهجوم، وعكفت قيادة الكتيبة على درس محاور التقدم داخل المدينة القديمة، وكانت صعبة للغاية، بل مستحيلة بالنسبة إلى المصفحات، ومحفوفة بالمخاطر بالنسبة إلى المشاة، بسبب الشوارع الضيقة والأزقة المتعرجة والمليئة بالأسلاك والحواجز والعراقيل المحمية بنيران العدو، وكان أهم ما يمكن إنجازه في هذه العملية هو إدخال المصفحات إلى داخل المدينة القديمة، لتطويق الحي اليهودي، وقد تمكنت قيادة الكتيبة من اكتشاف ممرات ملائمة تصل بالمصفحات إلى باب الخليل وباب النبي داود.

وبدىء بتنفيذ الهجوم ليل 26 ـ 5/27 حيث اندفعت ثلاث مدرعات تخترق شوارع القدس القديمة الضيقة، فتمركزت واحدة عند باب الخليل، وتقدمت اثنتان إلى باب النبي داود، وباشرت الأولى بقصف الشوارع المواجهة لها في الحي اليهودي بقنابل مدافعها ورصاص رشاشاتها، بينما أحكمت المدرعتان الأخريان الطوق بالنار حول الحي اليهودي، مما أشاع موجة من الذعر والهلع في نفوس اليهود المحاصَرين، وعلموا أنه قد سُقط في أيديهم، ولم يعد لهم من حيلة سوى الاستسلام[87].

في هذه الأثناء، كانت دائرة التواجد اليهودي في الحي، حيث هم محاصرون، تضيق ببطء، بسبب ضغط القوات العربية المحاصِرة. وببطء شديد، كان الجنود العرب يتقدمون في الحي اليهودي «من بيت لبيت»، فيفتحون ثغرة واسعة في الجدار، يلقون منها قنبلة يدوية، ثم يزحف الجند إلى داخل الغرفة، السلاح مشهر، وعندها، وببطء وعناية، يفتحون باب الغرفة التالية، وهكذا ينسلّون من غرفة إلى غرفة، يهبطون في ممرات مظلمة، ويصعدون ثم يهبطون

(87) التل، المصدر السابق، ج 1: 117 ـ 119.

درجات وسلالم صغيرة، ثم يخرجون إلى الفسحات أو يدخلون الأقبية، ويضعون أحياناً المواد المتفجرة في الجدران الفاصلة فيفجرونها»[88].

وهكذا استمر الجنود العرب في تضييق الخناق على اليهود المحاصَرين، حتى انكمشت خطوط دفاعهم وتقلصت وانحصرت في كنيسٍ كبير يسمى «قدس الأقداس أو هورڤا» حوصروا فيه، دون أن يتخلوا عن مقاومتهم، وكانوا يقنصون كل جندي يتقدم من الكنيس المحاصَر، فلم يكن بد من إنذارهم بالاستسلام أو قصف الكنيس[89]. ولم تمضِ أربع وعشرون ساعة على الإنذار، وبعد عشرة أيام من الحصار المضني، أي في صباح الثامن والعشرين من الشهر نفسه، أقبل حاخامان من الحي اليهودي نحو القيادة العربية، وهما يحملان علماً أبيض، وعرضا استسلام الحي للكتيبة الأردنية، وتمت الموافقة على ذلك بالشروط التي وضعها قائد هذه الكتيبة، وهي أن يؤخذ المقاتلون أسرى حرب، وأن يُرحّل النساء والشيوخ والأطفال والجرحى خارج أسوار المدينة المقدسة، وأن يتم تسليم السلاح والعتاد الحربي والذخيرة. ووقعت وثيقة الاستسلام من قبل وكيل القائد عبد الله التل قائد الكتيبة السادسة في «الفيلق العربي»، عن الجانب العربي، وموشه روزنك قائد الهاغاناه عن الجانب اليهودي، وذلك في 28 أيار 1948. وقد حُشد اليهود في ساحة من ساحات الحي حيث أُفرز المقاتلون منهم وأُخذوا أسرى إلى عمان، أما باقي الأهالي فقد نقلوا إلى الأحياء اليهودية في القدس الجديدة[90]. وفيما يلي تعريب لنص هذه الوثيقة (وقد وضعت باللغة الإنكليزية):

الفريق الأول: وكيل القائد عبد الله التل.

الفريق الثاني: قائد الهاغاناه في القدس القديمة.

بناء على الطلب المقدم من يهود القدس القديمة للاستسلام، قدم الفريق الأول الشروط فقبلها الفريق الثاني وهي:

---

(88) Glubb, Op. Cit., p. 129.

(89) التل، المصدر السابق، ج 1: 125.

(90) م. ن. ص 131 ـ 136.

1 ـ إلقاء السلاح وتسليمه للفريق الأول.

2 ـ أخذ جميع المحاربين من الرجال أسرى حرب.

3 ـ السماح للشيوخ من الرجال والنساء والأطفال ومن كانت جراحهم خطيرة، بالخروج إلى الأحياء اليهودية في القدس الجديدة بواسطة الصليب الأحمر.

4 ـ يتعهد الفريق الأول بحماية أرواح جميع اليهود المستسلمين.

5 ـ يحتل الجيش العربي الأحياء اليهودية في القدس القديمة.

28/5/1948 الفريق الأول: عبد الله التل

الفريق الثاني: موشي روزنك[91].

(انظر الوثيقة رقم 1).

وكانت هذه هي الوثيقة الوحيدة واليتيمة التي أحرزها العرب خلال صراعهم الطويل مع الدولة العبرية.

وقد بلغت خسائر العدو في هذه المعركة ثلاثماية قتيل وثمانين جريحاً وثلاثماية وأربعين أسيراً، أما خسائر العرب فكانت أربعة وعشرين شهيداً (أربعة عشر جندياً نظامياً وعشرة من قوات الجهاد المقدس) وخمسة وعشرين جريحاً[92]. وأما أهم نتائج هذه المعركة فكانت تطهير القدس القديمة من اليهود بحيث «لم يبق فيها يهودي واحد، وذلك لأول مرة منذ أكثر من ألف عام»[93].

أما القسم الثاني من القدس (القدس الجديدة) فقد ظل تحت سيطرة الدولة اليهودية.

---

(91) التل، المصدر السابق، ج 1: 134.

(92) التل، م. ن.، ج 1: 138 و140.

(93) م. ن. ص 138.

وثيقـــة رقـــــم (١١) .

" الـوثيقـــــــة اليتيمـــــة "

وثيقة التسليم

الفريق الأول : وكيل القـائد عبد الله التل .

الفريق الثاني : قائد الهاجناه في القدس القديمة .

بناء على الطلب المقدم من يهود القدس القديمة للاستسلام قدم الفريق الأول الشروط فقبلها الفريق الثاني وهي :

١ ـ القاء السلاح وتسليمه للفريق الأول .

٢ ـ اخذ جميع المحاربين من الرجال أسرى حرب .

٣ ـ السماح للشيوخ من الرجال ، والنساء والأطفال ومن كانت جراحهم خطيرة ، بالخروج الى الأحياء اليهودية في القدس الجديدة بواسطة الصليب الأحمر .

٤ ـ يتعهد الفريق الأول بحماية أرواح جميع اليهود المستسلمين .

٥ ـ يحتل الجيش العربي الأحياء اليهودية في القدس القديمة .

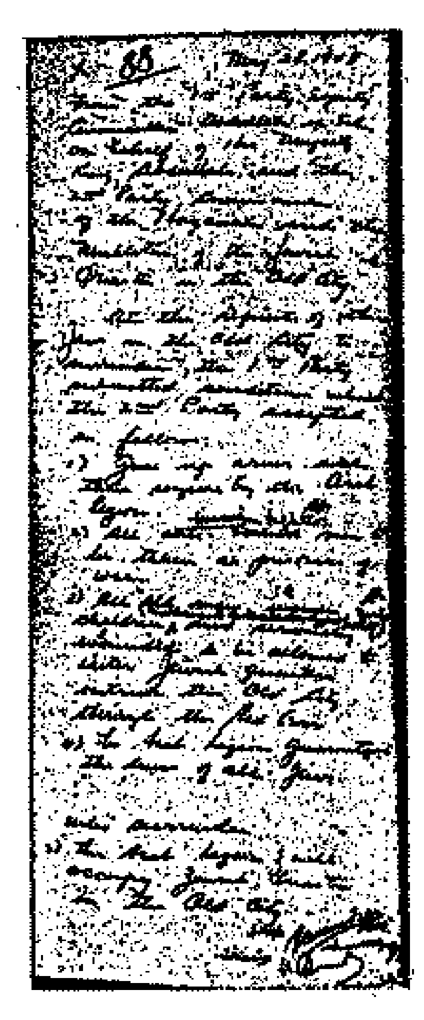
١٩٤٨/٥/٢٨

الفريق الأول
عبد الله التل

الفريق الثاني
موشه روزناك

المصدر :

التل ، عبد الله ،
كارثة فلسطين ،
ج1 : ١٣٤



From the first party. Deputy Commander Abdullah el Tell on behalf of His Majesty King Abdullah and the second party Commander of the Haganah & the Mukhtar of the Jewish quarter in the old City .

At the request of the Jews in the Old City to surrender the first party submitted conditions which the second party accepted as follows : -

1) Give up arms and their seizure by the Arab Legion .
2) All fighters « men » to be taken as prisoners of war .
3) All old men , women , girls , children « civilians to be decided on by first party) and seriously wonded, to be allowed to enter Jewish quarters outside the Old City through the Red Cross .
4) The Arab Legion guarantees the lives of all Jews who surrender .
5) The Arab Legion will occupy Jewish quarter in the Old City .

May,28 th. 1948

المصدر :

العارف ، عارف ،
النكبة ، ج٢ : ٤٨٧ .

الفصل الثالث

الاحتلال الصهيوني للقدس الشرقية

الاحتلال الصهيوني للقدس الشرقية (1967م = 1387هـ):

1 ـ القدس الشرقية عشية الاحتلال الصهيوني:

تطورت القدس الشرقية تطوراً ملحوظاً، خلال فترة الحكم العربي الأردني لها، والواقعة ما بين عام 1948 (الحرب العربية ـ الإسرائيلية الأولى) وعام 1967 (الحرب العربية ـ الإسرائيلية الثالثة)، سواء من حيث عدد السكان (وهم، جميعاً، من العرب) أو من حيث الإعمار والبناء.

وقد سبق أن ذكرنا أنه، بعد حرب عام 1948 واحتلال الجيش العربي الأردني للقدس القديمة، لم يبق في هذه المدينة يهودي واحد، وأصبحت القدس الشرقية عربية صرفة، وكان عدد أهلها قد بلغ، عشية هذه الحرب، أكثر من 60 ألف نسمة، إلا أن عدد سكان هذه المدينة ارتفع، وفقاً لإحصاءات عام 1961 إلى نحو 80 ألف نسمة، مقابل 167 ألف نسمة من اليهود في القدس الجديدة، مما رفع عدد سكان المدينة المقدسة، بقسميها القديم والجديد، إلى 247 ألف نسمة.

ولكن عدد سكان القدس الشرقية انخفض، بعد حرب حزيران عام 1967، وفي عام 1970، إلى 73 ألف نسمة، بسبب نزوح السكان العرب عنها، بعد احتلالها من قبل الصهاينة، بينما ارتفع عدد سكان القدس الغربية إلى 215 ألف

نسمة، وأصبح العدد الإجمالي لسكان القدس، بقسميها، عام 1970 : 288 ألف نسمة[1].

ويزعم المؤرخ اليهودي (باهات) أن عدد سكان القدس الشرقية انخفض، بعد حرب عام 1948 «إلى النصف» عما كان عليه عشية هذه الحرب، وذلك لأن المملكة الأردنية الهاشمية «كرست مواردها لتنمية العاصمة عمان» على حساب المدينة المقدسة، إلا أن عدد سكان مدينة القدس الشرقية بدأ يتزايد منذ نهاية عام 1960 حتى أنه تضاعف «خمس مرات بين عامي 1960 و1967»[2]. وقد تضاربت أرقام الإحصاءات العائدة لسكان القدس والمقدمة من الباحثين العرب أو اليهود أو منهما على السواء، ففي مداخلة قدمها «غازي السعدي» في الندوة الثالثة ليوم القدس التي جرت في عمان في ت 1/ اكتوبر 1991، ذكر (دونّ أن يحدد المصدر) أن عدد سكان القدس من العرب عشية حرب عام 1967، كان 75 ألفاً مقابل 204 آلاف من اليهود (بحيث يكون مجموع عدد سكان القدس في هذا العام 279 ألفاً)، ويثير «بهجت أبو غربية» في الندوة نفسها، مسألة أن الأرقام الواردة في إحصاءات عام 1967 للقدس تشمل المدينة «في حدودها الصغرى» ولا تشمل «القدس الكبرى الواسعة» ولا «سكان القرى المحيطة»، وأن الأرقام التي قدمها «غازي السعدي» هي صحيحة إذا طبقت على «القدس الصغرى»[3].

بينما تذكر صحيفة «دافار» الإسرائيلية أن عدد السكان العرب داخل حدود

---

(1) الموسوعة الفلسطينية، ج 3: 514. ويذكر سمير جريس أن عدد سكان القدس الجديدة كان عشية حرب حزيران عام 1967: 196 ألف نسمة مستنداً، في ذلك، إلى إحصاءات اسرائيلية (جريس، المرجع السابق، ص 43). بينما يذكر المهندس «ابراهيم الدقاق» في محاضرة له بعنوان «القدس: المدينة والمعاش» ألقيت في الندوة الثالثة التي أقامتها لجنة «يوم القدس» في عمان (من 1 إلى 13/ 10/ 1992) وحسب إحصاءات مستقاة من دائرة الاحصاءات العامة في 18/ 10/ 1961 ومن كتاب:

Jerusalem Statistical Year Book 1985-1988.

إن عدد الفلسطينيين في مدينة القدس كان (عام 1962): 60488 نسمة (31562 نسمة من الذكور و28925 نسمة من الإناث) (يوم القدس، أبحاث الندوة الثالثة، ص 211). وربما يكون الخلاف ناتجاً عن اختلاف في تحديد حدود المدينة بقسميها: القديم والجديد. والجدير بالذكر أن معظم هذه الاحصاءات اسرائيلية نظراً لعدم وجود إحصاءات عربية.

(2) Bahat, Op. Cit., p. 141.

(3) يوم القدس، الندوة الثالثة، ص 344 ـ 345.

بلدية القدس، وخلال إحصاء جرى عام 1967، بلغ 65 ألف نسمة، بينما بلغ عدد اليهود داخل حدود البلدية نفسها، وفي التاريخ نفسه، 200 ألف نسمة[4].

وقد اتسعت القدس الشرقية، خلال فترة الحكم الأردني (1948 ـ 1967) باتجاه الطرق الرئيسية شمالاً وشرقاً، فنمت الأحياء الراقية مثل حي الشيخ جراح وشعفاط وبيت حنينا، باتجاه طريق القدس ـ رام الله شمالاً، بينما تكثفت الأحياء الشعبية على طريق القدس ـ عمان شرقاً وطريق القدس ـ بيت لحم جنوباً، وتركز الوسط ـ التجاري في شارعي باب العمود وصلاح الدين[5]، في وسط المدينة. ومع أن القدس الجديدة (أو الغربية) لم يكن أمامها إلا التوسع باتجاه الغرب، إلا أنها نمت بوتيرة عالية تفوق تلك التي نمت بها القدس الشرقية، حيث نمت أحياؤها السكنية وتطورت «بعماراتها الضخمة التي بنيت لاستيعاب أكبر عدد ممكن من المهاجرين الصهيونيين»[6]. وقد أصبحت التسمية الشائعة لكل من قسمي القدس: الشرقي (العربي) والغربي (اليهودي) هي القدس الشرقية، والقدس الغربية. وأصبحت مساحة بلدية القدس (حتى 31/ 3/ 1967) 38,1 ألف دونم، ثم ارتفعت في 31/ 3/ 1969 إلى 108 دونمات بسبب ضم القدس الشرقية إلى الغربية (في 28/ 6/ 1967)[7]، وذلك مقابل 48 دونماً هي مساحتها عند تأسيسها الأول.

2 ــ مقدمات الاحتلال:

على أثر الاعتداء الإسرائيلي على قرية «السموع» في الأردن بتاريخ 13/ 11/ 1966، وعلى أثر المعركة الضارية التي جرت بين الجيشين السوري والإسرائيلي، براً وجواً، بتاريخ 7/ 4/ 1967، وما تبعها من تهديدات إسرائيلية لسوريا، وحشود عدوة على حدودها، بسبب النشاط الذي كان يمارسه الفدائيون الفلسطينيون ضد اسرائيل من خلال الجبهتين الأردنية والفلسطينية، وبتاريخ 16

---

(4) القدس، حقائق وأرقام، نشرة إحصائية، 1985، ص 19.
(5) الموسوعة الفلسطينية، ج 3: 515.
(6) م. ن. ص. ن.
(7) القدس، حقائق وأرقام، نشرة إحصائية، عام 1985، ص 10. والدونم: ألف متر مربع.

أيار (1967) قرر الرئيس جمال عبد الناصر التدخل لتخفيف الضغط عن الجبهتين المذكورتين، فطلب من «يوثانت» أمين عام الأمم المتحدة يومذاك، سحب القوات الدولية من سيناء، ثم أمر القوات المصرية بدخولها والتمركز فيها، على مقربة من حدود فلسطين المحتلة، كما أمر بإغلاق مضايق تيران في وجه الملاحة الإسرائيلية، الأمر الذي اعتبرته اسرائيل عملاً عدوانياً يبرر لها أن تشن حرباً وقائية ضد عبد الناصر وحلفائه من العرب.

وسواء أكان عبد الناصر جاداً في تهديده لإسرائيل، أم مناوراً، فإن القبول الفوري للأمين العام للأمم المتحدة بسحب القوات الدولية من سيناء جعله مضطراً لكي يدفع بقواته إلى سيناء، ويفرض الحصار على مضايق تيران، ولكنه لم يبادر إلى شن هجوم على اسرائيل. كما أن حشده لنحوماية ألف مقاتل في سيناء وجعلهم ينتظرون أياماً، في عراء الصحراء، وبلا غطاء جوي محكم، ثم قبوله بعدم المبادرة إلى الهجوم بناء لنصيحة الدولتين العظميين، أميركا والاتحاد السوفياتي، اللتين أكدتا له، بل ضمنتا، عدم مبادرة اسرائيل إلى ذلك، كل هذه الأمور جعلت انتصار اسرائيل مرجحاً، بل حتمياً، إن هي بادرت إلى الهجوم.

وهكذا، وبعد نحو عشرين عاماً على الاحتلال الصهيوني للقدس الجديدة، وبالتحديد، في فجر يوم الاثنين، الخامس من حزيران عام 1967، اندلعت الحرب العربية ـ الإسرائيلية الثالثة (الأولى عام 1948، والثانية عام 1956)، وبمبادرة من اسرائيل، ضد كل من مصر وسوريا والأردن، وكانت نتيجتها أن احتلت اسرائيل ما تبقّى من فلسطين كما احتلت أراضي عربية أخرى، واحتلت ما تبقى من مدينة القدس، أي القدس القديمة وما يتبعها من القدس الشرقية، فضمتها إليها، وجعلت من «أورشليم القدس» عاصمة لها.

هاجمت اسرائيل مصر، في البدء (صباح 5 حزيران)، فضربت سلاحها الجوي ضربة مفاجئة ودمّرته، ثم قضت على القوات المصرية في سيناء، واحتلت غزة وسيناء، ووصلت إلى قناة السويس حيث تمركزت. وما أن اطمأنت إلى انتصارها على الجبهة المصرية حتى تحوّلت إلى الجبهة الأردنية (وكان قد قام تحالف عسكري بين مصر والأردن قبل أيام من هذه الحرب، بتاريخ 30 أيار) فاحتلت الضفة الغربية بكاملها، وهي ما تبقى من فلسطين، وكانت ملحقة بالمملكة

الأردنية الهاشمية منذ عام 1948، ثم هاجمت سوريا (وكانت، كذلك، متحالفة عسكرياً مع مصر)، فاحتلت قطاع الجولان، وقد تم ذلك كله في ستة أيام فقط.

وقد بدأت معركة القدس فور أن بدأت الحرب بين الجيشين الأردني والإسرائيلي، فكلاهما كانا يتقاسمان المدينة المقدسة عند خطوط الهدنة التي وقّعت بين البلدين عام 1949. (انظر المخطط رقم 11).

3 ـ الاحتلال (7 حزيران 1967):

أ ـ القوى المتجابهة:

ـ الأردن:

في صباح 5 حزيران، كانت القوات الأردنية المتمركزة في الضفة الغربية موزعة على الشكل التالي:

ـ المشاة:

1 ـ اللواء الأول (لواء الأميرة عالية): في منطقة نابلس وطولكرم وقلقيلية.

2 ـ اللواء الثاني (اللواء الهاشمي): من قلقيلية حتى اللطرون (منطقة رام الله).

3 ـ اللواء الثالث (لواء الإمام علي): منطقة القدس (القدس والقرى الواقعة شمالها).

4 ـ اللواء 12: على الطرف الشمالي للضفة الغربية في مواجهة بيسان.

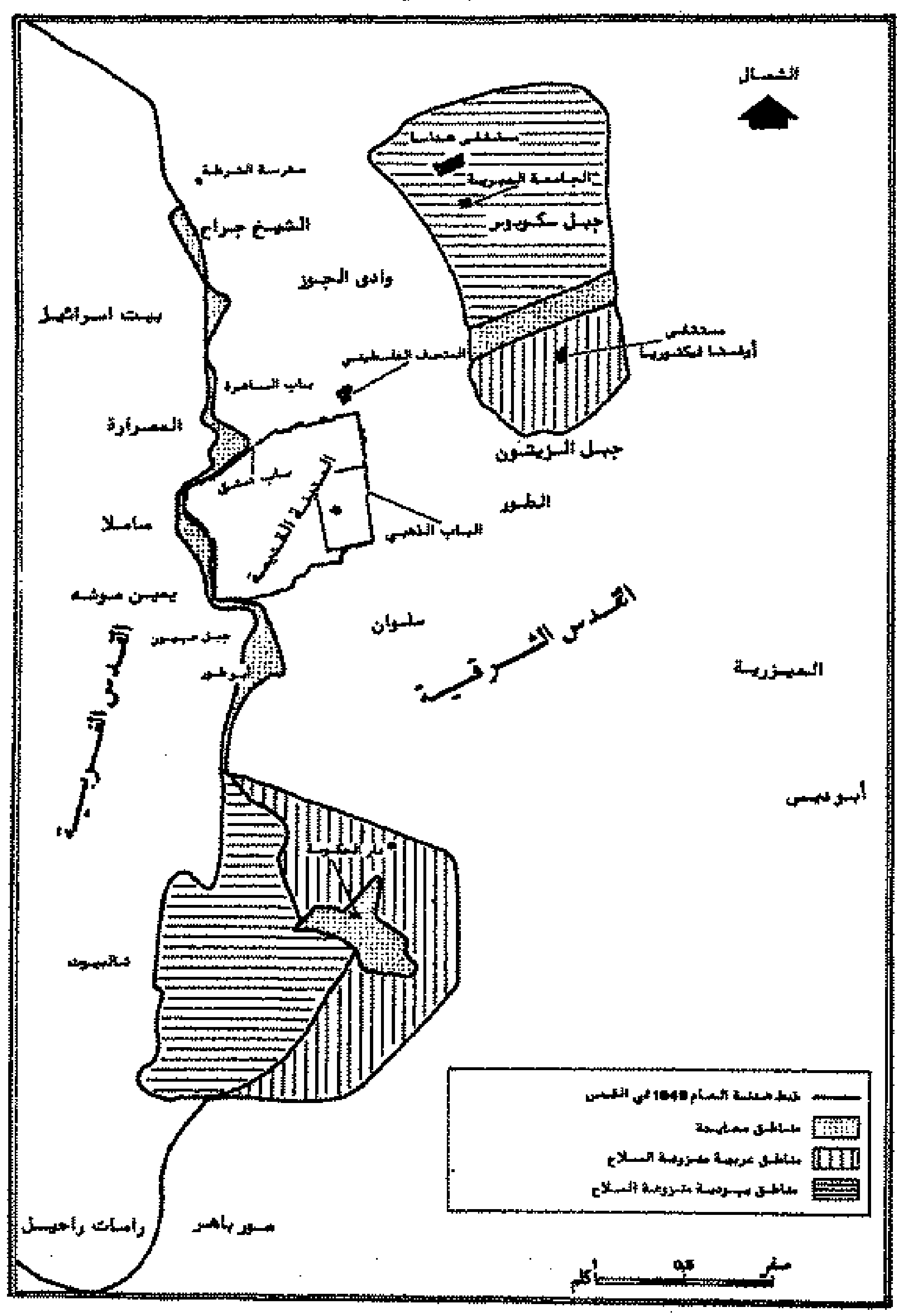
5 ـ اللواء 25 (لواء خالد بن الوليد)، مع كتيبة دبابات: منطقة جنين.

6 ـ اللواء 27: من أريحا حتى القدس.

7 ـ اللواء 29 (لواء حطين): منطقة الخليل.

8 ـ اللواء 36: جنوب بيسان.

مخطط رقم (11)
القدس الشرقية
عشية الحرب العربية - الاسرائيلية الثالثة
- 1967 -



BAHAT , P .145

ـ المدرعات (لواءان):

1 ـ اللواء 40: منطقة جسر دامية.

2 ـ اللواء 60: منطقة الخان الأحمر، غرب أريحا.

كما كان اللواء الرابع المدرع متمركزاً جنوب الأردن (من البحر الميت حتى العقبة) ولواء الحرس الملكي متمركزاً في عمان. وكان مجموع القوات المدرعة والمدفعية المتمركزة في بقعة العمل هذه: 250 دبابة، و250 ناقلة جند مدرعة، و200 مدفع ميدان.

وكانت هذه القوات جميعها ممتدة على طول 650 كلم، مما أدى إلى بعثرتها، وبالتالي ضعف جهازها الدفاعي، وقد انضمت إلى هذه القوات:

ـ من العراق:

- اللواء الثامن مشاة، وقد وصل إلى المفرق يوم 5 حزيران، وتوجه إلى جسر دامية بعد ظهر اليوم نفسه.

ـ من مصر:

- كتيبتا مغاوير، وقد وصلتا إلى مطار عمان في 3 حزيران، وألحقت إحداهما (كتيبة 33) باللواء 35 مشاة (خالد بن الوليد) في منطقة جنين، وألحقت الثانية (كتيبة 53) باللواء الثاني مشاة (اللواء الهاشمي) في منطقة رام الله.

ـ من السعودية:

- لواء مشاة غير كامل، وقد وصل يوم 7 حزيران ولم يشترك في الحرب.

ـ من سوريا:

- اللواء 17 مدرع، وقد وصل مساء 7 حزيران ولم يشترك بالحرب[8].

أما القوات المدافعة عن القدس، فكانت:

- كتيبة مشاة (كتيبة الحسين، من لواء الإمام علي) وعديدها نحو 700 جندي، معززة بـ:

---

(8) مصطفى، حسن، حرب حزيران 1967، ج 2: 25 ـ 26.

ـ 6 مدافع هاون عيار 3 بوصة.

ـ 6 مدافع 106 ملم ضد الدبابات.

ـ 6 رشاشات عيار 500 ملم.

وكانت هذه القوة مسندة بالمدفعية، إلا أنها كانت «محرومة حرماناً تاماً من إسناد الدروع والقوة الجوية»[9].

ـ اسرائيل:

كانت معظم القوات الإسرائيلية صباح 5 حزيران، منهمكة بالهجوم على الجبهة المصرية، ولم تترك اسرائيل على الجبهتين السورية والأردنية سوى قوة مدافعة ومشاغلة. وهي تعتمد في مثل هذه الحالة، لضيق مساحتها، استراتيجية «المناورة بالخطوط الداخلية» وقد نفذتها بامتياز، إذ استطاعت أن تحرك قواتها من جبهة إلى أخرى بسهولة ويسر، مطمئنة إلى متانة غطائها الجوي، وسيطرتها الجوية بسبب تدميرها للقوة الجوية العربية الرئيسية، أي القوة المصرية، من جهة، وإلى جودة طرقاتها الداخلية التي أتاحت لها سرعة هذا التحرك، من جهة أخرى. وهكذا، فقد حشدت اسرائيل على جبهة القدس، وخلال ساعات، ثلاثة ألوية كاملة، هي:

- لواء مشاة، وهو لواء القدس، بقيادة الكولونيل اليعازار اميتاي (Eliezer Amitai) ومهمته: احتلال مقر الأمم المتحدة على جبل المكبر، وقرية «صور باهر» جنوب القدس.
- لواء مدرع (اللواء العاشر) بقيادة الكولونيل أوري بن آري (Uri Ben Ari) ومهمته: احتلال المواقع الأردنية شمال غربي القدس.
- لواء مظلي (اللواء 60)، بقيادة الكولونيل مردخاي غور (Murdechai Gur) المكنى (موتا Mota) ومهمته: احتلال حي الشيخ جرّاح والاتصال بالحامية اليهودية على جبل سكوبوس، ثم احتلال القدس القديمة[10].

---

(9) م. ن.، ص 48.

(10) Ben Elissar, Eliahu, et Schiff, Zeev, La guerre Israelo-Abrabe, p. 203.

وقد أوكلت قيادة العمليات إلى الجنرال عوزي ناركيس (Uzi Narkiss) قائد الجبهة الوسطى.

ب ـ العمليات العسكرية (انظر الخارطة رقم 11):

«بناء عليه، يأمر المشير عامر القائدَ العام للجبهة الأردنية بأن يفتح جبهة جديدة، وأن يبدأ العمليات الهجومية وفقاً للخطة التي رسمت في اليوم السابق»[11]. كان هذا هو الأمر الذي أصدره المشير عامر، القائد العام للقيادة المصرية الأردنية ـ الموحدة، إلى الفريق عبد المنعم رياض قائد الجبهة الأردنية، وذلك صباح 5 حزيران بالذات، وبعد أن كان الهجوم الجوي الإسرائيلي على مصر قد بدأ. أما الخطة التي رسمت «في اليوم السابق» فكانت تقضي بفتح الجبهة الأردنية ضد اسرائيل إذا ما هاجمت اسرائيل مصر، وذلك وفقاً لمعاهدة الدفاع المشترك التي وقعها كل من الرئيس جمال عبد الناصر والملك حسين في لقائهما بتاريخ 30 أيار 1967[12].

ما إن علم الملك حسين باندلاع الحرب بين مصر وإسرائيل حتى انطلق فوراً إلى مقر القيادة العسكرية، حيث بادره الفريق رياض بالقول: «أمرت مدفعيتنا باحتلال خطوط النار الأمامية، وأصدرت تعليمات إلى كتيبة مشاة تابعة للواء الإمام علي بوجوب احتلال (جبل المكبّر) في القدس»، ويستطرد الملك: «وقد احتلت قواتنا جبل (المكبر) في وقت قصير»[13] أي قبل ظهر 5 حزيران.

وتضيف المصادر الإسرائيلية إلى ذلك أنه، في الساعة الواحدة من قبل ظهر اليوم نفسه (5 حزيران)، احتلت سرية من الجيش الأردني مركز المراقبين الدوليين في «قصر المندوب السامي Palais du Haut Commissaire» أو «دار الحكومة

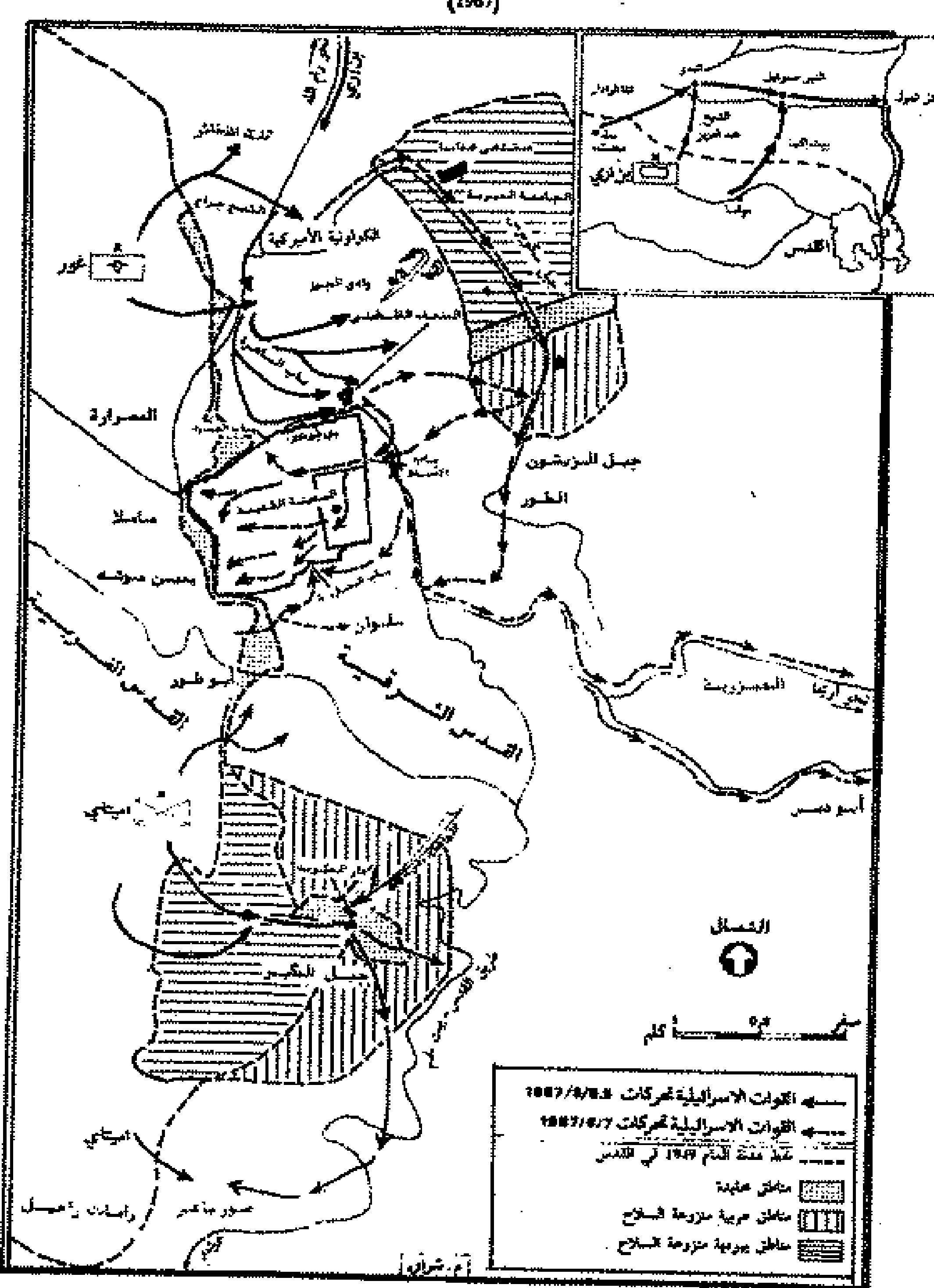
---

(11) فانس، فيك، ولوير، بيار، الملك حسين، حربنا مع اسرائيل، ص 49.

(12) م. ن. ص 38 ـ 39.

(13) م. ن. ص 50، وقد عمدنا إلى تصحيح الخطأ الذي وقع فيه المؤلفان إذ إنهما أوردا اسم جبل «سكوبوس» بدلاً من جبل «المكبّر» حيث «يقوم المقر العام للجنرال النروجي أوديول رئيس أركان الأمم المتحدة» انظر: التل، المصدر السابق، ج 1: 212 (الخارطة)، ومصطفى، حسن، المرجع السابق، ص 44.

خارطة رقم (١٤)
الاحتلال الاسرائيلي للقدس الشرقية
(1967)



BAHAT, P 145

«Palais du Gouverneur»[14] على جبل (المكبر)، في وقت كان الجيش الأردني يمطر، بقذائف مدافعه «الحي اليهودي في القدس، وباقي المراكز الإسرائيلية، وكذلك مطارنا الدولي في اللد»[15].

أما جبل «سكوبوس» حيث كانت تقع الجامعة العبرية ومستشفى هداسا، فقد ظل بيد اليهود ولم تتمكن القوات الأردنية من احتلاله، رغم الهجمات المتكررة التي شنتها عليه، إذ صمدت حاميته المؤلفة من نحو 120 جندياً[16]، والتي عززت «بمختلف أنواع الأسلحة» وأحيطت «بالأسلاك والألغام»، وقد ساعدها على الصمود مناعة تلك المواقع، إذ حصنها العدو «وجعل منها ترسانة» يصعب احتلالها[17]. وهكذا، فقد توقف المد الأردني عند هذا الحد، وبدأ الجيش المهاجم يفقد المبادرة التي ما فتئت أن انتقلت إلى يد العدو، إذ إنه لم تمض ساعات حتى كانت اسرائيل تتحوّل من وضع الدفاع إلى وضع الهجوم لتحدد بالتالي، مصير الحرب على هذه الجبهة.

ماذا جرى، إذن، في الجانب الإسرائيلي من الجبهة؟

لقد كانت مخاوف القيادة الإسرائيلية متجهة نحو نقطتين مهمتين:

الأولى: أن يقدم الجيش الأردني على تطويق القطاع الإسرائيلي من القدس (القدس الجديدة) وعزله، لما يشكله هذا القطاع من ضعف في جهاز الدفاع الإسرائيلي بسبب بعده عن «باقي البلاد»، وبروزه كنتوء داخل القطاع الأردني في الضفة الغربية.

الثانية: أن يقدم هذا الجيش على قطع اسرائيل إلى نصفين عند «ناتانيا» على

---

(14) Seguev, Samuel, La guerre de 6 jours, p. 210, et Ben Elissar et Z. Schiff, Op. Cit., p. 204.

(15) Dayan, Moshé, Histoire de ma vie, p. 342.

(16) Randolphe et Winston Churchill, Victoire dans le desert, p. 182.

وقد ظل هذا الجبل بيد اليهود منذ عام 1948 بناء لاتفاقية الهدنة التي وقعت حينذاك بين الأردن واسرائيل، إلا أنه كان معزولاً عن الدولة اليهودية ويشكل «منطقة منزوعة السلاح»، تستبدل حاميته مرة كل نصف شهر، وكانت أسلحة هذا الموقع محدودة في البدء، إلا أن العدو استطاع بعد ذلك تجهيزه بكميات وافرة من الأسلحة والعتاد الحربي حتى أصبح «ترسانة حقيقية».

(17) مصطفى، المرجع السابق، ج 2: 44 ـ 45.

الساحل وفي موازاة «أسفل البطن الطري» للدولة العبرية، وفقاً لتعبير «يغال ألون»، حيث لا يفصل بين الساحل غرباً، وحدود اسرائيل شرقاً، أكثر من خمسة عشر كيلومتراً[18].

لذا، كان على اسرائيل أن تتحرك بسرعة، وقبل فوات الأوان. وما يهمنا، في هذا المجال، هو التحرك الإسرائيلي لمواجهة الوضع الخطير في القدس، ويمكن تقسيم هذا التحرك إلى عمليتين:

- العملية الأولى: استرداد دار الحكومة، ثم تطويق القدس القديمة وعزلها عن باقي القطاع، بعد تأمين الاتصال بالحامية الإسرائيلية في «جبل سكوپوس».
- العملية الثانية: اقتحام المدينة القديمة واحتلالها.

وفيما يلي تفصيل لكل من هاتين العمليتين:

العملية الأولى: تطويق المدينة القديمة (5 ـ 6 حزيران)

في الساعة 15,30 من بعد ظهر اليوم الأول من الحرب، أي في 5 حزيران، قامت كتيبة محمولة من لواء القدس (الذي يقوده الكولونيل أليعازار اميتاي) بشن هجوم على مواقع الجيش الأردني في «دار الحكومة وكل القطاع المحصن الممتد خلفها»[19] حتى «صور باهر» جنوباً، فتمكنت من احتلال تلك المواقع بما فيها «دار الحكومة» و «صور باهر»، «بعد معركة قصيرة ولكنها شرسة»[20]، وقطعت بذلك على الجيش الأردني طريق بيت لحم ـ القدس. وهكذا تمكّن الجيش الإسرائيلي من عزل القدس عن جهة الجنوب قبل أن تغرب شمس اليوم الأول من الحرب، ولم يخسر في هذه المعركة سوى ثمانية قتلى[21] أما قتلى الجيش الأردني فكانوا نحو أربعين[22].

---

(18) R, et W, Churchill, Op. Cit., p. 184.

(19) Ibid., p. 191 et Ben Elissar et Schiff, Op. Cit., p. 204.

(20) Ben Elissar et Schiff, Ibid.

(21) R, et W, Churchill, Op. Cit., p. 191, et Ben Elissar, Op. Cit., p. 204.

(22) Seguev, Samuel, La guerre de six jours, p. 210.

في هذه الأثناء وعند الساعة 13,00، كان اللواء المدرع (بقيادة الكولونيل أوري بن آري) قد تلقى الأوامر بالاستعداد للهجوم، وأخذ يستعد للتحرك باتجاه خطوط الدفاع الأردنية بين رام الله والقدس بهدف اختراقها وقطع الطريق على الأردنيين بين هاتين المدينتين[23].

لقد كان «بن آري» قائداً للقوات الإسرائيلية في هذا القطاع عام 1948 وقاتل الجيش الأردني في تلك المواقع نفسها، وهو يذكر كم كانت منيعة ومحصنة تلك المواقع التي يحتلها الجيش الأردني ويقاتل فيها، وخصوصاً «محطة الرادار» ومركز «الشيخ عبد العزيز» وقرية «بيت أكسا» (وكان بن آري على رأس قوة هاجمت هذه المواقع عام 1948)[24].

ويذكر «بن آري» أنه، في الساعة 13، تلقى الأمر «باحتلال سلسلة المرتفعات المحصنة والممتدة من رام الله إلى القدس»[25] وأن «المشكلة كانت في التحصينات»، لذا فهو أرسل «دبابة ضد كل حصن»، وفي خلال «17 إلى 19 ساعة» كانت كل هذه التحصينات قد سقطت «الواحدة بعد الأخرى». ثم «دخل اللواء المدرع في الجهاز (الدفاعي للعدو) وأخذ ينشط في انتزاع الألغام، في الظلام، واحداً واحداً»[26]. ويعلق «بن آري» على ذلك، بصلف كبير، إذ يقول: «لو أن أحداً روى، في مدرسة الحرب، أن لواء مدرعاً، انطلق من السهل، واستطاع أن يحتل المواقع المحصنة التي تغطي القدس، في أقل من أربع ساعات لكان أخرج من القاعة، ومع هذا، فقد فعل رجالي ذلك»[27].

لقد وزع «بن آري» مدرعاته على ثلاثة محاور:

- المحور الأول: نحو مركز «الشيخ عبد العزيز» ـ قرية «البدو» (من موتسا، على طريق القدس ـ تل أبيب).
- والمحور الثاني: نحو «تلة الرادار» ـ قرية «البدو» (من مَعَلِه هَحَميشاه، على

(23) Ben Elissar et Schiff, Op. Cit., p. 205, et R. et W. Churchill, Op. Cit., p. 192.

(24) على لسان آري نفسه، R. et W. Churchill, Ibid., p. 192.

(25) Ibid., p. 192.

(26) Ibid., p. 193.

(27) Ibid.

طريق القدس ـ تل أبيب).

ـ والمحور الثالث: نحو «بيت أكسا» (من موتا).

وقد مهدت للهجوم طلعات «الفوغا» الجوية فقصفت مواقع الأردنيين، وكذلك فعلت المدفعية الإسرائيلية، ثم وجه «بن آري» دباباته باتجاه المراكز المحصّنة فدمّرها واحداً واحداً، وأرسل رجاله لنزع الألغام تحت جنح الظلام، وما إن أصبحوا على مقربة من مركز «الشيخ عبد العزيز» حتى انقضوا عليه فسقط سريعاً، وجرت معركة دامية على «تلة الرادار» انتهت بانتصار الإسرائيليين. وتقدم الإسرائيليون من المحورين، الأول والثاني، نحو قرية «البدو» فهاجموها من الجنوب الغربي ومن الجنوب الشرقي، وخاضوا فيها معركة عنيفة انتهت باحتلالهم لها عند منتصف ليل 5 ـ 6 حزيران بعد أن منوا «بخسائر فادحة»[28]، ثم تقدموا شرقاً باتجاه قرية «بيت أكسا» بينما لاقتهم، باتجاهها، قوات أخرى من الجنوب والشرق، فسقطت هذه الأخيرة بأيدي القوات المهاجمة صباح 6/6 (حوالى الساعة الرابعة)، وتقدمت القوات الإسرائيلية شرقاً حتى «تل الفول» شمال القدس، فاحتلته، وبذلك قطعت على الجيش الأردني طريقي: رام الله ـ القدس، وأريحا ـ القدس. ثم التفّت جنوباً حتى اتصلت بالحامية الإسرائيلية على جبل سكوبوس عند ظهر اليوم التالي، 6 حزيران[29] وأصبحت على المشارف الشمالية والشمالية الغربية للقدس، فعزلت المدينة من هاتين الجهتين. وهكذا، ما إن انتصف نهار اليوم الثاني من الحرب (6 حزيران) حتى كانت المدينة القديمة مطوقة من جهات ثلاث: الشمال والغرب والجنوب وأصبحت أهم الطرق الموصلة إليها ممنوعة على الجيش الأردني.

في هذه الأثناء أيضاً، وفي اليوم الأول من الحرب (5 حزيران)، كان اللواء المظلي (بقيادة الكولونيل موردخاي غور، أو موتا كما يسميه رفاقه، تحبباً) معسكراً بالقرب من أحد المطارات العسكرية، ينتظر صدور الأوامر إليه للانتقال إلى الجبهة المصرية، عندما تلقى أمراً بالانتقال إلى جبهة القدس. ويتحدث «موتا» نفسه عن مهمته هذه فيقول: إنه تلقى الأمر في الساعة 14 (من اليوم نفسه، 5

(28) Ben Elissar, et Schiff, Op. Cit., p. 207.

(29) Dayan, Op. Cit., p. 343.

حزيران) بنقل كتيبة من اللواء، ثم اللواء بأكمله، إلى جبهة القدس، ومهمتها:

«القيام بعملية اختراق في دفاعات العدو في أرض مبنية. الهدف الأول: تأمين الاتصال بالوحدة الإسرائيلية المتمركزة على جبل سكوبوس - البعيدة نحو 10 كلم عن المدينة - والهدف الثاني: التمركز بطريقة تسمح بشن هجوم على مدينة القدس القديمة»[30].

ولتنفيذ هذا الأمر، انتقل اللواء إلى مركز تجمع جديد يقع غرب القدس، وفي ناحية من ضواحيها تدعى «بيت هَكِرِم» حيث بدأ يستعد للتقدم نحو المدينة القديمة[31]. وفي الساعة 2,20 من صباح 6 حزيران، انطلقت كتيبتان من اللواء: الأولى باتجاه قطاع «مدرسة الشرطة»، والثانية: باتجاه حي «الشيخ جرّاح»[32].

ويصف «موتا» شراسة المعركة حول المدينة القديمة كما يلي: «كان القتال شرساً إلى حد منقطع النظير، وقد جاوز استعار المعركة كل تصور ممكن. ولا يجب أن ننسى أن الرجال واجهوا، من جهة، أرضاً متعرجة حيث يتخندق العدو بصلابة، ومن جهة أخرى، منطقة مبنية حيث يشكل كل بيت، وكل سقف، وكل قبو، عشاً للمقاومة. وغالباً ما كان على الرجال أن يفتحوا ثغرات في خمس شبكات متتابعة من الأسلاك الشائكة، وأن يشقوا طريقاً وسط الألغام التي تكتنف هذه الشبكات»[33]، ويستطرد موتا:

«لقد كانت خسائرنا فادحة، لدرجة أن قائد وحدة وصل إلى الهدف ومعه أربعة جنود فقط من عديد سريته، وآخر وصل مع سبعة فقط من جنود فصيلته، دون أن يصلني، في أي وقت، سوى البرقيات التالية: نحن نتابع المخطط، أجلوا الجرحى»[34].

وفي الساعة السادسة من صباح اليوم نفسه (6 حزيران) كانت هذه القوات قد

---

(30) Ben Elissar, et Schiff, Op. Cit., p. 209.

(31) Ibid., p. 211.

(32) Ibid., pp. 211-212, et Dayan, Op. Cit., p. 343.

(33) Ben Elissar et Schiff, Op. Cit., p. 213.

(34) Ibid.

احتلت فندق الأمباسادور والحي المسمى «الكولونية الأميركية La Colonie Americaine»، وقد استمرت عمليات تنظيف المثلث القائم بين «مدرسة الشرطة، والشيخ جراح، والكولونية الأميركية» حتى الساعة العاشرة قبل الظهر، وكانت قد تقدمت، فجر اليوم نفسه، كتيبة ثالثة، عبر بوابة «مندلبوم» نحو «باب هيرودوس» الواقع في الجهة الشمالية من سور المدينة القديمة. وبعد معركة استمرت سبع ساعات، تمكنت القوات الإسرائيلية من الوصول إلى حاميتها في «جبل سكوبوس» (المرتفع 830 متراً عن سطح البحر، والمشرف على المدينة القديمة)[35]. وفي صباح اليوم التالي (7 حزيران) احتلت قوات هذا اللواء موقع «أوغستا فيكتوريا» بين جبل سكوبوس وجبل الزيتون فأصبحت مسيطرة على طريق أريحا ـ القدس، من الجهة الشرقية. وهكذا تم تطويق المدينة القديمة «ومن مركز المراقبة أمام فندق انترناسيونال على جبل الزيتون، أعطى «موتاغور» أوامره إلى قادة الكتائب بالتقدم حتى «باب الأسود» ودخول المدينة القديمة وهذا ما فعلوه»[36].

كان على اللواء المظلي، لكي يجتاز المرتفعات الموصلة إلى «جبل سكوبوس» و «جبل الزيتون»، أن يقوم بهجوم جبهي على مدرسة الشرطة الأردنية التي تحولت إلى حصن، بالقرب من الخط الذي يفصل الضاحية العربية عن الضاحية الإسرائيلية، وعلى حصن آخر مهم يدعى «تلة الذخائر Colline des Munitions». أما السرية المكلفة هذه المهمة فقد «فتحت ممراً لها عبر أربع شبكات من الأسلاك الشائكة، حتى وصلت إلى الخنادق الدائرية المحيطة فنظفتها ثم احتلت الموقع بعد أن خاضت لذلك معارك التحام»[37] وقد سقط آخر معقل من معاقل الجيش الأردني في هذا الموقع في الساعة السادسة من صباح 6 حزيران[38].

ويصف «دايان» هذه المعركة بأنها «أقسى معارك الحرب كلها ضد الأردنيين»

(35) Ibid., pp. 213-214.
(36) Dayan, Op. Cit., p. 344.
(37) Ibid., p. 343.
(38) Ibid., p. 344.

ففيها «جرت الدماء في كل خطوة، ولكن رجالنا استمروا في القتال، في المتصمات، وفي الخنادق، وفي كل مكان. . . وقد خسرت أفضل وحدات جيشنا التي اشتركت في هذه المعركة 21 قتيلاً، وجرح أكثر من نصف الجنود والقسم الأكبر من الضباط»[39]. أما خسائر الجيش الأردني في هذه المعركة فقد قدرها الكولونيل «غور» بـ 106 قتلى «وكل الباقين جرحى» ثم يقول إن لواءه خسر تلك الليلة «ربع عديد ضباطه»[40].

ويتحدث الكولونيل «اميتاي» عن المهمات التي قام بها لواؤه (لواء القدس) في هذه المعركة، فيقول إن هذا اللواء هاجم حي «أبو طور» جنوب القدس القديمة، في «الساعات الأولى» من بعد ظهر الثلاثاء (6 حزيران)، وكان الجنود الأردنيون «يتشبثون بالأرض، ولا يرفضون التماس، ويخوضون معارك قاسية كلما أمكنهم ذلك، وقد تحولت المنازل إلى مواقع حصينة يجب احتلالها واحداً واحداً، حتى ولو كان القتال التحاماً»[41].

ويستطرد «اميتاي» في روايته لأحداث المعركة فيذكر أنه، بعد احتلاله «لأبو طور»، تقدم نحو «جبل صهيون» الذي يشرف على «باب صهيون» فاحتله، وفي اليوم التالي (7 حزيران) «وبينما كان موتا يحاصر المدينة القديمة من الشمال والشرق، انطلقتُ، من جبل صهيون، لأقوم بعمليات تنظيف للمناطق المحيطة بباب المغاربة و (بركة) شيلوه (أو بركة سلوان Siloe) في الجنوب والجنوب الشرقي من المدينة. أماالأسلحة التي كانت على الأسوار الجنوبية للمدينة القديمة فقد أسكتت بسرعة»[42].

العملية الثانية: اقتحام المدينة القديمة واحتلالها (الأربعاء في 7 حزيران):

كان الوضع العسكري حول المدينة القديمة عند ظهر الثلاثاء في 6 حزيران كما يلي:

---

(39) Ibid.

(40) Larteguy, Jean, Les Murailles d'israël, p. 176.

(41) Ben Elissar et Schiff, Op. Cit., pp. 215-216.

(42) Ibid., p. 216.

- من الشمال: طوق اللواء المدرع (بن آري) المدينة من هذه الجهة، وأصبح قريباً من سورها الشمالي بعد أن احتل قرية «شعفاط» القريبة من «جبل سكوبوس»، فمنع بذلك «كل طريق لتعزيزات أردنية، مهما كانت، من رام الله أو من وادي الأردن»[43].

- من الشمال الغربي: كان لواء المظليين (غور) قد احتل القسم الأكبر من حي الشيخ جرّاح في القسم الأردني من مدينة القدس، ثم استكمل تنظيف هذا الحي فيما تبقى من النهار.

- من الجنوب: كان لواء القدس (اميتاي) قد احتل قرية «صور باهر» ومنع على الجيش الأردني طريق بيت لحم ـ القدس[44].

وهكذا أصبحت القوات الإسرائيلية، التي تكتنف القدس من جميع جوانبها، جاهزة «للانقضاض على المدينة القديمة عندما تعطي القيادة العامة الأمر بذلك»[45].

وفي الساعة الخامسة من صباح الأربعاء 7 حزيران أعطى الجنرال حاييم بارليف مساعد رئيس الأركان العامة، موافقة هاتفية بمواجهة المدينة القديمة، وأضاف: «لقد تعرضنا لضغط كي يفرض علينا وقف القتال. نحن على ضفاف قناة السويس، وقد قُطّع المصريون إرباً إرباً. لذا، يجب أن لا تبقى المدينة القديمة نتوءاً بارزاً في أرضنا»[46].

كان اللواء المظلي (غور) مكلفاً اقتحام المدينة القديمة، وقد عزز بكتيبتين من الدبابات وأسند بالمدفعية والطيران، وكان عليه أن يصل أولاً إلى سور المدينة القديمة ليقتحمها من أبوابها التاريخية، فكان عليه إذن أن يقتحم المواقع الأردنية القائمة بينه وبين السور، وهي، من الشمال والشرق: أوغستا فيكتوريا، والطور، وجبل الزيتون. ويذكر «غور» أن مخطط الهجوم لحظ، لهذا الغرض

(43) Ibid., p. 215.

(44) Ibid.

(45) Ibid., p. 214.

(46) R. et W. Churchill, Op. Cit., p. 200.

«استخدام كتيبتين من الدبابات بحديد مخفّض، تستخدم إحداها للتغطية، وتتجه الثانية مباشرة على طريق أوغستا فيكتوريا»[47].

بدأ اللواء المظلي الهجوم في الساعة الثامنة والنصف صباحاً، تعززه كتيبتا الدبابات، وتسانده المدفعية والطائرات، بقصف مركّز وكثيف على مواقع الجيش الأردني في «أوغستا فيكتوريا» و «الطور» لمدة نصف ساعة[48]. ثم تقدمت كتيبتان مظليتان تساندهما الدبابات، باتجاه «أوغستا فيكتوريا»، تقدمت واحدة من جبل سكوپوس على الطريق الشمالي - الجنوبي، وتقدمت الأخرى مباشرة من جهة المتحف الأركيولوجي[49]، ودخلتا الموقع، مع الدبابات، فوجدتاه خالياً من أية مقاومة[50]. عندها تقدم المظليون، بموازرة الدبابات، فاحتلوا الطور، وجبل الزيتون، وأصبحوا على سور المدينة القديمة[51]. وفي الساعة العاشرة والدقيقة الثانية عشرة، أطلق «غور» النداء التالي:

«أيها المظليون، نحن اليوم على أبواب المدينة القديمة، إن حلمنا سوف يتحقق، ويمكنكم أن تكونوا فخورين»[52].

ويتحدث «غور» عن هذا الهجوم فيقول: «لقد اعتمدنا في هذه العملية، تكتيكاً لم يسبق أن اعتمدناه من قبل، فقد انطلق فوج من جبل سكوپوس باتجاه أوغستا فيكتوريا مباشرة، وانطلق آخر في هجوم جبهي تاركاً خلفه سور المدينة القديمة، وكان على هذا الفوج أن يتقدم في منطقة حصينة، ولكني كنت قد عزمت على ركوب المخاطرة رغم ذلك، فأعطيت الأمر له بالتقدم. أما الفوج الثالث، فكان عليه أن ينطلق من باب هيرودوس ويسير بمحاذاة السور، تحت نيران العدو، ثم يجتاز السور إلى ساحة المعبد»[53].

---

(47) Ibid.

(48) Ibid.

(49) Ben Elissar, et Schiff, Op. Cit., p. 219.

(50) R. et W. Churchill, Op. Cit., p. 201.

(51) Ben Elissar, et Schiff, Op. Cit., p. 219.

(52) Ibid., pp. 219-220.

(53) R. W. Churchill, Op. Cit., p. 201.

ويستطرد «غور»: «طلبنا تدخل الطيران في الساعة الثامنة والنصف، وطلب فوج جبل سكوبوس مهلة ربع ساعة إضافية، ولكني لم أتمكن من الموافقة على طلبه وأمرته بالانتقال فوراً إلى الهجوم، ثم أعطيت سدنة الدبابات الأمر بامتطاء دباباتهم وبالتصرف وفقاً للمكان الذي يواجهون فيه العدو، وكانت مدفعيتنا تقصف بلا توقف، وكانت الدبابات تتقدم وهي تطلق النار في كل الاتجاهات، وقد أتبعنها بوحدة آلية مجهزة بمدافع غير مرتدة... ثم اندفعنا، وقد أمرت فوج جبل سكوبوس بالتقدم بأقصى سرعة ممكنة، وأمرت الفوج الثاني ببدء هجومه الجبهي... وتقدمنا... فإذا بنا وجهاً لوجه أمام المدينة القديمة. ساحة المعبد أمامنا، بقبابها الذهبية والفضية، والمدينة الجديدة خلفنا. في هذا الوقت، أعطيتُ الأمر إلى لوائي باقتحام المدينة القديمة... وأمرت كذلك أفواج المشاة الثلاثة بالتقدم إلى الأمام بالسرعة الممكنة... ثم بدأنا بقصف الحي الإسلامي من المدينة القديمة... كي نتيح لوحداتنا عبور باب هيرودوس»(54). ويتابع «غور»: «استمر القصف عشر دقائق، وكان فعالاً جداً، فتحت كل دباباتنا النار، وكذلك المدافع غير المرتدة، كنسنا جوانب السور، ولكن أية قذيفة منا لم توجه نحو الأماكن المقدسة، ولم تلامسها، ورمينا تسفيداً (Tir d'enfilade) على النقطة التي سيتم الخرق منها. كان السور يهتز بكامله، والحجارة تتساقط، بينما كنا نرمي فقط على يمين باب سانت اتيان (باب الأسباط). وإذ رأيت الدبابات تتقدم... أمرت المشاة بأن لا تترك مسافة بينها وبين الدبابات، وأوقفت رمايات المدفعية لحظة، ولكن ما أن أعلنت دباباتنا أنها حددت مواقع العدو حتى أمرت المدفعية بمعاودة الرمي، وتابعنا التقدم حتى نقطة تقع تحت باب سانت اتيان». ويصف «غور» بعد ذلك كيف اجتاز الباب بسيارته «نصف المسرَّفة Half-Trak» ووصل إلى المعبد حيث «لا قذائف، إنه مكان مقدس، لا نستطيع الدبابات الاقتراب منه، أما المشاة فنعم»(55).

ويتابع «غور»: «انتهت العملية، ولم يبق إلا التنظيف. وعندها تقدم مني حاكم المدينة ويرفقته القاضي (وجيهٌ مُسلم)، واعلمني أنه كان قد عزم عزماً

---

(54) Ibid., pp. 201-202.

(55) Ibid., p. 202.

مطلقاً على رفض الدفاع عن المدينة، وأكد لي أن القوات (الأردنية) رحلت جميعها، ولم يعد هناك مقاومة»[56].

ولكننا لا بد من أن نذكر ما لم يذكره «غور» في «وصفه المهيب» هنا وهو:

1 - إن القوة الأردنية التي احتلت دار الحكومة على جبل المكبّر لم تكن أكثر من مفرزة من المشاة (لم تتعد السرية) وكانت محرومة من أي غطاء جوي، إذ إن السيطرة الجوية كانت في ذلك الحين بيد اسرائيل التي احتلت ذلك الموقع، في اليوم نفسه، بكتيبة معززة بالمدفعية ومسندة بالطيران.

2 - إن القوة الأردنية التي كانت تحتل مواقع الشيخ عبد العزيز وتل الرادار وقرية البدو وقرية بيت أكسا لم تكن تتعدى كتيبة مشاة تفتقر، كباقي جهاز الدفاع الأردني، إلى غطاء جوي مساند، أما القوة الإسرائيلية التي هاجمت تلك المواقع فكانت لواء مدرعاً معززاً بالمدفعية والطيران.

3 - إن القوة الأردنية التي كانت تحتل مدرسة الشرطة وحي الشيخ جرّاح والكولونية الأميركية وتلة الذخائر وغيرها من المواقع في مواجهة اللواء المظلي لم تكن تتعدى الكتيبة الواحدة، أي نحو 700 ضابط وجندي مع 12 مدفعاً و6 رشاشات (الكتيبة الثانية من اللواء الثالث، لواء الإمام علي)، وقد كانت، كسابقاتها، تفتقر إلى المساندة الجوية اللازمة لافتقار الجيش الأردني بأسره لهذه المساندة، بينما كان اللواء المظلي المهاجِم مؤلفاً من 3 كتائب مظليين وكتيبة مدفعية وسرية استطلاع وسرية لاسلكي وخدمات إدارية مع كتيبة دبابات (54 دبابة)، فكان عديد هذا اللواء إذن نحو 3700 ضابط وجندي. بالإضافة إلى المساندة المؤمنة له بالمدفعية والطيران.

4 - لم تتمكن القيادة الأردنية من الاستفادة من قواتها المدرعة بسبب افتقارها إلى الغطاء الجوي، فقد كانت هذه القوات مؤلفة من لواءين مدرعين هما:

اللواء 40 واللواء 60، وكانت مهمة أحدهما (اللواء 60): «تغطية القسم الجنوبي من وادي الأردن على أن يظل وراء القدس» وذلك تنفيذاً لاتفاقية

---

(56) Ibid.

الهدنة التي كانت تقضي ببقاء القوات المدرعة «على مسافة معينة من ضواحي المدينة المقدسة» وامتناعها عن تخطي «التخوم التي وافق الطرفان على تحديدها»[57]. وما أن اندلعت الحرب وقررت القيادة الأردنية تحريك هذه القوات المدرعة حتى كانت عرضة لقصف الطائرات العدوة التي كانت تلاحقها وتسلط عليها نيران رشاشاتها[58]. ومع ذلك فقد خاض اللواء المدرع الستون (دبابات باتون 48) بعض المعارك في ضواحي القدس ضد اللواء العاشر المدرع الإسرائيلي (دبابات شرمن)، إلا أن القوى لم تكن متكافئة كما رأينا، وكان النصر بالتالي حليف الأقوى والمستند بالطيران، ومع ذلك فقد كانت خسارة اللواء الإسرائيلي باهظة ومكلفة[59].

5 - لم تتمكن القيادة الأردنية كذلك من الاستفادة من قوى الدعم التي أرسلت إليها من الدول العربية (مصر وسوريا والعراق والسعودية). فقد أرسلت مصر كتيبتين من المغاوير (الكتيبة 33 والكتيبة 53) فألحقت إحداهما (الكتيبة 33) بلواء المشاة الخامس والعشرين (لواء خالد بن الوليد) الذي كان يقاتل في منطقة جنين، وألحقت الثانية (الكتيبة 53) بلواء المشاة الثاني (اللواء الهاشمي) الذي كان يقاتل في منطقة رام الله، ولم تتمكن هاتان الكتيبتان من القيام بأية مهمة تذكر[60]. وأرسلت سوريا لواء مشاة مدرع (اللواء 17) إلا أن هذا اللواء الذي وصلت طلائعه إلى الحدود الأردنية السورية ظهر يوم 7 حزيران، لم يتمكن من الاشتراك في القتال طيلة هذا اليوم واليوم الذي يليه (8 حزيران)، فأعيد إلى سوريا يوم 9 حزيران[61]. وأرسلت السعودية لواء غير مكتمل (3 كتائب مشاة فقط)، وكان وضعه كوضع اللواء السوري، فقد وصلت طلائعه إلى الأردن يوم 6 حزيران، إلا أن وصوله لم يكتمل إلا يوم 12 منه، وعلى هذا، فهو لم يتمكن من الاشتراك في القتال[62]. وأرسل العراق أربعة ألوية: لواءي مشاة (اللواء

---

(57) فانس ولوير، المصدر السابق، ص 161.

(58) م. ن. ص 62.

(59) Narkiss, Uzi, la bataille pour Jérusalem, pp. 237-238.

(60) فانس ولوير، المصدر السابق، ص 81.

(61) م. ن. ص 82 ـ 83.

(62) م. ن. ص 80 ـ 81.

الأول واللواء 27) ولواء مدرعات (اللواء السادس) ولواء سياراً (اللواء الثامن)، فقد أرسل اللواء السيّار عند منتصف ليل الاثنين/ الثلاثاء 5/ 6 حزيران إلى منطقة المفرق ولكن العدو هاجه بطائراته ودمر قسماً كبيراً منه قبل أن يصل إلى ميدان القتال، وأرسلت باقي الألوية (لواءا المشاة واللواء المدرع) مساء الثلاثاء 6 حزيران، إلا أن الإسرائيليين اكتشفوا تحرك هذه الألوية فقصفوها بالطيران وأنزلوا بها خسائر فادحة، إلا أن الجهد الذي بذله الضباط والجنود العراقيون لإيصال آلياتهم ودباباتهم إلى الجبهة (من بغداد إلى وادي الأردن) كان جهداً يثير الإعجاب[63].

6 ـ تجدر الإشارة إلى أنه، عندما شن اللواء المظلي هجومه على المدينة القديمة صباح 7 تموز، وجد المواقع الأردنية خالية من أية مقاومة (باستثناء بعض المقاومين المنفردين) وذلك لأن القوات الأردنية انسحبت من مواقعها في المدينة القديمة قبل بدء الهجوم، وفي صباح 7 حزيران[64]. ويؤكد ذلك «غور» نفسه معقباً على حديث حاكم القدس القديمة معه، إذ يقول: «وفي الحقيقة، لم يكن هناك أية مقاومة في داخل المدينة. أما الجنود الأربعة والضابطان الذين قتلوا في أثناء الهجوم فقد أصيبوا في أثناء القتال على السور»[65]. بينما يذكر الملك حسين أنه، في اليوم الثاني للحرب (الثلاثاء 6 حزيران) تلقى الفريق رياض، قائد القوات العربية على الجبهة الأردنية، موافقة المشير عامر، القائد الأعلى للقوات المسلحة، على الانسحاب من الضفة الغربية، وقد نفذ الفريق رياض ذلك فوراً وأعطى أوامره للقوات التي تقاتل في الضفة الغربية بالانسحاب. كما يذكر أنه تلقى برقية من الرئيس عبد الناصر، بالتاريخ نفسه (6 حزيران) تشير عليه بالانسحاب من الضفة الغربية، ولكن الملك رفض ذلك وأصدر أوامره إلى جميع قواته في الضفة كي «تبقى في المواقع التي تحتلها»[66]، كما ورد في برقية جوابية منه للرئيس عبد الناصر. ويشير الملك، في ختام حديثه عن هذا الموضوع، إلى

---

(63) م. ن. ص 85 ـ 86.

(64) مصطفى، المرجع السابق، ج 1: 74.

(65) R. et W. Churchill, Op. Cit., p. 203.

(66) فانس ولوير، المرجع السابق، ص 74 ـ 75.

أن القدس قد سقطت يوم الأربعاء (7 حزيران) ظهراً «بعد مقاومة ضارية»[67].

الخسائر:

بلغ عدد شهداء الجيش الأردني في هذه المعركة، من الكتيبة الثانية (من اللواء الثالث) فقط 195 شهيداً وعدد الجرحى 205 رجال. فيكون مجموع الخسائر البشرية في هذه الكتيبة 400 رجل بين شهيد وجريح من أصل مجموع الكتيبة وهو 700 رجل، أي أن الخسائر بلغت نسبة 60٪ من عديد الكتيبة[68]، (منهم: 123 شهيداً من أصل 140 مقاتلاً من السرية المدافعة عن مدرسة الشرطة، و17 شهيداً من السرية المدافعة عن تلة الذخائر، و24 شهيداً من السرية المدافعة عن حي الشيخ جرّاح). أما كتيبة المدفعية المساندة للواء الثالث (لواء الإمام علي) الذي كان مسؤولاً عن منطقة القدس، (وهي كتيبة الميدان التاسعة) فقد خسرت ضابطاً شهيداً و8 جنود شهداء «وجرح معظم الباقين»[69].

أما خسائر الإسرائيليين فلم نتمكن من تحديدها، إلا أنها كانت ولا شك فادحة جداً، يدل على ذلك ما سبق أن ذكرناه، في أثناء شرحنا للمعركة (ما ورد معنا مثلاً على لسان «غور» من أن فصيلة وصلت إلى أحد الأهداف بسبعة جنود، وأن سرية وصلت بأربعة فقط، وأن نداء «اخلوا الجرحى» كان هو النداء المسيطر على المعركة، وأن كثيراً ما كان القتال في بعض المواقع التحاماً... ثم ما ورد على لسان «دايان» من أن إحدى وحدات الجيش الإسرائيلي خسرت في دفعة واحدة 21 قتيلاً، وجرح أكثر من نصف الجنود والقسم الأكبر من الضباط... وغير ذلك مما أوردناه في تفاصيل المعركة).

وقد قدرت بعض المصادر عدد الإصابات الأردنية «في منطقة القدس ورام

---

(67) م. ن. ص 77، وانظر: م. ن. ص 70 ـ 77.

(68) مصطفى، المرجع السابق، ج 2: 71. وذلك من أصل 6094 شهيداً أو مفقوداً هم مجموع الذين سقطوا في معارك الضفة الغربية، (فانس ولوير، المصدر السابق، ص 71).

(69) م. ن، ص 74 (عن كتاب «في سبيل السلام» للواء علي أبو نوار).

الله والخليل» بنحو «ألف قتيل وجريح»، كما قدرت خسائر الإسرائيليين في معارك «القدس وضواحيها» بأكثر من «800 إصابة منها 200 قتيل»[70].

ج ـ النهاية:

في الساعة التاسعة والدقيقة الخمسين من صباح 7 حزيران (1967) دخل «غور» المدينة القديمة من باب الأسباط (سانت اتيان)[71] ثم تقدم العدو بدباباته وجنده ليدخلها من أبوابها التاريخية القديمة (باب الأسباط وباب الساهرة أو هيرودوس)، ودخلها كذلك الجنرال «عوزي ناركيس» قائد المنطقة الوسطى وقائد جبهة القدس، والجنرال «حاييم بارليف» مساعد رئيس الأركان العامة، والجنرال «غورن» رئيس الحاخامين في الجيش، الذي كان يحمل بين يديه نسخة قديمة من التوراة (وهي كناية عن ورق ملفوف كتبت عليه شريعة موسى)[72]. وكانت الساعة العاشرة والربع تماماً عندما تقدم رئيس الحاخامين في الجيش، وبرفقته القادة العسكريون المذكورون[73]، إلى حائط المبكى، فقبّله، ثم نفخ في بوق من قرن الثور، معلناً، لليهود، السقوط التاريخي للمدينة المقدسة.

وفي الساعة الرابعة عشرة بعد الظهر، دخل الجنرال «موشي دايان»، وزير الدفاع، المدينة القديمة ومعه الجنرال «اسحق رابين»، رئيس الأركان، والجنرال «ناركيس» واتجهوا جميعاً نحو حائط المبكى، حيث كتب دايان، بخط يده، وعلى ورقة صغيرة، أمنية تمناها بهذه المناسبة، ووضع الورقة بين أحجار الحائط، وفقاً لعادة يهودية متوارثة، وكانت أمنيته هي: «ليستتب الأمن في اسرائيل» (دون أن يذكر أن الأمن المطلوب أبداً هو الأمن القائم على السلام العادل والمحق)، ثم أعلن بعد ذلك، للصحفيين، بكل صلف وكبرياء: «ها نحن عدنا إلى أقدس أماكننا، ولن نغادره أبداً»[74].

---

(70) دبري، تريفون، الحروب العربية ـ الإسرائيلية، ص 414.

(71) R. et W. Churchill, Op. Cit., p. 203.

(72) Ben Elissar, et Chiff, Op. Cit., p. 220.

(73) R. et W. Churchill, Op. Cit., p. 203.

(74) Ibid.

وأما الجنرال «ناركيس» فقد كتب في «أمر اليوم» ما يلي:

«اليوم تحررت القدس

«شمال مدينة أجدادنا، وجنوبها، بأيدينا.

«يبقى علينا أن نخوض معارك أيضاً.

«وإنني أنتظر منكم أيها الجنود، أن تقوموا بواجباتكم بحماسة».

الجنرال عوزي ناكيس

قائد المنطقة الوسطى[75].

---

(75) Narkiss, Op. Cit., p. 292.

كلمة أخيرة

وماذا بعد؟

منذ ثلاثين قرناً (عام 1000 ق. م) احتل العبرانيون يبوس (أو أوروسالم) لأول مرة في التاريخ، طردوا أهلها الأصليين (اليبوسيين) منها. هذا ما أخبرنا به العهد القديم، إذ جاء فيه: «وزحف الملك (داود) ورجاله على أورشليم، على اليبوسيين سكان تلك الأرض، فكلموا داود وقالوا: إنك لا تدخل إلى ههنا، فحتى العميان والعرج يصدونك. لكن داود أخذ حصن صهيون، وهو مدينة داود» (2 صم 5: 6 ـ 7).

ودار الزمن دورته، فانتقلت «يبوس» بعدها إلى المصريين فالأشوريين فالكلدانيين فالسلوقيين فالرومان فالبيزنطيين فالعرب المسلمين فالصليبيين فالمسلمين من جديد (أيوبيين فمماليك فعثمانيين). وكانت، في دورتها هذه، قد دُمّرت مرتين:

الأولى: على يد نبوخذ نصر الثاني الكلداني (عام 586 ق. م)، والثانية: على يد تيتوس القائد الروماني (عام 70م). وانتقلت من مدينة وثنية مقدسة (في عهد اليبوسيين) إلى مدينة يهودية مقدسة (في عهد العبرانيين) فمدينة وثنية مقدسة من جديد (باسم: ايليا كابيتولينا Aelia Capitolina، في عهد الرومان الوثنيين)، ثم إلى مدينة مسيحية مقدسة (في عهد الرومان والبيزنطيين)، ثم إلى مدينة إسلامية مقدسة (في عهد المسلمين).

ويبدو أن الزمن بدأ، مع القدس، دورة جديدة عادت، من جرائها، المدينة المقدسة إلى أحضان صهيون، ذلك أن الدلائل كلها تشير إلى احتفاظ اليهود

(العبرانيين الجدد) بها «كعاصمة أبدية» لهم، مع تغاضٍ واضح من قبل العالم كله، مسيحيين ومسلمين، وهو تغاضٍ بلغ حد التواطؤ والتآمر.

ذلك ما يؤكد أننا، نحن العرب، أمام منعطف مصيري وحاسم في تاريخنا، فالمرحلة التي ندخلها اليوم هي التي ستقرر مصير فلسطين والقدس لأجيال عديدة، كما ستقرر مصيرنا وتحسم الجدل القائم، حالياً، حول ما إذا كنا سنستعيد، فعلاً، مكانتنا تحت الشمس كأمة جديرة بالحياة، وأننا نستطيع، فعلاً، أن نحقق سيادتنا واستقلال إرادتنا، ونمسك زمام أمورنا بأنفسنا، فنحقق، بذلك، تحررنا، وهو ما يتيح لنا تحقيق وحدتنا وتحرير ما اغتصب من أرضنا على مدى وطننا العربي الكبير.

إن المرحلة التي ندخلها اليوم تفرض علينا أن نستقرىء الأمور بمنتهى الجدية والرصانة وأمانة المسؤولية. ولكي نستطيع أن نتبين ملامحها ونستكشف آفاقها، علينا أن نحسن قراءة اماراتها وعلاماتها، لكي نجابه ما ستواجهنا به من صعاب فنتدارك السقوط في هاوية لا قرار لها، وهو ما يخططه الأعداء لنا من مصير.

إن العالم بأسره يكتب، اليوم، بداية جديدة لتاريخه، فعلينا أن نكتب تاريخنا بأنفسنا، وأن لا ندع الآخرين يملونه علينا، وإلا، فإننا نكون قد أسهمنا في وضع نهاية مأساوية لأمتنا.

إنها مسؤولية جيلنا أمام الأجيال العربية المقبلة، فعلينا، إذن، أن لا نفرّط بالأمانة، وأن نتحمل المسؤولية التاريخية المصيرية بجدارة وتفانٍ وإيمان لا يتزعزع بمستقبل هذه الأمة وخلودها.

انتهيتُ من وضع مسوّدة هذا الكتاب يوم الاثنين في 5 كانون الأول/ ديسمبر عام 1994.. الموافق للثالث من شهر رجب عام 1415هـ

والله الموفق

المصادر والمراجع

1 ـ المراجع العربية

- ابن الأثير، عز الدين أبو الحسن، الكامل في التاريخ، جزء 2 و11، دار صادر ودار بيروت للطباعة والنشر، بيروت 1965 ـ 1966.
- ابن حوقل، أبو القاسم النصيبيني، صورة الأرض، دار مكتبة الحياة، بيروت، 1979.
- ابن خرداذبه، أبو القاسم عبد الله بن عبد الله، المسالك والممالك، دار إحياء التراث العربي، بيروت 1988.
- ابن القلانسي، حمزة بن أسد بن علي بن محمد التميمي، (ذيل) تاريخ دمشق، تحقيق: سهيل زكار. دار حسان، دمشق، 1983 (نشر الكتاب بعنوان: تاريخ دمشق، واسمه الصحيح: ذيل تاريخ دمشق).
- ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين، لسان العرب، دار صادر ودار بيروت، بيروت، 1968.
- أبو شامة، شهاب الدين أبو محمد عبد الرحمن بن اسماعيل بن ابراهيم المقدسي الشافعي، كتاب الروضتين في أخبار الدولتين، دار الجيل، بيروت، لا ت.
- الأصطخري، الشيخ ابن اسحق الفارسي، كتاب الأقاليم، مكتبة المثنى، بغداد 1839.
- الأصفهاني، العماد الكاتب، الفتح القسي في الفتح القدسي، تحقيق محمد محمود صبح، لا ن. لا ت.
- أنطونيوس، جورج، يقظة العرب، دار العلم للملايين، بيروت، ط 7، 1982.
- الأيوبي، الهيثم، وآخرون، الموسوعة العسكرية، الجزء الأول، المؤسسة العربية

للدراسات والنشر، بيروت، 1977.
- البلاذري، أبو العباس، فتوح البلدان، دار النشر للجامعيين، بيروت، 1957.
- التل، عبد الله، كارثة فلسطين، دار القلم، القاهرة، 1959.
- جريس، سمير، القدس، المخططات الصهيونية، الاحتلال، التهويد، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، بيروت، 1981.
- حتي، فيليب، تاريخ العرب المطول، دار الكشاف للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط 4، 1965.
- خسرو، ناصر، سفرنامة، تعريب: يحيى الخشاب، دار الكتاب الجديد، بيروت، 1970.
- الدباغ، مصطفى، بلادنا فلسطين، دار الطليعة، بيروت، ط 1، 1975.
- دجاني ـ شيكل، هادية، القاضي الفاضل عبد الرحيم البيساني العسقلاني (526ـ 596هـ/ 1131 ـ 1199م) دوره التخطيطي في دولة صلاح الدين وفتوحاته، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، بيروت، 1993.
- رستم، أسد، الروم وصلاتهم بالعرب، دار المكشوف، 1955.
- رنسيمان، ستيفن، تاريخ الحروب الصليبية، تعريب: السيد الباز العريني، دار الثقافة، بيروت، 1981.
- الزركلي، خير الدين، الأعلام، ط 5، دار العلم للملايين، بيروت، 1980.
- سميل ر. س. الحروب الصليبية، ترجمة، سامي هاشم، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1982.
- سويد، ياسين، التاريخ العسكري لبني اسرائيل من خلال كتابهم (تحت الطبع).
- سويد، ياسين، معارك خالد بن الوليد، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، الطبعة الرابعة، 1981.
- سويد، ياسين، مؤامرة الغرب على العرب، المركز العربي للأبحاث والتوثيق، بيروت، 1992.
- الشريف الإدريسي، أبو عبد الله، محمد بن محمد بن عبد الله بن ادريس الحموي الحسني، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، عالم الكتب، بيروت، 1989.
- الصوري، وليم، تاريخ الحروب الصليبية، تعريب: سهيل زكار، دار الفكر، بيروت، 1990.
- الطبري، أبو جعفر، تاريخ الرسل والملوك، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم،

جزء 3، دار المعارف بمصر، القاهرة، 1962.
- الطرسوسي، مرضي بن علي بن مرضي، تبصرة أرباب الألباب في كيفية النجاة في الحروب من الأسواء، تحقيق كلود كاهين، نشرة الدراسات الشرقية، المجلد 12، السنة 1947 ـ 1948، بيروت، 1948.
- ظاظا، حسن، أبحاث في الفكر اليهودي، دار القلم، دمشق، ودار العلوم والثقافة، بيروت، 1987.
- العارف، عارف، المفصل في تاريخ القدس، مطبعة المعارف، ط 1، القدس، 1961.
- العارف، عارف، النكبة، جزء 1 و2، المكتبة العصرية، صيدا ـ بيروت، 1956.
- عبد الحميد، صبحي، معارك العرب الحاسمة، مكتبة المنار للتوزيع، الكويت، 1967.
- عبد الملك، بطرس، وآخرون، قاموس الكتاب المقدس، منشورات مكتبة المشعل، بيروت، ط 6، 1981.
- العهد القديم، دار المشرق، بيروت، 1991.
- فانس، فيك، ولوير، بيار، الملك حسين: حربنا مع اسرائيل، دار النهار للنشر، بيروت، 1968.
- قاسم، قاسم عبده، ماهية الحروب الصليبية، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 1990.
- القرآن الكريم، وبهامشه تفسير الجلالين: جلال الدين المحلي وجلال الدين السيوطي.
- القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري، الجامع لأحكام القرآن، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر، القاهرة، 1967.
- قيادة الجيش الإسرائيلي، حرب فلسطين 1947 ـ 1948، ترجمة: أحمد خليفة، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، نيقوسيا، 1984.
- الكيالي، عبد الوهاب، موسوعة السياسة، بيروت، 1979 ـ 1994.
- مصطفى، حسن (عميد ركن)، حرب حزيران 1967، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت 1973.
- المقدسي المعروف بالبشاري، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، تحقيق: محمد مخزوم، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 1987.

- مؤسسة الدراسات الفلسطينية وقيادة الجيش اللبناني، القضية الفلسطينية والخطر الصهيوني، بيروت، 1973.
- هيئة الموسوعة الفلسطينية، الموسوعة الفلسطينية، القسم العام، دمشق، ط 1، 1984.
- الواقدي، أبو عبد الله، فتوح الشام، المكتبة الأهلية، بيروت، 1966.
- ياقوت، شهاب الدين، أبو عبد الله، معجم البلدان، دار صادر، بيروت، 1986.
- القدس، ندوة، الثانية (1991)، والثالثة (1992)، لجنة يوم القدس، عمان، 1992 و1993.

2 ـ المراجع الأجنبية:

- Bahat, Dan, The Illustration Atlas of Jerusalem, Simon and Shuster, New-York, 1989-1990.
- Ben Elissar, Eliahu, et Schiff, Zeev, La guerre Isrélo-Arabe, Ed. Julliard, Paris, 1967.
- Bernard, H. (Col), Leçons d'histoire militaire, 2e ed. Imprimerie médicale et scientifique, Bruxelles, 1951.
- Bosworth C.E.; Van Danzel, E; Lewis, B; et Pellat, Ch. Encyclopedie de l'Islam. Leiden-Paris, 1986.
- Boudet, Jacques, Histoire universelle des armées Ed. Robert Laffont, Paris, 1965.
- Churchill, Randolph et Winston, Victoire dans le desert, Ed. Gallimard, Paris, 1968.
- Dayan, Moshé, Histoire de ma vie, Ed. Fayard, Paris, 1976.
- Glubb, Sir John Bagot, A Soldier With the Arabs, London, Hodder and Stoughton, 4th Ed, 1959.
- Grousset, René, Histoire des Croisades, Librairie plon. Paris, 1936.
- Gwinn, Robert, and others, The New Encyclopaedia Britannica, 15th Ed. 1974-1990.
- Hadas-Lebel, Mireille, Jérusalem contre Rome, Ed. du Cerf, Paris, 1990.
- Josèph, Flavius, La guerre des Juifs, Ed, de minuit, Paris, 1977.
- Lapierre, Dominique et Collins, Larry, O Jérusalem, Ed. Laffont, Paris, 1971.
- Larteguy, Jean, Les Murailles d'Israél, Ed. et Publ. premières, Paris, 1968.
- Narkiss, Uzi, La bataille pour Jérusalem, Ed. Hachette, Paris, 1968.
- Riley-Smith, Jonathan, The Atlas of the Crusaders, Time book, London, 1991.
- Seguev, Samuel, La guerre de six jours, Ed. Calmann-Levy, Paris, 1967.
- Wanty, Emile, L'art de la guerre, Ed. Marabout université, Paris, 1967.

3 ـ الخارطات:

خارطة فلسطين عام 1948، تخطيط وتدقيق سعيد الصباغ، نشر منظمة التحرير الفلسطينية، مركز الأبحاث، بيروت.

فهرس المضمون

حروب القدس في التاريخ الإسلامي والعربي

الباب الأول:
حروب القدس في التاريخ الإسلامي

الباب الثاني:
حروب القدس في التاريخ العربي الحديث

فهرس

المخططات والخارطات والوثائق

الخارطات

الرسوم

الوثائق:

المؤلف

- ضابط «متقاعد» في الجيش اللبناني برتبة لواء ركن، من مواليد 1931.
- احيل الى التقاعد لبلوغه السن القانونية وذلك في أول تموز/يوليو عام 1990.
- حائز على شهادة الاركان من كلية الاركان ببيروت.
- تابع دورات عسكرية عدة في فرنسا وبلجيكا.
- تسلم مراكز قيادية في الجيش اللبناني اهمها: قسم التاريخ العسكري في مديرية الاعلام، وقيادة جهاز امن مطار بيروت الدولي، ورئيس المحكمة العسكرية.
- عضو مؤسس في «المنتدى القومي العربي» و «الهيئة الوطنية لمقاومة التطبيع» ببيروت.
- عضو في اللجنة الدولية للتاريخ العسكري وفي اللجنة الدولية للعلوم التاريخية.
- حائز على اجازة الحقوق من الجامعة اللبنانية ببيروت (1964).
- حائز على دكتوراه دولة في التاريخ من جامعة «السوربون» بفرنسا، بدرجة «مشرف جداً» (1984).
- استاذ متفرغ في الجامعة اللبنانية، كلية الآداب الفرع الاول.
- باحث ومحاضر في التاريخ العسكري، العربي والاسلامي، وفي الشؤون القومية والاستراتيجية.

دار المشرق للطباعة والنشر